

ابراهيم محمد الجمل

الحياة بعد الموت

الموت . القبر . البعث . الحساب . الجنة . النار

طبعه خاصه بالمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

« رَبَّنا اغْفِرْ لي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمؤمِنين يَوْمَ يَقُومُ الحسَابُ » .

« رَبِّ اغْفِرْ لي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِى مُؤْمِناً وَلِلْمؤمِنينَ وَالمؤمنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالمين إلَّا تَبَاراً » .


الحياة بعد الموت

إهـــداء

أستأذن القــارىء المسلم.. فى إهـداء هذا الكتاب

إلى أستاذى ..

الرجل الصالح ..

والعارف بالله ..

فضيلة الشيخ عبد السلام أبو الفضل

إمام وخطيب مسجد المتولى بالمحلة الكبرى

أول من رأته عيناى .. واستمعت له أذناى.

عرفانا وتقديرًا..

إبراهيم محمد الجمل

مقـــدمـــة

الحمد لله الذى قصم بالموت رقاب الجبابرة.. وكسر به ظهور الأكاسرة، وقصر به آمال القياصرة.. الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة، حتى جاءهم الوعد الحق فأرداهم فى الحافرة، فنقلوا من القصور إلى القبور، ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللحود، ومن ملاعبة الجواري والغلمان إلى مقاساة الهوام والديدان، ومن التضخم بالطعام والشراب إلى التمرغ في التراب، ومن أنس العشرة إلى وحشة الوحدة، ومن الضجيج الوثير إلى المصرع الوبيل..

فانظر هل وجدوا من الموت حصناً وعزاً، واتخذوا من دونه حجاباً وحرزاً؟! بالقهر والاستيلاء، واستأثر باستحقاق البقاء، وأذل أصناف الخلق بما كتب وانظر - هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً؟! فسبحان من انفرد عليهم من الفناء، ثم جعل الموت مخلصاً للاتقياء وموعداً في حقهم للقاء وجعل القبر سجناً للأشقياء وحبساً ضيقاً عليهم إلى يوم الفصل والقضاء.. فله الإنعام والنعم المتظاهرة، وله الانتقام بالنعم القاهرة، وله الشكر في السماوات والأرض.. وله الحمد في الأولى والآخرة.

واصلى واسلم على سيدنا وخليلنا محمد صلى الله عليه واله واتباعه ومن تبعهم واهتدى بهديهم صلاة وسلاما دائمين متلازمين الى يوم الدين..

امـــا بعـــد..

فجدير بالانسان ان يبحث فى قضايا نفسه ووجوده.. وجدير به ان يفكر فيحسن التفكر والتامل.. ويستخدم في ذلك ما اتاه الله من قوة الملاحظة وسرعة البديهة.. وما ال إليه في هذا العصر من أدوات الاكتشاف.. وعلوم المتقدمين والمتاخرين..

جدير به أن يتذكر ويتفكر، لانه يعلم ان الموت مصرعه، والتراب مضجعه، والدود أنيسه، ومنكر ونكير جليسه، والقبر مقره، وبطن الارض مستقره والقيامة موعده، والجنة أو النار مورده..

★ ★ ★ ★ ★

فقد جعل الحق سبحانه تعالى للإنسان دورا:

الاولى: دار الدنيا: حياته.. وبما قدم فيها يكون حاله في الدارين الاتيين..

والثانية: القبر: وفيه يشهد إما النعيم او العقاب؟.

والثالثة: دار الاخرة: وهي إما الجنة وإما النار؟..

★ ★ ★ ★ ★

فالعقلاء يدركون أن حياتهم الحقيقية هي حياتهم بعد موتهم.. ولذا فإنهم يحافظون على ذاتهم في حياتهم الدنيا.. فيخضعون لامر الله.. ويعيشون ملتزمين عابدين طائعين منيبين وجلين.. يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار..

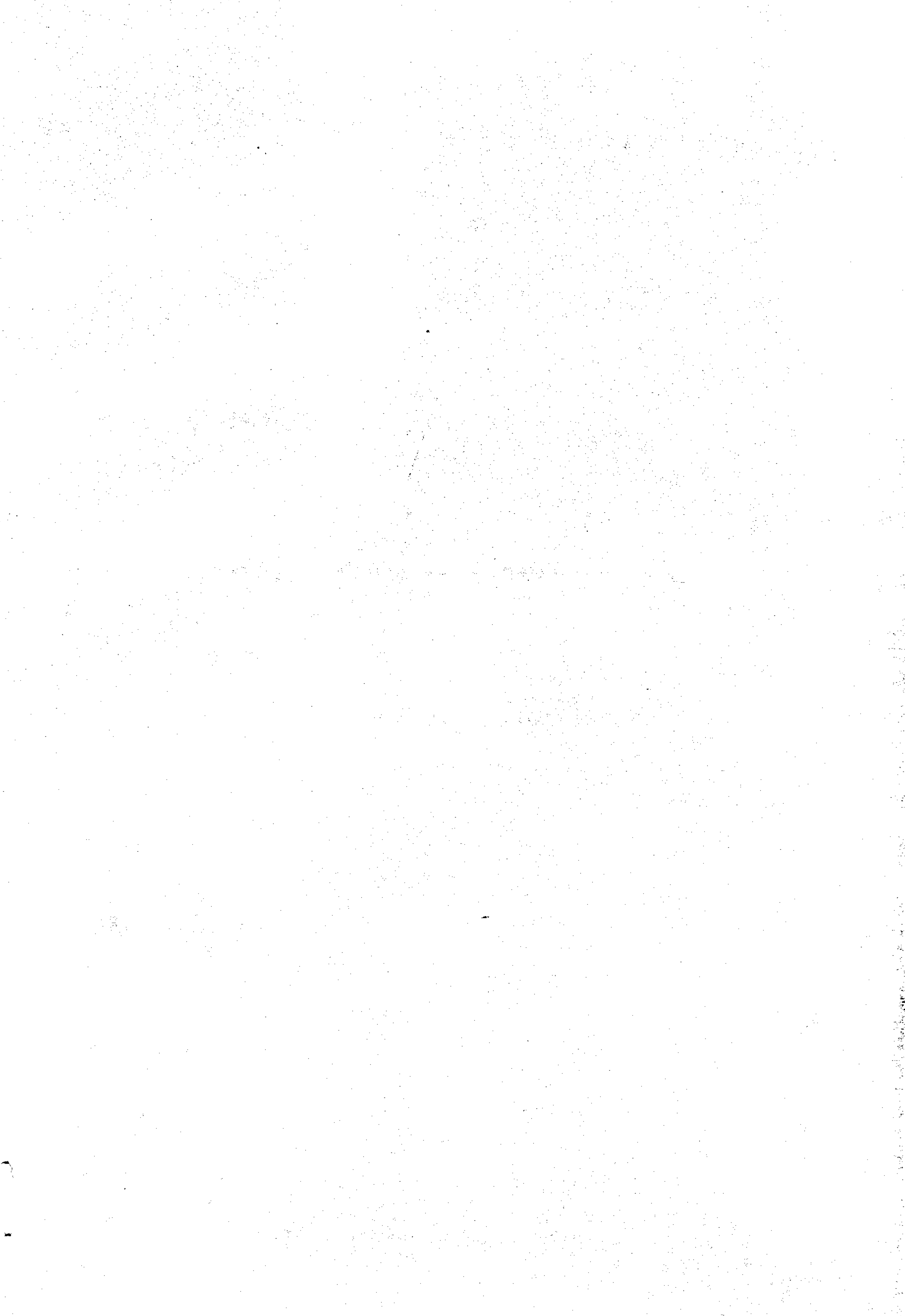
ولذا . . فقد اردت أن أبين حال الدارين الأخريين : القبر والدار الآخرة فوضعت هذا الكتاب الشامل لبيان ما يكون في هذين الدارين . .

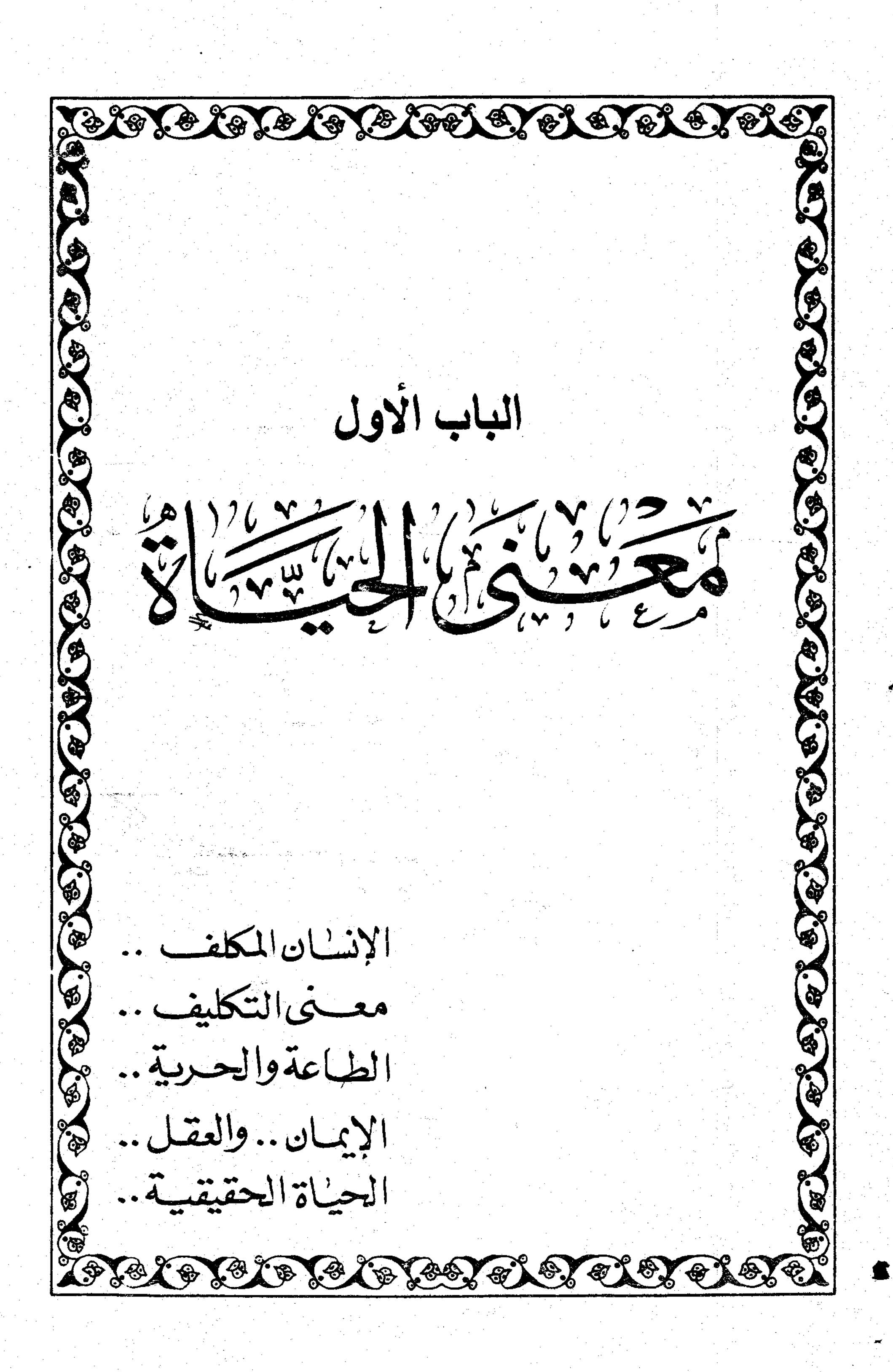
فجعلت الباب الأول منه في : معنى الحياة . .
والباب الثاني في : الحياة قبل الموت . .
والثالث في : سكرات الموت . .
والرابع في : عذاب القبر أو نعيمه . .
والخامس في : يوم القيامة . .
والسادس في : وصف النار .
والسابع في : وصف الجنة . .

* * *

أسأل الله رب العالمين أن ينفع به . . وأن يجعله في صحائف أعمالي يوم القيامة . .

ابراهيم محمد الجمل
القاهرة في غرة رجب سنة ١٤٠٤هـ . .





الباب الأول

معنى الحياة

الإنسان المكلف ..

معنى التكليف ..

الطاعة والحرية ..

الإيمان .. والعقل ..

الحياة الحقيقية ..

معنى الحياة

الحياة . . عمل الإنسان على هذه المعمورة . .
أحياناً يتجه بعض الناس إلى ظلمات الجهالة . .
وأحياناً يسير بعضهم إلى دهاليز الفسق والفجور . .

وقليل من الناس ـ خاصة في زماننا ـ يقيسون الأمور بميزان المنطق فيعيشون كما يقضي هذا المنطق . . أي كما أمر الله رب العالمين . .

فلقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان قادراً على العمل الجاد . . وتعمير الأرض بالخير الوفير وأمده بالطاقات التي بها تتجمل صور الحياة . .

فأحسن تقويمه وتصويره وسخر له ما في السماوات والأرض . .

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[1] . .
﴿ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ ﴾[2] . .
﴿ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ ﴾[3] .

ولكنه ينفرد بين الخلائق بمساوىء لا يوصف بها غيره ، لأن السيئة

(١) التين : ٤
(٢) لقمان : ٢٠
(٣) الحج : ٦٥

والحسنة ـ على السواء ـ لا يوصف بها مخلوق غير مسؤول . . . . فهذا المخلوق المسؤول يوصف دون غيره من الخلائق بالكفر والظلم والطغيان والخسران والفجور والكنود ، لأنه دون غيره أهل للإيمان والعدل والرجحان والعفاف .

﴿ إن الإنسان لظلوم كفار ﴾[1] . .

* * *

ولكنه يجب أن يعى معنى التكليف له . . فخليق به أن يعي هذه الحقيقة . . وان يتنبه إلى هذه الفضيلة . .

يقول العقاد : : « من شروط التكليف : طاعة وحرية . . » .

وهذه بديهية يغفل عنها كثير من المجادلين في قضية القدر ، وفي قضية الإيمان ، وفي قضية التكليف والجزاء ، فيقصرون النظر على شرط الحرية ، ويهملون شرط الطاعة كأنه مناقض للجزاء وكأنه من اللازم عقلاً أن يكون الجزاء مقروناً بالحرية المطلقة ، وهي في ذاتها استحالة عقلية بكل احتمال يخطر على البال في فهم خلق الإنسان . . فمن بحث عن الإيمان بالتكليف غير ناظر إلى شرط « الطاعة » فلا جرم يضل عنه ولا ينتهي فيه إلى قرار ، لأنه يبحث عن شيء آخر ولا يبحث عن التكليف ولا على الايمان » ١ ٠ هـ[2] .

* * *

وفي كتاب الله خطاب منه سبحانه إلى باطن الإنسان وتقرير بأنه الخالق الهادي إلى سواء السبيل . وفيه وعد ووعيد . .

﴿ قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وأدعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون . فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة ﴾[3] . .

---

(١) ابراهيم : ٣٤

(٢) الإنسان في القرآن (٤١) ط دار الهلال .

(٣) الأعراف : ٢٩ .

﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴾[1] . .

وكثرة الآيات برهان على أن يكون فيها مجال للتأويل بغير معناها الظاهر . . لأن معناها ظاهر أنه سبحانه القادر . . الذي يقول للشيء كن فيكون . .

أفي هذا تناقض في حكم العقل إذا نظرنا إلى الأمر كله نظرة المعقول ولم نقصر النظر إلى النصوص ، أو إلى واجب الاعتقاد بمقتضى هذه النصوص ؟

إن الرجوع بالقضية إلى أسسها المحتملة على كل احتمال ، ينفي التناقض ، ويرينا كيف يكون هذا الاعتقاد « حلاً للمشكلة » من أسسها المفروضة جميعاً . . وخروجاً من التناقض الذي يلزمها على كل احتمال غير هذا الاحتمال . .

وليكن الإنسان روحاً وعقلاً خلقه الله ، أو يكن تركيباً عارضاً من تراكيب المادة لم يخلقه أحد ، على قول المؤمنين بالمادة مجردة من الفكر والإرادة .

وليكن التكليف ارادة من عند الله أو يكن ضرورة من قضاء الواقع لا يرتبط بها أمر ولا جزاء . .

فكيف يتصور العقل ارادة الإنسان على كل احتمال ؟

إنه لا يتصورها ارادة مطلقة من جميع القيود ؟ لأن ارادة انسان واحد تنطلق بغير قيد هي لكل انسان سواء ، وكيف يأتي هذا الإنسان الوحيد بارادته المطلقة منفرداً بها بين أمثاله المقيدين ؟ . .

أما أن يوجد الناس جميعاً بارادة مطلقة لكل منهم على سواء ، فهذه هي الاحالة الفعلية في الفرض والتقدير ، قبل الوصول بها إلى الايجاد والتحقيق .

فإذا كانت الارادة المطلقة هي ارادة الله ، فخلق الناس مكلفين بغير ارادة

---

(١) ابراهيم : ٢٧ .

لهم شيء غير معقول وغير مقبول ، لأن سقوط التكليف لا معنى له في هذه الحالة إلا أن يخلق الناس جميعاً متشابهين متماثلين متساوين في العمل الصالح الذي يساقون اليه ، كما تساق الآلات ، فلا فضل اذن للعاقل على غير العاقل ، ولا تمييز للإنسان على الجماد المجرد من الحس فضلاً عن الحيوان . .

فإذا وجب تكليف الإنسان ، فالعقل الإنساني لا يوجد إلا كما ينبغي أن يجب على حالة واحدة لا سواها ، وهي حالة الإرادة المخلوقة يودعها فيه الخالق كما ينبغي أن تودع ، وهي لا ينبغي أن تودع إلا على هذا الفرض الذي يدعو إليه القرآن .

إن الحرية المخلوقة حرية صحيحة كما ينبغي أن تكون في احتمال العقل المدرك المميز الذي يهتدي بإذن الله لما اختلفوا .

ولا يقال إن الحرية التي تخلق ليست بحرية . . فإن الحرية غير القيد سواء كانا مخلوقين أو مطبوعين ، وسواء كانا من عالم الروح أو من عالم المادة عند التمييز بينها كما تتمايز قيمة المعدن نفيساً وغير نفيس وكلاهما مخلوق أو مصنوع ، فإن صنعا للآنية الذهبية والآنية النحاسية لا ينفى نفاسة الأولى ولا يسوى بين الآنيتين المصنوعتين .

وليس في العقل شيء يسمى حرية مطبوعة ، تعلو على الحرية المخلوقة بالانطلاق من القيود غير معقول ، وغير موجود . .

* * *

وإذا وجدت للمخلوقات حرية أو وجدت لها إرادة ، فلنرجع إلى العقل لنرى كيف يتصورها العقل - أي عقل - وكيف تكون على احتمال واحد دون كل احتمال .

إنها لا تكون سواء في كل إنسان ، لأنها إذا امتنع فيها خلاف القوة لم يمتنع فيها خلاف الزمن والعمر ، ولا خلاف المكان والجسد ، ولا خلاف الحركة والجمود . .

وإذا امتنع فيها كل هذا الخلاف فليست هي بشيء ، إذ ليست الموجودات التي لم تتمايز ولم تتنوع بأشياء يقبلها التصور ، بل هي عدم ينقطع عن الوجود ، أو كائن لا يتميز فيه ولا تكليف ولا حسنة ولا سيئة ، ولا ثواب ولا عقاب .

فإذا وجد المخلوق حراً ذا إرادة فلا وجود له إلا بهذا الاختلاف في حكم العقل ، كيفما كان حكم النصوص .

وإذا قضى العقل بهذا دون سواه ، فالعقل هو الذي يتصور إرادة الله ، وإرادة الانسان على احتمال واحد دون سواه . .

وحكم الإيمان هنا وحكم العقل متماثلان ، إذ كان كل ما عدا حرية « الإيمان » فرضاً غير معقول ، بل غير موجود[1] . .

* * *

وخطأ شائع يوهم أناساً من المتدينين والمفكرين أن الايمان هو التسليم التام لأمور لا يقبلها العقل مع الوقوف مكتوف اليد ، مغمض العينين . . بلا اجتهاد ولا محاولة للفهم والنظر والتدبر . .

وهذا إيمان لا يقبله الإسلام . . لأنه هو الذي خاطب الناس بالعقل . . ووضع لهم برهان تقريره إذا استلزم الأمر . . مع علمه بأنهم مؤمنون صادقون .

فالإيمان أساساً هو نتيجة لعمل العقل واجتهاده . . فيصل إلى الحق بإذن الله . . لبحثه وتنظره وتدبره . .

* * *

« إن الموجود السرمدي الكامل المطلق الكمال هو الأله الذي نريده بالإيمان وهذا هو حقه في إيمان العقلاء بوجوده وربوبيته . .

ولكن العقل المحدود لا يحيط بالوجود المطلق الذي ليست له حدود . .

---

(١) السابق : ٤٤

أفيقول العقل إذن « لا إيمان بهذا الموجود المطلق لأنه هو الوحيد الذي يصح في العقل أن نؤمن به ونبحث عنه ، ولا يصح في العقول ايمان بغيره ؟» . .

العقل لا يقول هذا . .

والعقل إذا قال بضرورة الإيمان على هذه الصفة ، وبهذا الحق ، لم يكن قد ألغى عمله وأبطل وجوده ، بل هو يبلغ بذلك غاية عمله ، فهو عقل يزيد عليه إيمان . إن العقل الذي يزيد عليه الإيمان ، هو العقل الذي خاطبه القرآن بالتكليف ، أو هو العقل المؤمن الذي تعنيه النبوة بالتذكير والتبشير ، وهو المسؤول أن يستمع إلى النبي صلى الله عليه وسلم المرسل من عالم الغيب . . فلا معذرة له بعد حجة الغيب والتسليم ، وبعد حجة الشهادة والتفكير . .

ومع التسليم بهذا الموجود الكامل ، لا يعرف عقل الإنسان تكليفاً غير التكليف الذي بسطته نصوص القرآن فلا معنى للتكليف أصلاً إن لم تكن فيه طاعة وحرية ، ولا معنى للحرية من وراء إرادة الخالق وارادة المخلوق »[1] .

* * *

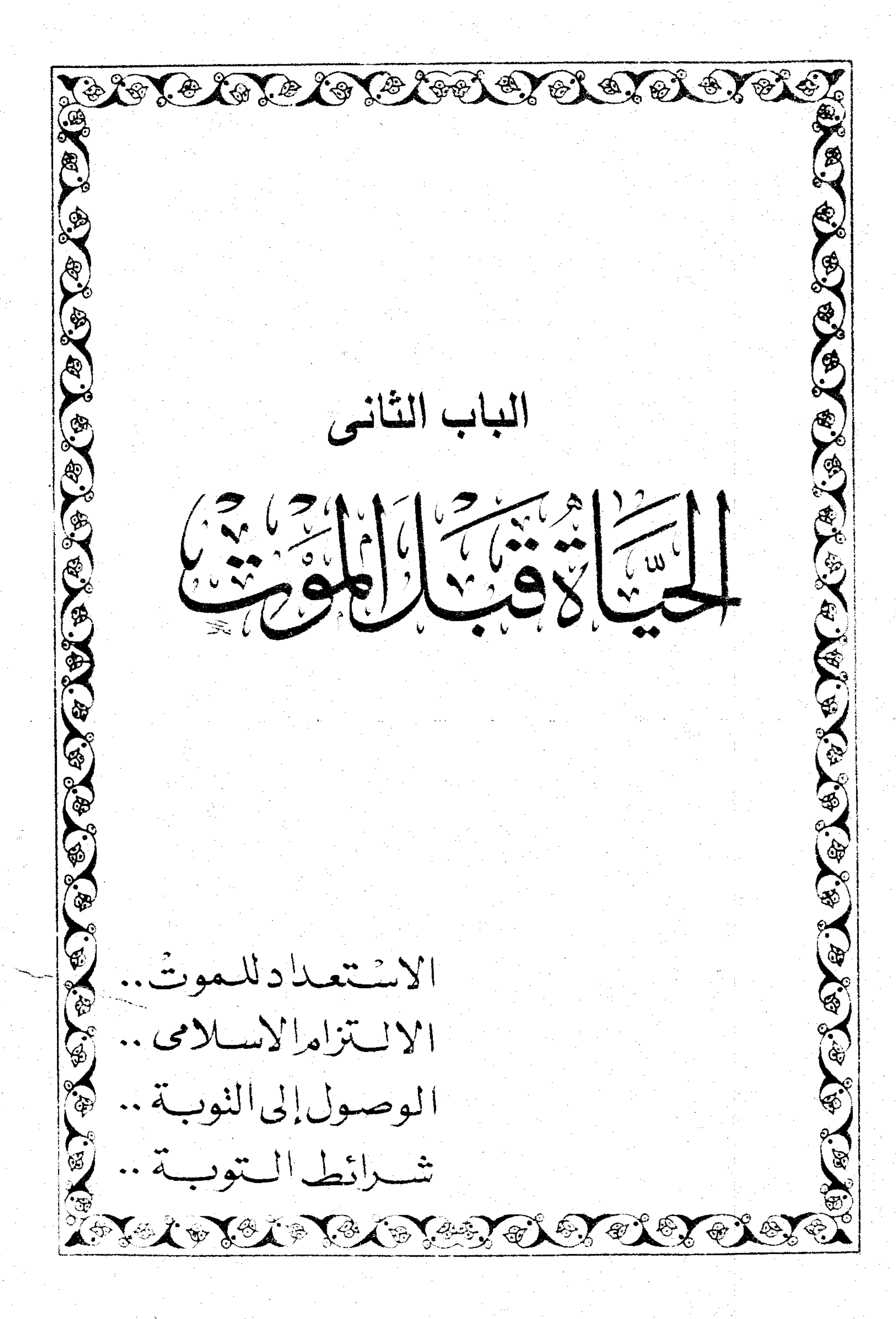
فهذا هو المعنى الحقيقي للحياة . . تكليف من الرب للعبد . . وعقل العبد يدرك به الوجود السرمدي المطلق الكامل . . فيدرك هذا التكليف . . فيطيع دون خروج عن أمره . .

لأنه ـ كما ذكرنا ـ لا معنى للتكليف أصلاً إن لم تكن فيه طاعة وحرية . . ويشذ الانسان فيوجه طاقات عقله إلى الأعمال الدنيوية ويحاول تناسي الخالق . . فيغرق في الظلمات . . ويتيه وسط الأدغال . .

فالحياة الهنيئة : هي حياة العبد العارف الخاضع لربه . . المراقب له جل جلاله . . وبغيرها لا تسمى حياة . .

---

(١) السابق : ٤٦ .



الباب الثانى

الحياة قبل الموت

الاستعداد للموت ..
الالتزام الاسلامى ..
الوصول إلى التوبة ..
شرائط التوبة ..

الحياة قبل الموت

الحياة قبل الموت : أعني بها حياة الإنسان على وجه هذه المعمورة . .

الحياة البشرية . . مليئة بالمشكلات والأحداث والأعاصير . . يشكو منها كثيرون ويتلذذ بها آخرون . .

ولكن وضع العلماء كثيراً من المصنفات في ذمها : فهي « لا تدوم حالها . . ولن يسلم من شر نزالها » . .

« إذا احلت أوحلت . . وإذا دنت أودنت . . وإذا كست أوكست » . .

السعيد من عرف حكايتها . . وتأكد من حقيقتها . . فأمضاها عملاً واجتهاداً . . وعاشها جداً والتزاماً . .

السعيد من كان معطاء للبشر . . معطاء لنفسه . . لأنه إن لم يُعْطِهم فسوف يلقي منهم الكثير من الشرور والمتاعب . . والأنانية تضرب صاحبها بيد من حديد . . ولسوف يأخذ منها مراده بعطائه لهم . . وعطائه لنفسه . . فذلك وضع لها حيث أمرها الله . . والعمل على تجنيبها عن موضع لا يرضاه الله . . وإنما يكون هذا . . بمنهج أوله: الاستعداد للموت . .

* الاستعداد للموت . .

- عن ابن عمر قال : كنت جالساً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء رجل من الأنصار فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله : أي المؤمنين أفضل ؟ قال : « أحسنهم خلقاً » قال : فأي المؤمنين أكيس ؟ قال : « أكثرهم للموت ذكراً وأحسنهم لما بعده استعداداً أولئك الأكياس » ١٠هـ[1] .

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « أكثروا ذكر هادم اللذات » ؟ ٠هـ . يعني الموت[2] .

- قال العلماء : قوله صلى الله عليه وسلم : « أكثروا من ذكر هادم اللذات » . - الموت - كلام مختصر وجيز قد جمع التذكرة وأبلغ في الموعظة فإن ذكر الموت حقيقة - نغص عليه لذته الحاضرة ، ومنعه من تمنيها في المستقبل ، وزهده فيما كان منها يؤمل : ولكن النفوس الراكدة ، والقلوب الغافلة تحتاج إلى تطويل الوعاظ ، وتزويق الألفاظ ، وإلا ففي قوله صلى الله عليه وسلم : « أكثروا ذكر هادم اللذات » مع قوله سبحانه :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾[3] . .

ما يكفي السامع له ، ويشغل الناظر فيه . . وكأن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كثيراً ما يتمثل بهذه الأبيات :

لَا شيءَ مما تَرىٰ تَبقىٰ بشاشتُهُ ... يَبقىٰ الآلهُ ويودي المالُ والولَدُ
لم تُغْنِ عن هُرمزٍ يَوْماً خزائنُهُ ... والخلْدُ قدْ حاولتْ عَادُ فما خلدُوا
ولا سليمان إذْ تجرى الرياحُ لَهُ ... والإنسُ والجنُّ فِيما بَيْنَهما تَردُ
أينَ الملوكُ التي كَانتْ لِعزَّتِها ... مِنْ كلّ أوْبٍ اليها وافدٌ يَفِدُ

---

(١) أخرجه ابن ماجه . . ومالك .
(٢) أخرجه النسائي . . وابن ماجه والترمذي وأبو نعيم .
(٣) آل عمران : ١٨٥

حَوْضٌ هُنَالِكَ مَوْرُودٌ بِلَا كَذِبٍ لَا بُدَّ مِنْ ورده يَوْماً كَمَا وَرَدُوا

* * *

وكان يزيد الرقاش يقول لنفسه : « ويحك يا يزيد ، من ذا يصلي عنك بعد الموت ؟ من ذا يصوم عنك بعد الموت ؟ من ذا يترضى عنك ربك بعد الموت ؟ ثم يقول : أيها الناس ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باقي حياتكم ؟ من الموت طالبه ؟ والقبر بيته والتراب فراشه . . والدود أنيسه . . وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر كيف يكون حاله ؟ ثم يبكي حتى يسقط مغشياً عليه .

* * *

ذكر القرطبي في التذكرة : قال الدّقاق : من أكثر من ذكر الموت أكرم بثلاثة أشياء . تعجيل التوبة ، وقناعة القلب ، ونشاط العبادة ، ومن نسي الموت عوقب بثلاثة أشياء : تسويف التوبة . وترك الرضى بالكفاف ، والتكاسل في العبادة ، فتفكر يا مغرور في الموت وسكرته ، وصعوبة كأسه ومرارته ، فيا للموت من وعد ما أصدقه ، ومن حاكم ما أعدله ، كفى بالموت مُقرِّحاً للقلوب ، ومبكياً للعيون ، ومفزعاً للجماعات ، وهادماً للذات ، وقاطعاً للأمنيات ، فهل تفكرت يا ابن آدم في يوم مصرعك ، وانتقالك من موضعك ، وإذا نقلت من سعة إلى ضيق : وخانك الصاحب والرفيق : وهجرك الأخ والصديق ، وأخذت من فراشك وغطائك إلى عرر ، وغطوك من بعد لين لحافك بتراب ومدر ، فيا جامع المال ، والمجتهد في البنيان ليس لك . . والله من مال إلا الأكفان ، بل هي والله للخراب والذهاب ، وجسمك للتراب والمآب . فأين الذي جمعتَه من المال ؟ فهل أنقذك من الأهوال ؟ كلا بل تركتَه إلى من لا يحمدك : وقدمتَ بأوزارك على من لا يعذرك . ولقد أحسن من قال في تفسير قوله تعالى :

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ﴾[1] . .

(١) القصص : ٧٧ .

أي اطلب فيما أعطاك الله من الدنيا ، الدار الآخرة وهي الجنة ، فإن حق المؤمن أن يصرف الدنيا فيما ينفعه في الآخرة ، لا في الطين والماء والتجبر والبغي . . فكأنهم قالوا : لا تنس أنك تترك جميع مالك إلا نصيبك الذي هو الكفن ، ونحو هذا قول الشاعر :

نَصِيبُكَ مِمَّا تَجْمَعُ الدَّهرَ كُلَّهُ   رِدَاءَانِ تُلْوَىٰ فيهما ، وَحَنُوطُ

* * *

قال أبو عبيد : دان نفسه : أي أذلها واستعبدها . يقال : دِنْته أدينه ، إذا ذللته فيذل نفسه في عبادة الله سبحانه وتعالى ، عملا يعده لما بعد الموت ، ولقاء الله تعالى ، وكذلك يحاسب نفسه على ما فرط من عمره ، ويستعد لعاقبة أمره ، بصالح عمله ، والتنصل من سالف زلله ، وذكر الله تعالى وطاعته في جميع أحواله . . فهذا هو الزاد ليوم الميعاد .

والعاجز : ضد الكيس . . والكيس : العاقل والعاجز : المقصر في الأمور ، فهو مع تقصيره في طاعة ربه ، واتباع شهوات نفسه مُتمنٍ على الله أن يغفر له . وهذا هو الاغترار ، فإن الله تعالى أمره ونهاه ، وقال الحسن البصري : « إن قوماً ألهتهم الأماني حتى خرجوا من الدنيا ومالهم حسنة » ويقول أحدهم : إني أحسن الظن بربي . وكذب لو أحسن الظن لأحسن العمل » .

* * *

* الالتزام الإسلامي . .

الالتزام الإسلامي هو التنفيذ الفعلي لأحكام الله . . ومراقبته دائماً في كل صغيرة وكبيرة لئلا يقع المسلم في محظور ما . . .

وإنما يصل المسلم إلى التزام إسلامي صحيح إذا أخلص العمل وراقب ربه . . وخاف . . والخوف منزلة عظمى يبلغ بها العبد منازل الأخيار .

* * *

يقول أبو حامد الغزالي عن الخوف « أعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال ، وقد ظهر هذا في بيان حقيقة الرجاء . . ومن أنس بالله وملك الحق قلبه وصار ابن وقته مشاهداً لجمال الحق على الدوام لم يبق له التفات إلى المستقبل فلم يكن له خوف ولا رجاء بل صار أعلى من الخوف والرجاء فإنهما زمامان يمنعان النفس عن الخروج إلى رعوناتها ، وإلى هذا أشار الواسطي حيث قال : « الخوف حجاب بين الله وبين العبد . وقال أيضاً إذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا لخوف . .

وبالجملة فالمحب إذا شغل قلبه في مشاهدة المحبوب بخوف الفراق كان ذلك نقصاً في الشهود وانما دوام الشهود غاية المقامات ؟ ولكنا الآن إنما نتكلم في أوائل المقامات فنقول :

حال الخوف : ينتظم أيضاً من علم وحال وعمل .

أما العلم - فهو العلم بالسبب المفضي إلى المكروه وذلك كمن جنى على ملك ثم وقع في يده فيخاف القتل مثلا ويجوز العفو والافلات ولكن يكون تألم قلبه بالخوف بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله وهو تفاحش جنايته وكون الملك في نفسه حقوداً غضوباً منتقماً وكونه محفوظا بمن يحثه على الانتقام خاليا عمن يتشفع اليه في حقه وكان هذا الخائف عاطلا عن كل وسيلة وحسنة تمحو أثر جنايته عند الملك فالعلم بتظاهر هذه الأسباب سبب لقوة الخوف وشدة تألم القلب وبحسب ضعف هذه الأسباب يضعف الخوف . . وقد يكون لا عن سبب جناية اقترفها الخائف بل عن صفة المخوف كالذي وقع في مخالب سبع . . فإنه يخاف السبع لصفة ذات السبع وهي حرصه وسطوته على الافتراس غالباً وإن كان افتراسه بالاختيار ، وقد يكون من صفة جبلية للمخوف منه كخوف من وقع في مجرى سيل أو جوار حريق فإن الماء يخوف لأنه بطبعه مجبول على السيلان والاغراق وكذا النار على الاحراق . . فالعلم بأسباب المكروه هو السبب الباعث المثير لاحراق القلب وتألمه وذلك الاحراق هو الخوف فكذلك الخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأنه لو أهلك العالمين لم

يبال . . ولم يمنعه مانع ، وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارنة المعاصي ، وتارة يكون بهما جميعا وبحسب معرفته بعيوب نفسه ومعرفته بجلال الله تعالى واستغنائه ، وأنه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون تكون قوة خوفه . فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم :

﴿ أَنَا أَخْوَفُكُمْ لِلهِ ﴾[1] . .

* *

واعلم أن الخوف لا يتحقق إلا بانتظار مكروه ، والمكروه : إما أن يكون مكروها في ذاته كالنار واما أن يكون مكروهاً لأنه يفضي إلى المكروه كما تكره المعاصي لأدائها إلى مكروه في الآخرة كما يكره المريض الفواكه المضرة لأدائها إلى الموت فلا بد لكل خائف من أن يتمثل في نفسه مكروهاً من احد القسمين ويقوى انتظاره في قلبه حتى يحرق قلبه بسبب استشعاره ذلك المكروه ومقام الخائفين يختلف فيما يغلب على قلوبهم من المكروهات المحذورة فالذين يغلب على قلوبهم ما ليس مكروها لذاته بل لغيره ... كالذين يغلب عليهم خوف الموت قبل التوبة أو خوف نقض التوبة ونكث العهد أو خوف ضعف القوة عن الوفاء بخوف زوال رقة القلب وتبدلها بالقساوة أو خوف الميل عن الاستقامة أو خوف استيلاء العادة في اتباع الشهوات المألوفة أو خوف أن يكله الله تعالى إلى حسناته التي اتكل عليها ، وتعزز بها في عباد الله أو خوف البطر بكثرة نعم الله عليه أو خوف الاشتغال عن الله بغير الله أو خوف الاستدراج بتواتر النعم أو خوف انكشاف غوائل طاعاته حيث يبدو له من الله مالم يكن يحتسب أو خوف تبعات الناس عنده في الغيبة والخيانة والغش واضمار السوء أو خوف ما لا يدري أنه يحدث في بقية عمره أو خوف تعجيل العقوبة في الدنيا والافتضاح قبل الموت أو خوف الاغترار بزخارف الدنيا أو خوف اطلاع الله على سريرته في حال غفلته عنه أو خوف الختم له عند الموت بخاتمة السوء أو خوف السابقة التي سبقت له في الأزل ، فهذه كلها مخاوف العارفين ولكل واحد خصوص فائدة

---

(١) أخرجه أصحاب السنن باسناد صحيح .

وهو سلوك سبيل الحذر عما يفضي إلى المخوف . . فمن يخاف استيلاء العادة عليه يواظب على الفطام عن العادة ، والذي يخاف من اطلاع الله تعالى على سريرته يشتغل بتطهر قلبه عن الوساوس . . وهكذا إلى بقية الأقسام وأغلب هذه المخاوف على اليقين خوف الخاتمة . . فإن الأمر فيه مخطر » أ . هـ .

* * *

وهكذا . . فإن الخوف يصل بالمسلم إلى درجة عندها يراقب ربه في كل دقيقة وجليلة . . فينجو من عذابه . . يوم لا ينفع مال ولا بنون . . الا من أتى الله بقلب سليم . .

*** الوصول إلى التوبة . .**

فإذا ما أخذ العبد في الاستعداد للموت . . وراقب ربه بقلبه . . وصل إلى منزلة التوبة . . التي عندها يؤنب نفسه ويحاسبها من آن لآخر . . يقف كل يوم فيتذكر ويحاسب . . فيتوب . .

* *

ومنزلة التوبة أول المنازل وأوسطها وآخرها ، فلا يفارقه العبد السالك ، ولا يزال فيه إلى الممات . . وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به . واستصحبه معه ونزل به . .

فالتوبة هي بداية العبد ونهايته . وحاجته اليها في النهاية ضرورية . كما أن حاجته اليها في البداية كذلك . وقد قال الله تعالى :

﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1] . .

وهذه الآية من سورة مدنية ، خاطب الله بها أهل الايمان وخيار خلقه أن يتوبوا اليه ، بعد ايمانهم وصبرهم ، وهجرتهم وجهادهم . ثم علّق الفلاح

---

(١) النور : ٣١ .

بالتوبة تعليق المسبب بسببه . وأتى بـأداة « لعل » المشعرة بالترجي ، ايذاناً بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح . فلا يرجو الفلاحَ إلا التائبون . جعلنا الله منهم . .

* * *

قال تعالى :

﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ . .(١)

قسم العباد إلى: تائب وظالم، لا يلحقهم قسم ثالث ألبتة، وأوقع اسم « الظالم » على من لم يتب . . ولا أظلم منه لجهله بربه وبحقه ، وبعيب نفسه وآفات عمله .

وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يا أيها الناس ، توبوا إلى الله ، فوالله إني لأتوب اليه في اليوم أكثر من سبعين مرة » أ . هـ .

وكان أصحابه يعدون له في المجلس الواحد قبل أن يقوم : « رب اغفر لي وتب علي انك أنت التواب الغفور ، مائة مرة » . .

وما صلى صلاة قط بعد إذ نزلت عليه ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ إلى آخرها . إلا قال فيها : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك . اللهم اغفر لي»أ. هـ . وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لن ينجى أحداً منكم عمله . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل » .

* * *

ولما كانت التوبة هي رجوع العبد إلى الله ، ومفارقته لصراط المغضوب عليهم ولا الضالين ، وذلك لا يحصل إلا بهداية الله إلى الصراط المستقيم . ولا

---

(١) الحجرات : ١١ .

تحصل هدايته الا باعانته وتوحيده ، فقد انتظمتها سورة الفاتحة أحسن انتظام ، وتضمنتها أبلغ تضمن .

فمن أعطى الفاتحة حقها ـ علماً وشهوداً وحالا ومعرفة ـ علم أنه لا تصح له قراءتها على العبودية الا بالتوبة النصوح .

فإن الهداية التامة إلى الصراط المستقيم لا تكون مع الجهل بالذنوب ، ولا مع الاصرار عليها . فإن الأول جهل ينافي معرفة الهدى ، والثاني غي ينافي قصده وارادته .

فلذلك لا تصح التوبة إلا بعد معرفة الذنب ، والاعتراف به ، وطلب التخليص من سوء عواقبه أولا وآخراً . .

* *

وقد عرف صاحب « المنازل » التوبة بأنها « النظر في الذنب إلى ثلاثة أشياء : إلى انخلاعك من العصمة حين اتيانه ، وفرحك عند الظفر به ، ومقودك عن الاصرار عن تداركه مع تيقنك نظر الحق اليك » .

قال ابن القيم معلقاً : « ويحتمل أن يريد الانخلاع من عصمة له ، وأنك إن ارتكبت الذنب بعد انخلاعك من توبة عصمته لك . فمتى عرف هذا الانخلاع وعظم خطره عنده . واشتدت عليه مفارقته . وعلم أن الهلك كل الهلك بعده . وهو الخذلان . فما خلى الله بينك وبين الذنب إلا بعد أن خذلك ، وخلى بينك وبين نفسك ، ولو عصمك ووفقك لما وجد الذنب اليك سبيلا . .

فقد أجمع العارفون بالله على أن الخذلان : أن يكلك الله إلى نفسك ، ويخلى بينك وبينها . والتوفيق أن لا يكلك الله إلى نفسك . وله سبحانه في هذه التخلية بينك وبين الذنب وخذلانك حتى واقعته ـ حكم وأسرار ـ وسنذكر بعضها .

وعلى الاحتمالين فترجع التوبة إلى اعتصامك به وعصمته لك .

قوله « وفرحك عند الظفر به » . .

الفرح بالمعصية دليل على شدة الرغبة فيها ، والجهل بقدر مَنْ عصاه ، والجهل بسوء عاقبتها وعظم خطرها . ففرحه بها غطى عليه ذلك كله . وفرحه بها أشد ضرراً عليه من موافقتها والمؤمن لا تتم له لذة بمعصية أبداً . . ولا يكمل بها فرحه . بل لا يباشرها إلا والحزن مخالط لقلبه ، ولكن سكر الشهوة يحجبه عن الشعور به . . ومتى خلى قلبه من هذا الحزن . . واشتدت غبطته وسروره ، فليتهم ايمانه . وليبك على موت قلبه ، فإنه لو كان حياً لأحزنه ارتكاب الذنب ، وغاظه وصعب عليه ، ولا يحس القلب بذلك ، فحيث لم يحس به فما لجرح بميت ايلام .

وهذه النكتة في الذنب قَلَّ من يهتدي اليها أو يتنبه لها . وهي موضع مخوف جداً ، مترام إلى هلاك إن لم يتدارك بثلاثة أشياء : خوف من الموافاة عليه قبل التوبة . وندم على ما فاته من الله بمخالفة أمره ، وتشمير للجد في استدراكه . .

قوله « وقعودك على الاصرار عن تداركه » .

الاصرار : هو الاستقرار على المخالفة . والعزم على المعاودة . وذلك ذنب آخر ، لعله أعظم من الذنب الأول بكثير ، وهذا من عقوبة الذنب : أنه يوجب ذنباً أكبر منه . ثم الثاني كذلك . ثم الثالث كذلك ، حتى يستحكم الهلاك .

فالاصرار على المعصية معصية أخرى . والقعود عن تدارك الفارط من المعصية اصرار ورضا بها ، وطمأنينة اليها ، وذلك علامة الهلاك . وأشد من هذا كله : المجاهرة بالذنب ، مع تيقن نظر الرب جل جلاله من فوق عرشه اليه .

فإن أمن بنظره اليه وأقدم على المجاهرة فعظيم . وإن لم يؤمن بنظره اليه واطلاعه عليه فكفر ، وانسلاخ من الاسلام بالكلية ، فهو دائر بين الأمرين . بين قلة الحياء ، ومجاهرة نظر الله اليه ، وبين الكفر والانسلاخ من الدين .

فلذلك يشترط في صحة التوبة تيقنه أن الله كان ناظراً - ولا يزال - اليه مطلعاً عليه . يراه جهرة عند مواقعة الذنب . لأن التوبة لا تصح إلا من مسلم ، إلا أن يكون كافراً بنظر الله جاحداً له . فتوبته دخوله في الاسلام واقراره بصفات الرب جل جلاله[1] . .

أما عن شروط التوبة فهي ثلاثة : الندم . والاقلاع عنه في الحال ، والعزم على أن لا يعاوده في المستقبل .

والثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التوبة ، فإنه في ذلك الوقت يندم ، ويقلع ، ويعزم .

فحينئذ يرجع إلى العبودية التي خلق لها . وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة .

ولما كان متوقفاً على تلك الثلاثة جعلت شروطاً له .

فأما الندم : فإن التوبة لا تتحقق إلا به ، إذ من لم يندم على القبيح فذلك دليل على رضاه به ، واصراره عليه ، وفي المسند « الندم توبة » .

واما الاقلاع : فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب .

وأما الاعتذار : ففيه اشكال ، فإن من الناس من يقول : من تمام التوبة ترك الاعتذار ، فإن الاعتذار محاجة عن الجناية . وترك الاعتذار اعتراف بها ، ولا تصح التوبة إلا بعد الاعتراف . وفي ذلك يقول بعض الشعراء لرئيسه ، وقد عقّب عليه في شيء :

وَمَا قَابَلْتُ عَتْبَكَ باعْتِذَار ... وَلَكِنّي أقولُ كَما تَقُول
وَأطْرقُ بابَ عَفْوِكَ بانكِسَار ... وَيحكُمُ بَيْنَنَا الخُلُقُ الجميل

فلما سمع الرئيس مقالته قام وركب اليه من فوره ، وأزال عتبه عليه. فتمام الاعتراف : ترك الاعتذار ، بأن يكون في قلبه ولسانه ، اللهم لا براءة من

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم ط. م السنة المحمدية (١/١٨١) .

ذنب فأعتذر ، ولا قوة لي فانتصر ، ولكني مذنب مستغفر . اللهم لا عذر لي وانما هو محض حقك ، ومحض جنايتي ، فإن عفوت والا فالحق لك .

* * *

وقد قال قائل : « إن من حقائق التوبة : طلب أعذار الخليقة » . .

والمعروف أن طلب أعذارهم في الجناية عائد على التوبة بالنقض والابطال .

المعنى الثاني : أن يكون مراده : اقامة أعذارهم في اساءتهم اليك ، وجنايتهم عليك ، والنظر في ذلك إلى الأقدار . وأن أفعالهم بمنزلة حركات الأشجار ، فتعذرهم بالقدر في حقك ، لا في حق ربك ، فهذا حق . وهو من شأن سادات العارفين ، وخواص أولياء الله الكُمَّل ، يغني أحدهم عن حقه ، ويستوفي حق ربه . ينظر في التفريط في حقه ، وفي الجناية عليه إلى القدر ، وينظر في حق الله إلى الأمر . فيطلب لهم العذر في حقه . . ويمحو عنهم العذر ويطلبه في حق الله .

وهكذا كانت حال نبينا صلى الله عليه وسلم ، كما قالت عائشة رضي الله عنها « ما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم، لنفسه قط ، ولا ينل منه شيء فانتقم لنفسه إلا أن تنتهك محارم الله . فإذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء ، حتى ينتقم الله » . .

وقالت عائشة رضي الله عنها أيضاً « ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده خادماً ، ولا دابة ، ولا شيئا قط ، إلا أن يجاهد في سبيل الله » .

وقال أنس رضي الله عنه « خدمت النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، فما قال لشيء صنعته : لم صنعتَه ؟ ولا لشيء لم أصنعه : لِمَ لم تصنعه ؟ وكان إذا عاتبني بعض أهله يقول : دعوه فلو قضى شيء لكان » . .

فانظر إلى نظره إلى القدر عند حقه ، وقيامه بالأمر . وقطع يد المرأة عند حق الله . ولم يقل هناك : القدر حكم عليها .

وكذلك عزمه على تحريق المتخلفين عن الصلاة معه في الجماعة . . ولم يقل : لو قضى لهم الصلاة لكانت .

وكذلك رجمه المرأة والرجل لما زنيا ، ولم يحتج في ذلك لهما بالقدر .

وكذلك فعله في العرنيين الذين قتلوا راعية ، واستاقوا الذود ، وكفروا بعد اسلامهم ، ولم يقل : قدر عليهم ، بل أمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف . وسمرت أعينهم . وتركوا في الحرة يستسقون فلا يسقون ، حتى ماتوا عطشاً ، إلى غير ذلك مما يطول بسطه .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعرف بالله وبحقه من أن يحتج بالقدر في حقه . وقال : « لو قضى شيء لكان » فصلوات الله وسلامه عليه .

فهذا المعنى الثاني - وإن كان حقا - لكن ليس هو من شرائط التوبة . ولا من أركانها - ولا له تعلق بها . فإنه لو لم يقم أعذارهم في اساءتهم اليد لما نقص ذلك شيئاً من توبته . فما أراد الا المعنى الأول . وقد عرفت ما فيه .

ولا ريب أن صاحب القول انما أراد أن يقدرهم بالقدر ، ويقيم عليهم حكم الأمر . فينظر بعين القدر ويعذرهم بها . وينظر بعين الأمر ويحملهم عليها بموجبها ، فلا يحجبه مطالعة الأمر عن القدر ، ولا ملاحظة القدر عن الأمر .

فهذا - وإن كان حقاً لا بد منه - فلا وجه لعذرهم . وليس عذرهم من التوبة في شيء ألبتة . ولو كان صحيحاً - فضلا عن كونه باطلا - فلا هم معذورون ، ولا طلب عذرهم من حقائق التوبة .

بل التحقيق : أن الغيرة لله ، والغضب له ، من حقائق التوبة ، فتعطيل عذر الخليفة في مخالفة الأمر والنهي ، وشدة الغضب : هو من علامات تعظيم الحرمة . . وذلك بأن يكون من خقائق التوبة أولى من عذر مخالفة الأمر والنهي .

ولا سيما أنه يدخل في هذا : عذر عباد الأصنام والأوثان ، وقتلة الأنبياء وفرعون وهامان ، ونمرود بن كنعان ، وأبو جهل وأصحابه ، وابليس وجنوده . . وكل كافر وظالم ومتعد حدود الله . ومنتهك محارم الله . فإنهم كلهم تحت

القدر ، وهم من الخليقة . أفيكون عذر هؤلاء من حقيقة التوبة ؟ .

فهذا مما أوجبه السير في طريق الفناء في توحيد الربوبية ، وجعله الغاية التي يشمر اليها السالكون .

ثم أي موافقة للمحبوب من عذر من لا يعذره هو؟ بل قد اشتد غضبه عليه . وأبعده عن قربه ، وطرده عن بابه ، ومقته أشد المقت؟ فإذا عذرته ، فهل يكون عذره الا تعرضاً لسخط المحبوب ، وسقوطاً من عينه ؟ .

* * *

قال صاحب المنازل « وسرائر حقيقة التوبة ثلاثة أشياء : تمييز التقية من العزة ، ونسيان الجناية ، والتوبة من التوبة ، لأن التائب داخل في الجميع » من قوله تعالى :

﴿ وَتُوبُوا إلى اللهِ جميعاً أيهَا المؤمنُونَ لعلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1] . .

فأمر التائب بالتوبة .

قوله « تمييز التقية من العزة » أن يكون المقصود من التوبة تقوى الله . . وهو خوفه وخشيته ، والقيام بأمره ، واجتناب نهيه ـ فيعمل بطاعة الله على نور من الله ، يرجو ثواب الله . . ويترك معصية الله على نور من الله . . يخاف عقاب الله . لا يريد بذلك عز الطاعة .

فإن للطاعة وللتوبة عزاً ظاهراً وباطناً . فلا يكون مقصوده العزة ، وإن علم أنها تحصل له بالطاعة والتوبة . فمن تاب لأجل العزة فتوبته مدخولة . . وفي بعض الآثار :

« أوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء : قل لفلان الزاهد : أما زهدك في الدنيا : فقد تعجلت به الراحة . وأما انقطاعك إليّ . . فقد اكتسبت به العزة ، ولكن ما عملت فيما لي عليك؟ قال : يا رب ، ومالك عليّ بعد هذا ؟ قال :

---

(١) النور : ٣١ .

هل واليت فيَّ ولياً، أو عاديت فيَّ عدواً ؟ » .

يعني : أن الراحة والعز حظك ، وقد نلتهما بالزهد والعبادة . ولكن أين القيام بحقي . وهو الموالاة فيَّ والمعاداة فيَّ ؟ .

فالشأن في التفريق في الأوامر بين حظك وحق ربك علماً وحالا .

وكثير من الصادقين قد يلتبس عليهم حال نفوسهم في ذلك . ولا يميزه الا أولو البصائر منهم ، وهم في الصادقين كالصادقين في الناس .

* * *

وأما نسيان الجناية : فهذا موضع تفصيل : فقد اختلف فيه أرباب الطريق . . فمنهم : من رأى الاشتغال عن ذكر الذنب والاعراض عنه صفحاً . فصفاء الوقت مع الله تعالى أولى بالتائب وأنفع له . ولهذا قيل : ذكر الجفا في وقت الصفا جفا .

ومنهم : من رأى أن الأولى أن لا ينسى ذنبه . بل لا يزال جاعلا له نصب عينه يلاحظه كل وقت . فيحدث له ذلك انكساراً وذلاً وخضوعاً ، أنفع له من جمعيته وصفاء وقته .

قالوا : ولهذا نقش داود الخطيئة في كفه . وكان ينظر اليها ويبكي . .

قالوا : ومتى تهت عن الطريق فارجع إلى ذنبك تجد الطريق .

ومعنى ذلك : أنك إذا رجعت إلى ذنبك انكسرت وذللت ، وأطرقت بين يدي الله عز وجل ، خاشعاً ذليلا خائفاً ، وهذه طريق العبودية .

والصواب : التفصيل في هذه المسألة : وهو أن يقال : إذا أحسَّ العبد من نفسه حال الصفاء غيما من الدعوى ، ورقيقة من العجب ونسيان المنة ، وخطفته نفسه عن حقيقة فقره ونقصه ، فذكر الذنب أنفع له ، وإن كان في حال مشاهدته منة الله عليه ، وكمال افتقاره اليه ، وفنائه به ، وعدم استغنائه عنه في ذرة من ذراته ، وقد خالط قلبه حال المحبة ، والفرح بالله والأنس به ، والشوق

إلى لقائه ، وشهود سعة رحمته وحلمه وعفوه .

وقد أشرقت على قلبه أنوار الأسماء والصفات . فنسيان الجناية والاعراض عن الذنب : أولى به وأنفع . فإنه متى رجع إلى ذكر الجناية توارى عند ذلك . . ونزل من علو إلى أسفل ، ومن حال إلى حال بينهما من التفاوت أبعد مما بين السماء والأرض ، وهذا من حسد الشيطان له . أراد أن يحطه عن مقامه ، وسير قلبه في ميادين المعرفة والمحبة ، والشوق : إلى وحشة الاساءة وحصر الجناية .

والأول يكون شهادة لجنايته منة من الله ، منَّ بها عليه ، ليؤمنه بها من مقت الدعوى ، وحجاب الكبر الخفي الذي لا يشعر به ، فهذا لون وهذا لون ، وهذا المحل فيه أمر وراء العبارة ، وبالله التوفيق ، وهو المستعان .

* * *

وأما التوبة من التوبة : فهي من المجملات التي يراد بها حق وباطل . ويكون مراد المتكلم بها حقاً . فيطلقه من غير تمييز .

فإن التوبة من أعظم الحسنات ، والتوبة من الحسنات من أعظم السيئات ، وأقبح الجنايات ، بل هي كفر إن أخذت على ظاهرها . ولا فرق بين التوبة من التوبة والتوبة من الإسلام والإيمان . فهل يسوغ أن يقال بالتوبة من الإيمان ؟ .

ولكن مرادهم : أن يتوب من رؤية التوبة . فإنها إنما حصلت له بمنة الله ومشيئته ، ولو خلى ونفسه لم تسمح بها ألبته ، فإذا رآها وشهد صدورها منه ووقوعها به ، وغفل عن منة الله عليه : تاب من هذه الرؤية والغفلة ، ولكن هذه الرؤية والغفلة ليست هي التوبة ، ولا جزءاً منها ، ولا شرطاً لها . بل هي جناية أخرى عرضت له بعد التوبة .

فيتوب من هذه الجناية ، كما تاب من الجناية الأولى . فما تاب إلا من ذنب أولاً وآخراً ، فكيف يقال : يتوب من التوبة ؟ .

هذا كلام غير معقول . ولا هو صحيح في نفسه . بل قد يكون في التوبة علة ونقص ، وآفة تمنع كمالها . وقد يشعر صاحبها بذلك ، وقد لا يشعر به ، فيتوب من نقصان التوبة ، وعدم توفيتها حقها .

وهذا أيضاً ليس من التوبة ، وإنما هو توبة من عدم التوبة . فإن القدر الموجود منها طاعة لا يتاب منها ، والقدر المفقود : هو الذي يحتاج أن يتوب منه..

فالتوبة من التوبة إنما تعقل على أحد هذين الوجهين .

نعم : ها هنا وجه ثالث لطيف جداً . وهو أن من حصل له مقام أنس بالله ، وصفا وقته مع الله بحيث يكون اقباله على الله ، واشتغاله بذكر آلائه وأسمائه وصفاته أنفع شيء له . حتى نزل عن هذه الحالة ، واشتغل بالتوبة من جناية سالفة قد تاب منها ، وطالع الجناية واشتغل بها عن الله . فهذا نقص ينبغي له أن يتوب إلى الله منه ، وهو توبة من هذه التوبة ، لأنه نزول من الصفاء إلى الجفاء . . والله أعلم[1] .

• • •

فهذه هي الحياة . . حياة الإيمان والعمل الصالح . . حياة الكَيِّس العاقل الذي أدرك أين تكون سعادته . . فبحث عنها . . وألزم نفسه فكان من الفائزين حياة مجيدة يشهد لها كل الناس حتى العاصين . . حتى ابليس نفسه يشهد أن صاحبها عملاق يستحق التقدير والاكرام . .

حياة تملؤها المحاسبة والانابة والاستعداد . . فما أحلاها من حياة يستقر معها الضمير . . وتهدأ بها النفس وتستريح وتطمئن إلى آخرتها . . وتسعد بقربها وإيمانها . .

• • •

وهكذا يجب أن تكون حياة المسلم قبل الموت . .

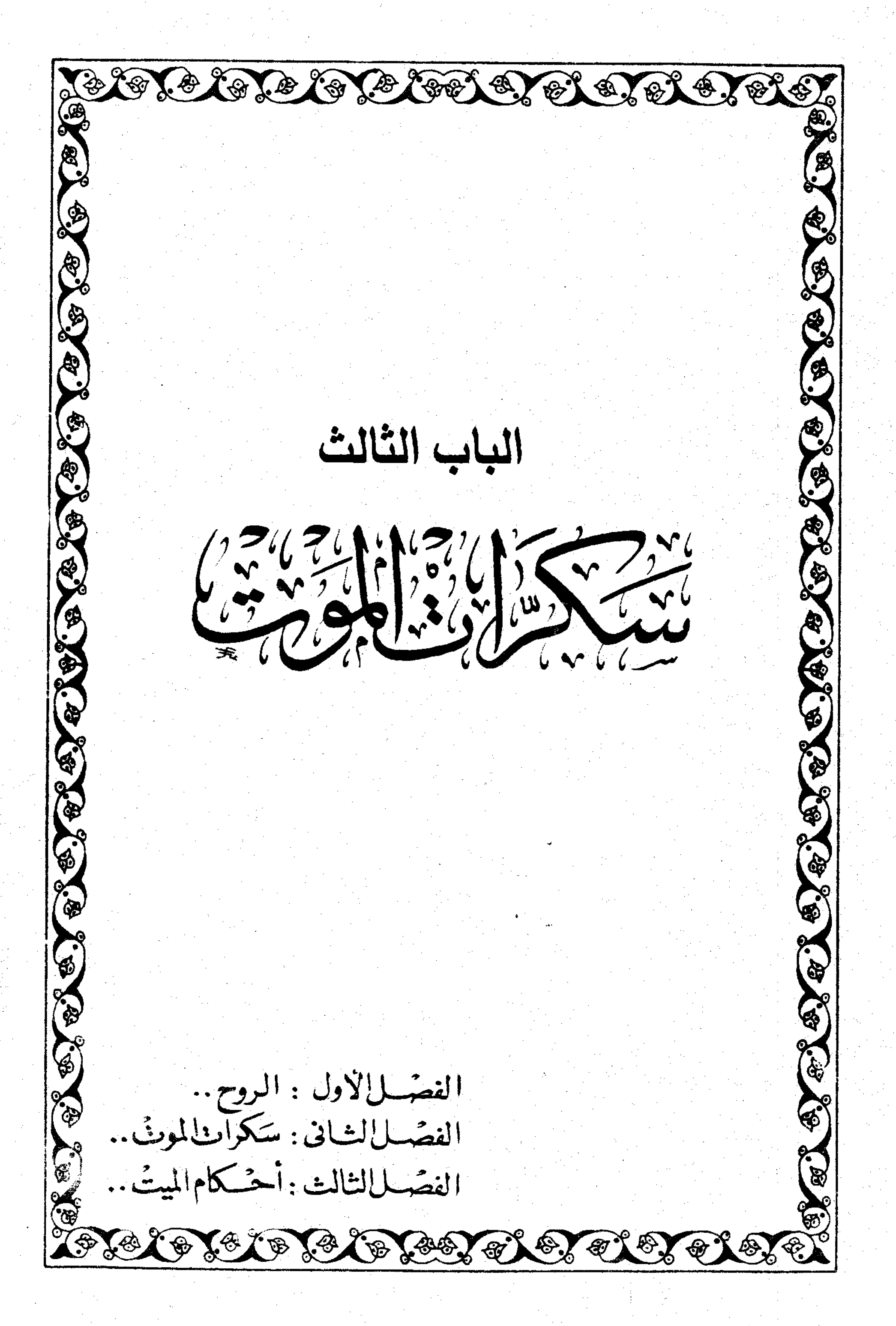
---

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٢٠٤) .

فإن جعلها غير هذه الحياة فتعساً له . . وتبأ لمصيره . . ويا شقاوته هذا الذي أودى بحياته بيديه وإرادته إلى الهاوية . .

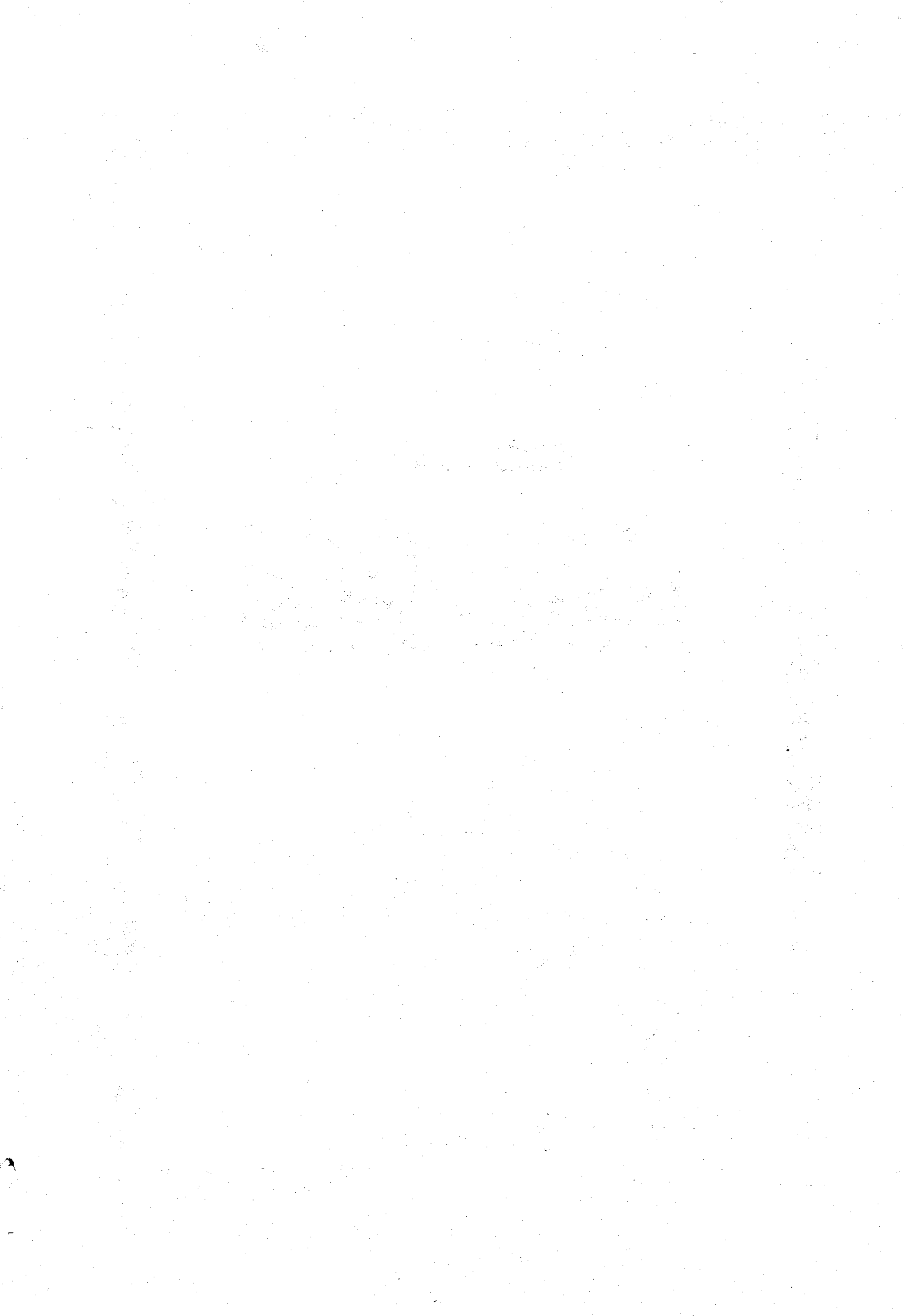
ولسوف يلقى من المصير المحتوم عذاباً يتناسب مع ما قدمه من عمل غير صالح . .

* * *



الباب الثالث

سكرات الموت



الفصل الأول

الروح

شيء عجاب .. دليل قاطع .. واضح .. يخضع له المنكرون .. على عظمة الخالق جل في علاه .. حاولوا كثيراً بأجهزة دقيقة .. وعقول الكترونية .. وتمكن من استغلال الطبيعة للوصول إلى حقيقتها .. ولكن في كل مرة .. لا يرون إلا هذه الآية :

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي .. وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾(١) .

* * *

والسؤال الذي نسأله أولاً .. هل الروح قديمة أم محدثة مخلوقة ؟ ..

يجيب ابن القيم في « الروح » فيقول : « هذه مسألة زَلّ فيها عالم ، وضل فيها طوائف من بني آدم ، وهدى الله اتباع رسوله فيها للحق المبين والصواب المستبين ، فأجمعت الرسل صلوات الله وسلامه عليهم على أنها مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبرة ، وهذا معلوم بالاضطرار من دين الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، كما يعلم بالاضطرار من دينهم أن العالم حادث ، وأن معاد الأبدان واقع ، وأن الله وحده الخالق وكل ما سواه مخلوق له ، وقد انطوى عصر

---

(١) الإسراء : ٨٥ .

الصحابة والتابعين وتابعيهم ـ وهم القرون الفضيلة ـ على ذلك من غير اختلاف بينهم في حدوثها ، وأنها مخلوقة حتى نبغت نابغة ممن قصر فهمه في الكتاب والسنة فزعم أنها قديمة غير مخلوقة ، واحتج بأنها من أمر الله وأمره غير مخلوق ، وبأن الله تعالى أضافها اليه كما أضاف إليه علمه وكتابه وقدرته وسمعه وبصره ويده ، وتوقف آخرون فقالوا : لا نقول : مخلوقة ولا غير مخلوقة » ١٠هـ .

ويجيب أيضاً أبو عبد الله بن منده فيقول : « اختلف الناس في معرفة الأرواح ومحلها من النفس . فقال بعضهم : الأرواح كلها مخلوقة ، وهذا مذهب أهل الجماعة والأثر واحتجوا بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها أئتلف وما تناكر منها اختلف » ١٠هـ[1] . والجنود المجندة لا تكون إلا مخلوقة .

وقال بعضهم : الأرواح من أمر الله أخفى الله حقيقتها وعلمها عن الخلق ، واحتجوا بقول الله تعالى :

﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ . .

وقال بعضهم : الأرواح نور من أنوار الله تعالى وحياة من حياته ، واحتجوا بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله خلق خلقه من ظلمة . . وألقى عليهم من نوره »[2] . ١ . هـ .

ولا خلاف بين المسلمين أن الأرواح التي في آدم وبنيه وعيسى ومن سواه من بني آدم كلها مخلوقة لله خلقها وأنشأها وكونها واخترعها ثم أضافها إلى نفسه كما أضاف اليه سائر خلقه . . قال تعالى :

﴿ وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً ﴾[3] . .

* * *

---

(١) سيأتي الكلام عن هذا الحديث وتخريجه .

(٢) رواه الترمذي واحمد .

(٣) الجاثية : ١٣ .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « روح الآدمي مخلوقة مبدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة » .

وقد حكى اجماع العلماء على أنها مخلوقة ـ غير واحد من أئمة المسلمين مثل محمد بن نصر المروزي الإمام المشهور .. وكذلك أبو محمد بن قتيبة قال : « وأجمع الناس على أن الله تعالى هو فالق الحبة وبارىء النسمة أي خالق الأرواح » ..

وقال أبو اسحاق بن شاقلا فيما أجاب به في المسألة : « سألت رحمك الله عن الروح مخلوقة هي أو غير مخلوقة ؟ قال : وهذا مما لا يشك فيه من وفق للصواب أن الروح من الأشياء المخلوقة » وقد تكلم في هذه المسألة طوائف من أكابر العلماء وردوا على من يزعم أنها غير مخلوقة ..

* * *

وقد نعى على ذلك الأئمة الكبار .. واشتد نكيرهم على من يقول ذلك في روح عيسى بن مريم .. فكيف بروح غيره كما ذكره الإمام أحمد فيما كتبه في مجلسه في الرد على الزنادقة و الجهمية ؟! ثم إن الجهمي ادعى أمراً فقال : أنا أجد آية في كتاب الله مما يدل على أن القرآن مخلوق قول الله تعالى :

﴿ إنما المسيحُ عِيسى بنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ ألقاهَا إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾(1) ..

وعيسى مخلوق ..

أجيب عليه : بأن الله تعالى منعه الفهم للقرآن .. أن عيسى عليه السلام تجري عليه ألفاظ لا تجري على القرآن لأنا نسميه مولوداً ، وطفلاً ، وصبياً ، وغلاماً يأكل ويشرب ، وهو مخاطب بالأمر والنهي يجري عليه الخطاب والوعد والوعيد ، ثم هو من ذرية نوح ومن ذرية ابراهيم ، فلا يحل لنا أن نقول في

---

(1) النساء : 171 .

القرآن ما نقوله في عيسى ، فهل سمعتم الله يقول في القرآن ما قال في عيسى ؟ ولكن المعنى في قوله تعالى :

﴿ إنما المسيحُ عِيسىٰ بنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ ألقاهَا إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ .

فالكلمة التي ألقاها إلى مريم حين قال له : كن فكان عيسى بكن وليس عيسى كن ، ولكن كان بكن . فكن من الله قول ، وليس كن مخلوقاً ، وكذبت النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى ، وذلك أن الجهمية قالوا : روح الله وكلمته إلا أن كلمته مخلوقة .

وقالت النصارى : عيسى روح الله وكلمته من ذاته كما يقال هذه الخرقة من هذا الثوب . . قلنا : إن عيسى بالكلمة كان وليس عيسى هو الكلمة . . وإنما الكلمة قول الله تعالى : ﴿ كُنْ ﴾ وقوله : ﴿ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ يقول :

من أمره كان الروح فيه كقوله تعالى :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا في السَّمَاوَاتِ وَمَا في الأَرْضِ جَمِيعاً ﴾(١) . .

يقول من أمره ، وتفسير روح الله إنما معناها بكلمة الله خلقها ، كما يقال عبد الله وسماء الله وأرض الله . . فقد صرح بأن روح المسيح مخلوقة فكيف بسائر الأرواح ؟ وقد أضاف الله إليه الروح الذي أرسله إلى مريم وهو عبده ورسوله ولم يدل على ذلك أنه قديم غير مخلوق ، فقال تعالى :

﴿ فَأَرْسَلْنَا إليها رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لها بَشَراً سَوِيًّا ، قَالَتْ إِنِي أَعُوذُ بالرَّحْمنِ مِنكَ إنْ كُنْتَ تَقِيًّا . . قَالَ إنما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا ﴾(٢) .

فهذا الروح هو روح الله وهو عبده ورسوله . .

ويدل على خلقها وجوه منها :

---

(١) الجاثية : ١٣ .
(٢) مريم : ١٧ ـ ١٩ .

١ ـ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[1] . .

فهذا اللفظ عام لا تخصيص فيه بوجه ما ، ولا يدخل في ذلك صفاته فإنها داخلة في مسمى اسمه ، فالله سبحانه هو الإله الموصوف بصفات الكمال فعلمه وقدرته وحياته وإرادته وسمعه وبصره وسائر صفاته داخل في مسمى اسمه ليس داخلاً في الأشياء المخلوقة كما لم تدخل ذاته فيها ، فهو سبحانه وتعالى بذاته وصفاته الخالق وما سواه مخلوق . .

ومعلوم قطعاً أن الروح ليست هي الله . . ولا صفة من صفاته ، وإنما هي مصنوع من مصنوعاته فوقوع الخلق عليها كوقوعه على الملائكة والجن والإنس .

* * *

٢ ـ قال تعالى لزكريا عليه السلام :

﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾[2] . .

ومعلوم أن الخطاب للبدن والروح معاً . . فالبدن وحده لا يخاطب ولا يعقل . .

٣ ـ « النصوص الدالة على أن الله سبحانه كان ولم يكن شيء غيره كما ثبت في صحيح البخاري من حديث عمران بن حصين أن أهل اليمن قالوا : يا رسول الله جئناك لنتفقه في الدين ونسألك عن أول هذا الأمر ، فقال : كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء » ١٠هـ وكتب في الذكر كل شيء ، فلم يكن مع الله أرواح ولا نفوس قديمة يساوي وجودها وجوده تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً بل هو الأول وحده لا يشاركه غيره في أوليته بوجه .

* * *

---

(١) الرعد : ١٦ .

(٢) مريم : ٩ .

٤ - إن الروح توصف بالوفاء والقبض والامساك والإرسال ، وهذا شأن المخلوق المحدث المربوب ، قال الله تعالى :

﴿ اللهُ يَتوفى الأنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا . . وَالتي لم تَمُتْ في مَنامِهَا فَيُمْسِكُ التي قَضَى عَلَيْهَا الموتَ وَيُرْسِلُ الأخْرَى إلى أَجلٍ مُسَمًّى إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْم يَتفكَّرُونَ ﴾[1] . .

والأنفس ها هنا هي الأرواح قطعاً . .

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن أبي قتادة الأنصاري عن أبيه قال : سرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر ذات ليلة فقلنا : يا رسول الله لو عرست[2] بنا فقال : إني أخاف أن تناموا فمن يوقظنا للصلاة ؟ فقال بلال : أنا يا رسول الله . . فعرس بالقوم فاضطجعوا ، واستند بلال إلى راحلته فغلبته عيناه فاستيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد طلع جانب الشمس فقال : يا بلال أين ما قلت لنا ؟ فقال : والذي بعثك الحق ما ألقيت عليَّ نومة مثلها . . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله قبض أرواحكم حين شاء وردها حين شاء » ١.هـ[3] .

فهذه الروح المقبوضة هى التى يتوفاها الله حين موتها ، وفى منامها التي يتوفاها ملك الموت ، وهي التي تتوفاها رسل الله سبحانه ، وهي التي يجلس الملك عند رأس صاحبها ويخرجها من بدنه كرهاً ويكفنها بكفن من الجنة أو النار ويصعد بها إلى السماء فتصلي عليها الملائكة أو تلعنها وتوقف بين يدي ربها فيقضي فيها أمره ثم تعاد إلى الأرض فتدخل بين الميت وأكفانه . . فيسأل ويمتحن ويعاقب وينعم ، وهي التي تجعل في أجواف الطير الخضر تأكل وتشرب من الجنة ، وهي التي تعرض على النار غدواً وعشياً، وهي التي تؤمن وتكفر وتطيع وتعصى . .

---

(١) الزمر : ٤٢ .

(٢) أي نتزل للراحة . . فالعرس (للمسافر) : النزول آخر الليل للراحة .

(٣) رواه البخاري ، وأبو داود والنسائي واحمد .

وهي الأمارة بالسوء ، وهي اللوامة ، وهي المطمئنة إلى ربها وأمره وذكره ، وهي التي تعذب وتنعم وتسعد وتشقى وتحبس وترسل وتصح وتسقم وتلذ وتألم وتخاف وتحزن وما ذاك إلا سمات مخلوق مبدع ، وصفات منشأ مخترع ، واحكام مربوب مدبر مصرف تحت مشيئة خالقه وفاطره وبارئه .

* * *

فكيف إذن تكون قديمة مستغنية عن خالق محدث مبدع لها وشواهد الفقر والحاجة والضرورة أعدل شواهد على أنها مخلوقة مربوبة مصنوعة ، وأن وجود ذاتها وصفاتها وأفعالها من ربها وفاطرها ليس لها من نفسها إلا العدم ، فهي لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، لا تستطيع أن تأخذ من الخير إلا ما أعطاها ، ولا تتقي من الشر إلا ما وقاها ، ولا تهتدي إلى شيء من صالح دنياها وأخراها إلا بمداه ، ولا تصلح إلا بتوفيقه لها واصلاحه إياها ، ولا تعلم إلا ما علمها ، ولا تتعدى ما ألهمها . فهو الذي خلقها فسواها وألهمها فجورها وتقواها ، فأخبر سبحانه أنه خالقها ومبدعها وخالق أفعالها من الفجور والتقوى خلافاً لمن يقول : أنها ليست مخلوقة ، ولمن يقول : أنها وإن كانت مخلوقة فليس خالقاً لأفعالها بل هي التي تخلق أفعالها ،وهما قولان لأهل الضلال والغي .

ومعلوم أنها لو كانت قديمة غير مخلوقة لكانت مستغنية بنفسها في وجودها وصفاتها وكمالها وهذا من أبطل الباطل . فإن فقرها إليه سبحانه في وجودها وكمالها وصلاحها هو من لوازم ذاتها ليس معللاً بعلة ، فإنه أمر ذاتي لها كما أن غنى ربها وفاطرها ومبدعها من لوازم ذاته ليس معللاً بعلة ، فهو سبحانه الغني بالذات وهي الفقيرة اليه بالذات فلا يشاركه سبحانه في غناه مشارك ، لا يشاركه في قدمه وربوبيته وملكه التام ، وكماله المقدس ـ مشارك ، فشواهد الخلق والحدوث على الأرواح كشواهده على الأبدان .

* * *

هل تقدم خلق الأرواح على الاجساد أو تأخر خلقها عنها ؟

اختلف الناس في هذه المسألة على فريقين . . .

فقال من ذهب إلى تقدم خلقها على خلق البدن : قال الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ﴾[1] .

قالوا : ثم للترتيب والمهلة . . فقد تضمنت الآية أن خلقها مقدم على أمر الله للملائكة بالسجود لآدم ، ومن المعلوم قطعاً أن أبداننا حادثة بعد ذلك فعلم أنها الأرواح ، قالوا : ويدل عليه قوله سبحانه :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾[2] .

قالوا وهذا الاستنطاق والاشهاد إنما كان لأرواحنا ، إذ لم تكن الأبدان حينئذ موجودة .

ففي الموطأ (حدثنا) مالك عن زيد بن أبي أنيسة أن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أخبره عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سُئِلَ عن هذه الآية :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ . .

فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل عنها فقال : خلق

---

(١) الأعراف : ١١ .

(٢) الأعراف : ١٧٢ .

الله آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذريته فقال : خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون ، وخلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ، فقال رجل : يا رسول الله ففيم العمل ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله إذا خلق الرجل للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل أهل النار . . فيدخله به النار » ؟ اهـ[1] .

* * *

واحتجوا أيضاً بحديث عمرو بن عبسه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله خلق أرواح العباد قبل العباد بألفي عام فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » ؟ اهـ فهذا بعض ما احتج به هؤلاء .

قال الأخرون : الكلام معكم في مقامين : أحدهما ـ ذكر الدليل على الأرواح أنها خلقت بعد خلق الأبدان ، الثاني ـ جواب عما استدللتم به .

وأما المقام الأول فقد قال تعالى :

﴿ يَا أيهَا النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ﴾[2] . .

وهذا خطاب للإنسان الذي هو روح وبدن . . فدل على أن جملته مخلوقة بعد خلق الأبوين . . وأصرح منه قوله تعالى :

﴿ يَا أيهَا النَّاسُ اتقُوا رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهما رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ ﴾[3] . .

الآية . . وهذا صريح في أن خلق جملة النوع الانساني بعد خلق أصله . .

فإن قيل : فهذا لا ينفي تقدم خلق الأرواح على أجسادها ، وإن خلقت

---

(١) أخرجه مالك . . قال الحاكم : صحيح على شرط مسلم .

(٢) الحجرات ١٣ .

(٣) الآية الأولى من سورة النساء .

بعد خلق أبي البشر كما دلت عليه الآثار المتقدمة .

قيل : غاية هذه الآثار . . تدل بعد صحتها وثبوتها على أن بارئها وفاطرها سبحانه صور النسم (الروح) وقدر خلقها وآجالها وأعمالها ، واستخرج تلك الصور من مادتها ثم أعادها اليها ، وقدر خروج كل فرد من أفرادها في وقته المقدر له . . ولا تدل على أنها خلقت خلقاً مستقراً ثم استمرت موجودة حية عالمة ناطقة كلها في موضع واحد ثم ترسل فيها إلى الأبدان جملة كما قاله ابن حزم ، فهل تحمل الآثار ما لا طاقة لنا به ؟ نعم الرب سبحانه وتعالى يخلق منها جملة بعد جملة على الوجه الذي سبق به التقدير أولاً فيجيء الخلق الخارجي مطابقاً للتقدير السابق كشأنه تعالى في جميع مخلوقاته . . فإنه قال الجرجاني : ليس بين قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله مسح ظهر آدم فأخرج منه ذريته . . وبين الآية اختلاف بحمد الله . . لأنه عز وجل إذا أخذهم من ظهر آدم فقد أخذهم من ظهور ذريته . . لأن ذرية آدم ذرية لذريته بعضهم من بعض وقوله تعالى :

﴿ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ القِيامَةِ إِنّا كُنّا عَنْ هَذَا غَافِلِين ﴾[1] .

أي عن الميثاق المأخوذ عليهم . فإذا قالوا ذلك كانت الملائكة شهوداً عليهم بأخذ الميثاق . قال : وفي هذا دليل على التفسير الذي جاءت به الرواية من أن الله تعالى قال للملائكة : اشهدوا فقالوا : شهدنا ، قال : وزعم بعض أهل العلم أن الميثاق إنما أُخِذَ على الأرواح دون الاجساد ، إن الأرواح هي التي تعقل وتفهم ولها الثواب وعليها العقاب ، والاجساد أموات لا تعقل ولا تفهم ، قال : وكان اسحاق بن راهويه يذهب إلى هذا المعنى . . وذكر أنه قول أبي هريرة ، قال اسحاق : واجمع أهل العلم أنها الأرواح قبل الأجساد استنطقهم وأشهدهم ، قال الجرجاني : واحتجوا بقوله تعالى :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الذِينَ قُتِلُوا في سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء ﴾[2] . .

---

(١) الأعراف : ١٧٢ .

(٢) آل عمران : ١٦٩ .

والأجساد قد بليت وضلت في الأرض ، والأرواح ترزق وتفرح ، وهي التي تلذ وتألم وتفرح وتحزن وتعرف وتفكر ، وبيان ذلك في الأحلام موجود أن الإنسان يصبح وأثر لذة الفرح وألم الحزن باقٍ في نفسه مما تلاقى الروح دون الجسد ، قال : وحاصل الفائدة في هذا الفصل - أنه سبحانه قد أثبت الحجة على كل النفوس ممن يبلغ ، وممن لم يبلغ بالميثاق الذي أخذه عليهم ، وزاد على من بلغ منهم الحجة بالآيات والدلائل التي نصبها في نفسه وفي العالم . . وبالرسل المنفذة اليهم مبشرين ومنذرين وبالمواعظ بالمثلات المنقولة اليهم اخبارها ، غير أنه عز وجل لا يطالب أحداً منهم من الطاعة إلا بقدر ما لزمه من الحجة ، وركَّبَ فيهم من القدرة ، وآتاهم من الأدلة ، وبين سبحانه ما هو عاقل في البالغين الذين أدركوا الأمر والنهي ، وحجب عنا علم ما قدره في غير البالغين ، إلا أنا نعلم أنه عَدْلٌ لا يجور في حكمه ، وحكيم لا تفاوت في صنعه ، وقادر لا يسأل عما يفعل له الخلق والأمر . . تبارك الله رب العالمين . .

* * *

ويفصل ابن القيم فيقول في غاية الآية . . « وإنما غايتها أن تدل على إخراج صورهم وأمثالهم في صور الذر واستنطاقهم ثم ردهم إلى أصلهم ان صح الخبر بذلك ، والذي صح إنما هو اثبات القدر السابق وتقسيمهم إلى شقي وسعيد .

وأما استدلال أبي محمد بن حزم بقوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾[1] . .

فما أليق هذا الاستدلال بظاهريته لترتيب الأمر بالسجود لآدم على خلقنا وتصويرنا ، والخطاب للجملة المركبة من البدن والروح ، وذلك متأخر على خلق آدم ، ولهذا قال ابن عباس : « ولقد خلقناكم » يعني آدم (ثم صورناكم) . لذريته . ومثال هذا ما قاله مجاهد : « خلقناكم » يعني آدم و« صورناكم » في

---

(١) الأعراف ١١ .

ظهر آدم ، وإنما قال « خلقناكم » بلفظ الجمع وهو يريد آدم كما تقول ضربناكم وإنما ضربت سيدهم .

واختار أبو عبيد في هذه الآية قول مجاهد لقوله تعالى بعد :

﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا ﴾[1] . .

وكان قوله تعالى للملائكة اسجدوا قبل خلق ذرية آدم وتصويرهم في الأرحام ، وثم توجب التراخي والترتيب ، فمن جعل الخلق والتصوير في هذه الآية لأولاد آدم في أرحام ، يكون قد راعى حكم ثم في الترتيب إلا أن يأخذ بقول الأخفش فإنه يقول : ثم ها هنا في معنى الواو . قال الزجاج . وهذا خطأ لا يجيزه الخليل وسيبويه وجميع من يوثق بعلمه . قال أبو عبيد . وقد بينه مجاهد حين قال : إن الله تعالى خلق ولد آدم وصورهم في ظهره ثم أمر بعد ذلك بالسجود . قال : وهذا بَيِّنٌ في الحديث وهو أنه أخرجهم من ظهره في صور الذر .

قلت : والقرآن يفسر بعضه بعضاً ، ونظير هذه الآية قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾[2] . .

فأوقع الخلقَ من تراب عليهم وهو لأبيهم آدم إذ هو أصلهم والله سبحانه يخاطب الموجودين والمراد آباؤهم كقوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾[3] . .

* * *

وأما الدليل على أن خلق الأرواح متأخر عن خلق أبدانها فمن وجوه :

---

(١) الأعراف : ١١ .
(٢) الحج : ٥ .
(٣) البقرة : ٥٥ .

(أحدها) أن خلق أبي البشر وأصلهم كان هكذا : فإن الله سبحانه أرسل جبريل فقبض قبضة من الأرض ثم خمرها حتى صارت طيناً ثم صوّره ، ثم نفخ فيه الروح بعد أن صوّره ، فلما دخلت الروح فيه صار لحماً ودماً حياً ناطقاً ، ففي تفسير أبي مالك وأبي صالح ، عن ابن عباس ، وعن مُرَّة ، عن ابن مسعود ، وعن أناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : لما فرغ عز وجل من خلق ما أحب استوى على العرش ، فجعل ابليس ملكاً على سماء الدنيا ، وكان من الخزان قبله من ملائكة يقال لهم الجن ، وإنما سموا الجن لأنهم خزان أهل الجنة ، وكان إبليس مع ملكه خازناً ، فوقع في صدره وقال : ما أعطاني الله هذا إلا لمزيد لي ، وفي لفظ لمزية لي على الملائكة ، فلما وقع ذلك الكبر في نفسه أطلع الله على ذلك منه فقال الله للملائكة :

﴿ إني جَاعِلٌ في الأَرْضِ خَلِيْفَةً ﴾[1] .

قالوا : ربنا وما يكون حال الخليفة وما يصنعون في الأرض ؟ قال الله : تكون له ذرية يفسدون في الأرض ، ويتحاسدون ، ويقتل بعضهم بعضاً ، قالوا : ربنا :

﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ . قَالَ إني أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[2] .

يعني من شأن ابليس ، فبعث جبريل الى الأرض ليأتيه بطين منها ، فقالت الأرض : إني أعوذ بالله منك أن تقبض مني ، فرجع ولم يأخذ وقال : رب إنها تأبى : وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمرك . فأخذ إبليس من وجه الأرض وخلط فلم يأخذ من مكان واحد ، فأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء ولذلك خرج بنو آدم مختلفين ، فصعد به قِبَلَ الرب عز وجل حتى عاد طيناً لازباً ، واللازب هو الذي يلزق بعضه ببعض ، ثم قال للملائكة :

---

(١) البقرة : ٣٠ .
(٢) البقرة : ٣٠ .

﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾[1] . .

فخلقه الله بيده لكيلا يتكبر ابليس عنه ليقول له : يتكبر عما عملت بيدي ولم أتكبر أنا عنه فخلقه بشراً فكان جسداً من طين أربعين سنة ، فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه وكان أشدهم فزعاً ابليس ، فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار تكون له صلصلة ، فذلك حين يقول :

﴿ مِنْ صَلْصَالٍ كَالفَخَّارِ ﴾[2] . .

ويقول :

لأمر ما خلقت ! ودخل مِنْ فِيهِ فخرج من دبره فقال للملائكة : لا ترهبوا من هذا فإن ربكم صمد وهذا أجوف ، لئن سلطت عليه لأهلكنه ، فلما بلغ الحين الذي يريد الله جل ثناؤه أن ينفخ فيه الروح فدخل الروح في رأسه عطس فقالت الملائكة : قل الحمد لله ، فقال : الحمد لله ، فقال له الله : يرحمك ربك ، فلما دخل الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة ، فلما دخل في جوفه اشتهى الطعام قبل أن يبلغ الروح رجليه فنهض عجلان إلى ثمار الجنة ، فذلك حين يقول :

﴿ خُلِقَ الإنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾[3] . .

وذكر باقي الحديث .

وقال يونس بن عبد الأعلى : أخبرنا ابن وهب ، حدثنا ابن زيد ، قال : لما خلق الله النار ذعرت منها الملائكة ذعراً شديداً وقالوا : ربنا لم خلقت هذه النار ؟ ولأي شيء خلقتها ؟ قال : لمن عصاني من خلقي .

---

(١) ص : ٧١ ، ٧٢ .
(٢) الرحمن : ١٤ .
(٣) الأنبياء : ٣٧ .

ولم يكن لله يومئذ خلق إلا الملائكة ، والأرض ليس فيها خلق ، إنما خلق آدم بعد ذلك ، وقرأ قوله تعالى :

﴿ هَلْ أتى عَلَى الانْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً ﴾[1] . .

قال عمر بن الخطاب:يا رسول الله ليت ذلك الحين ! ثم قال : وقالت الملائكة ويأتي علينا دهر نعصيك فيه ؟ لا يرون له خلقاً غيرهم قال :

إني أريد أن أخلق في الأرض خلقاً واجعل فيها خليفة ، وذكر الحديث قال ابن اسحاق : فيقال والله أعلم ، خلق الله آدم ثم وضعه ينظر إليه أربعين عاماً قبل أن ينفخ فيه الروح حتى عاد صلصالاً كالفخار ولم تمسه نار ، فيقال . والله أعلم ـ لما انتهى الروح إلى رأسه عطس فقال : الحمد لله . وذكر الحديث .

* * *

والقرآن والحديث والآثار تدل على أنه سبحانه نفخ فيه من روحه بعد خلق جسده ، فمن تلك النفخة حدثت فيه الروح ، ولو كانت روحه قبل بدنه مع جملة أرواح ذريته لما عجبت الملائكة من خلقه ، ولما تعجبت من خلق النار وقالت لأي شيء خلقتها ؟ وهي ترى أرواح بني آدم فيهم المؤمن والكافر والطيب والخبيث .

ولما كانت أرواح الكفار كلها تبعاً لابليس ، بل كانت الأرواح الكافرة مخلوقة قبل كفره ، فإن الله سبحانه إنما حكم عليه بالكفر بعد خلق بدن آدم وروحه ، ولم يكن قبل ذلك كافراً ، فكيف تكون الأرواح قبله كافرة ومؤمنة وهو لم يكن كافراً إذ ذاك ؟ وهل حصل الكفر للأرواح إلا بتزيينه واغوائه ؟! فالأرواح الكافرة إنما حدثت بعد كفره إلا أن يقال : كانت كلها مؤمنة ثم ارتدت بسببه ، والذي احتجوا به على خلق الأرواح يخالف ذلك

---

(١) سورة الانسان .

وفي حديث أبي هريرة في تخليق العالم الإخبار عن خلق أجناس العالم تأخر خلق آدم إلى يوم الجمعة ، ولو كانت الأرواح مخلوقة قبل الأجساد لكانت من جملة العالم المخلوق في ستة أيام ، فلما لم يخبر عن خلقها في هذه الأيام علم أن خلقها تابع لخلق الذرية ، وأن خلق آدم وحده هو الذي وقع في تلك الأيام الستة ، وأما خلق ذريته فعلى الوجه المشاهد المعاين .

ولو كان للروح وجود قبل البدن وهي حية عالمة ناطقة لكانت ذاكرة لذلك في هذا العالم شاعرة به ولو بوجه ما .

ومن الممتنع أن تكون حية عالمة ناطقة عارفة بربها - ثم تنتقل إلى هذا البدن ولا تشعر بحالها قبل ذلك بوجه ما .

وإذا كانت بعد المفارقة تشعر بحالها وهي في البدن على التفصيل وتكلم ما كانت عليه ها هنا - مع أنها اكتسبت بالبدن أموراً عاقتها عن كثير من كمالها - فلأن تشعر بحالها الأول وهي غير معوقة هناك بطريق الأولى ، إلا أن يقال : تعلقها بالبدن واشتغالها بتدبيره منعها من شعورها بحالها الأول ، فيقال : هب أنه منعها من شعورها به على التفصيل والكمال ، فهل يمنعها عن أدنى شعور بوجه ما مما كانت عليه قبل تعلقها بالبدن ؟! ومعلوم أن تعلقها بالبدن لم يمنعها عن الشعور بأول أحوالها وهي في البدن ، فكيف يمنعها من الشعور بما كان قبل ذلك ؟

وأيضاً فإنها لو كانت موجودة قبل البدن لكانت عالمة حية عاقلة ، فلما تعلقت بالبدن سلبت ذلك كله ، ثم حدث لها الشعور والعلم والعقل شيئاً فشيئاً ، وهذا لو كان لكان أعجب الأمور أن تكون الروح كاملة والنقل والفطرة مما يدل على هذا ؟ وقد قال تعالى :

﴿ وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ

والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾[1] . .

فهذه الحالة التي أخرجنا عليها هي حالنا الأصلية ، والعلم والعقل والمعرفة والقوة طارىء علينا حادث فينا بعد أن لم يكن ، ولم نكن نعلم قبل ذلك شيئاً البتة إذا لم يكن لنا وجود نعلم ونعقل به .

وأيضاً فلو كانت مخلوقة قبل الأجساد ـ وهي على ما هي الآن من طيب وخبث وكفر وإيمان وخير وشر ـ لكان ذلك ثابتاً لها قبل الأعمال وهي إنما اكتسبت هذه الصفات والهيئات من أعمالها التي سعت في طلبها واستعانت عليها بالبدن ، فلم تكن لتصف بتلك الهيئات والصفات قبل قيامها بالأبدان التي بها عملت تلك الأعمال .

وإن كان قدر لها قبل ايجادها ذلك ثم خرجت إلى هذه الدار على ما قدر لها فنحن لا ننكر الكتاب والقدر السابق لها من الله ، ولو دل دليل على أنها خلقت جملة ثم أودعت في مكانٍ حية عالمة ناطقة ثم كل وقت تبرز إلى أبدانها شيئاً فشيئاً لكنا أول قائل به ، فالله سبحانه على كل شيء قدير . . ولكن لا نخبر عنه خلقاً وأمراً إلا بما أخبر به عن نفسه عن لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومعلوم أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يخبر عنه بذلك ، وإنما أخبر بما في الحديث الصحيح ، أن خلق ابن آدم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل اليه الملك فينفخ الروح فيه ، ولم يقل يرسل الملك اليه بالروح فيدخلها في بدنه ، وإنما أرسل إليه الملك فأحدث فيه الروح بنفخته فيه لا أن الله سبحانه أرسل اليه الروح التي كانت موجودة قبل ذلك بالزمان الطويل ، ففرق بين أن يرسل اليه ملك ينفخ فيه الروح وبين أن يرسل إليه روح مخلوقة قائمة بنفسها مع الملك ، وتأمل ما دل عليه النص من هذين المعنيين ، وبالله التوفيق .

* * *

---

(١) النحل : ٧٨ .

مسألة ٢ :

هل تموت الروح أم يموت البدن وحده ؟

اختلف الناس في هذه المسألة . .

فمنهم من قال : تموت وتذوق الموت لأنها نفس . . وكل نفس ذائقة الموت .

قالوا : وقد دلت الأدلة على أنه لا يبقى إلا الله وحده . . قال تعالى :

﴿ كل من عليها فان ﴾(١) . .

وإذا كانت الملائكة ستموت . . فالنفوس البشرية أولى بالموت . .

وقال آخرون : لا تموت الأرواح ، فإنها خلقت للبقاء ، وإنما تموت الأبدان ، قالوا : وقد دلت على هذا الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعذابها وبعد المفارقة إلى أن يرجعها الله في أجسادها ، ولو ماتت الأرواح لا تقطع عنها النعيم والعذاب . . وقال تعالى :

﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ﴾(٢) . .

هذا مع القطع بأن أرواحهم قد فارقت أجسادهم وقد ذاقت الموت .

والصواب أن يقال : موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها فإن أريد بموتها هذا القدر فهي ذائقةُ الموت ، وأن أريد أنها تعدم وتضمحل وتصير عدماً محضاً فهي لا تموت بهذا الاعتبار بل هي باقية بعد خلقها في نعيم أو في عذاب . .

---

(١) الرحمن ٢٧ .
(٢) آل عمران : ١٦٩ .

وقد نظم أحمد بن الحسين الكندي هذا الاختلاف . .

تَنَـازَعَ النَّـاسُ حَتّى لَا اتفَـاقَ لَهُـمُ ... إلّا عَـلَى شَجَبٍ والخلْفُ في الشَّجَبِ
فَقِيـلَ تَخْلُصُ نَفْسُ المَـرْءِ سَـالمَـةً ... وَقِيلَ تَشْـرِكُ جِسْمَ المَرْءِ في العَـطَبِ

فإن قيل : فعند النفخ في الصور . . هل تبقى الأرواح حية كما هي أو تموت ثم تحيا ؟ قيل قد قال تعالى :

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ . . وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلّا مَنْ شَاءَ اللهُ ﴾[1] . .

فقد استثنى الله سبحانه بعض من في السماوات ومن في الأرض من هذا الصعق . .

فقيل : هم الشهداء . . وقيل هم جبرائيل وميكائيل واسرافيل ، وملك الموت . .

وقيل : هم الذين في الجنة من الحور العين ، وغيرهم ، وفي النار من أهل العذاب وخزنتها . .

* * *

مسألة ٣ :

هل تتلاقى أرواح الأموات ؟

ذكر ابن المبارك عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال : « إذا قُبضتْ نفس المؤمن تلقاها أهل الرحمة من عباد الله تعالى كما يتلقون البشير في الدنيا ، فيقبلون عليه يسألونه فيقول بعضهم لبعض : انظروا أخاكم حتى يستريح ، فإنه كان في كرب شديد قال : فيقبلون عليه فيسألونه : ما فعل فلان ؟ ما فعلت فلانة هل تزوجت ؟ فإذا سألوه عن الرجل قد مات قبله

---

(١) الزمر : ٦٨

فيقول : إنه هلك فيقولون : انا لله وانا اليه راجعون . ذهب إلى أمه الهاوية فبئست الأم وبئست المربية قال : فتعرض عليهم أعماله ، فإن رأوا حسناً فرحوا واستبشروا وقالوا : اللهم هذه نعمتك على عبدك فأتمها . وإن رأوا شراً قالوا : اللهم راجع بعبدك » . ؟ ٥هـ .

وعن الحسن البصري رضي الله عنه قال : « إذا قبض روح العبد المؤمن عُرج به إلى السماء فتلقاه أرواح المؤمنين فيسألونه فيقولون : ما فعل فلان ؟ فيقول : أو لم يأتكم ؟ فيقولون : لا والله ما جاءنا ولا مَرَّ بنا . سلك به إلى أمه الهاوية فبئست الأم وبئست المربية .

وقال وهب بن منبه : إن لله في السماء السابعة داراً يقال لها البيضاء ، تجتمع فيها أرواح المؤمنين فإذا مات الميت من أهل الدنيا تلقته الأرواح فيسألونه عن أخبار الدنيا كما يسأل الغائب أهله إذا قدم اليهم » . ؟ ٥هـ[1] .

● ● ●

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن الشهداء بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون ، وأنهم يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، وأنهم يستبشرون بنعمة من الله وفضل . . وهذا يدل على تلاقيهم من ثلاثة أوجه :

(أحدها) أنهم عند ربهم يرزقون ، وإذا كانوا أحياء فهم يتلاقون .

(الثاني) أنهم إنما استبشروا بأخوانهم لقدومهم عليهم ولقائهم لهم .

(الثالث) أن لفظ يستبشرون يفيد في اللغة أنهم يبشر بعضهم بعضاً مثل يتباشرون . وقد تواترت المرائي بذلك ، (فمنها) ما ذكره صالح بن بشير قال : رأيت عطاء السلمي في النوم بعد موته . فقلت له : يرحمك الله . . لقد كنت طويل الحزن في الدنيا ، فقال : أما والله لقد أعقبني ذلك فرحاً طويلاً وسروراً دائماً ، فقلت : في أي الدرجات أنت ؟ قال مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . ا . هـ[2] .

---

(١) التذكرة (٧٥) .

(٢) الروح (٢٨) .

مسألة (٤).

هل تتلاقى أرواح الأحياء وأرواح الأموات أم لا ؟

قال تعالى :

﴿ اللهُ يَتوفَّى الأنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالتي لم تَمُتْ في مَنَامِهَا ، فَيُمْسِكُ التي قَضَى عَلَيْهَا الموْتَ وَيُرْسِلُ الأخْرَىٰ إلى أَجَلٍ مُسَمًّى ، إنّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1] . .

روى ابن أبي حاتم في تفسيره عن السدي في قوله :

« والتي لم تمت في منامها » . .

قال : يتوفاها في منامها ، فيلتقي روح الحي وروح الميت فيتذاكران ، ويتعارفان ، قال : فترجع روح الحي إلى جسده في الدنيا إلى بقية أجلها ، وتريد روح الميت أن ترجع إلى جسده فتحبس .

قال ابن القيم معلقاً : « وهو أحد القولين في الآية . . وهو أن المُمْسَكَةَ مَنْ تُوفيت وفاةَ الموت أولاً والمرسَلَةُ مَنْ تُوفيت وفاة النوم ، والمعنى على هذا القول : أنه يتوفى نفس الميت فيمسكها ولا يرسلها إلى جسدها مثل يوم القيامة ويتوفى نفس النائم ثم يرسلها إلى جسدها إلى بقية أجلها فيتوفاها الوفاة الأخرى .

والقول الثاني في الآية : إن المَمسكة والمرسلة في الآية كلتاهما توفيت وفاة النوم ، فمن استكملت أجلها أمسكها عنده فلا يردها إلى جسدها ، ومن لم تستكمل أجلها ردها إلى جسدها لتستكمله .

واختارالشيخ هذا القول . . وقال : عليه يدل القرآن والسنة . قال : فإنه سبحانه ذكر امساك التي قضى عليها الموت من هذه الأنفس التي توفاها وفاة

---

(١) ٤٢ : الزمر .

النوم ، وأما التي توفاها حين موتها فتلك لم يصفها بامساك ولا بارسال ، بل هي قسم ثالث » .

ثم قال ابن القيم : « والذي يترجح هو القول الأول لأنه سبحانه أخبر بوفاتين : وفاة كبرى وهي وفاة الموت .. ووفاة صغرى وهي وفاة النوم .. وقسّم الأرواح قسمين : قسماً قضى عليها بالموت فأمسكها عنده وهي التي توفاها وفاة الموت ، وقسماً لها بقية أجل فردها إلى جسدها إلى استكمال أجلها ، وجعل سبحانه الامساك والارسال حكمين للوفاتين المذكورتين أولاً فهذه ممسكة وهذه مرسلة ، وأخبر أن التي لم تمت هي التي توفاها في منامها ، فلو كان قد قسم وفاة النوم إلى قسمين : وفاة موت ووفاة نوم لم يقل : «والتى لم تمت فى منامها» فإنها من حين قبضت ماتت ، وهو سبحانه قد أخبر أنها لم تمت فكيف يقول بعد ذلك :

﴿يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ .

بعد أن توفاها وفاة النوم .. فهو سبحانه توفاها أولاً وفاة نوم ثم قضى عليها الموت بعد ذلك ؟ والتحقيق أن الآية تتناول النوعين : فإنه سبحانه ذكر وفاتين ، وفاة نوم .. ووفاة موت ، وذكر امساك المتوفاة وارسال الأخرى ، ومعلوم أنه سبحانه يمسك كل نفس ميت سواء أمات في النوم أم في اليقظة ، ويرسل نفس من لم يمت فقوله :

﴿ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ ..

يتناول من مات في اليقظة ومن مات في المنام .

وقد دل على التقاء أرواح الأحياء والأموات أن الحي يرى الميت في منامه فيستخبره ، ويخبره الميت بما لا يعلم الحي ، فيصادف خبره كما أخبر في الماضي والمستقبل وربما أخبره بمال دفنه الميت في مكان لم يعلم به سواه ، وربما أخبره بدين عليه ، وذكر له شواهده وأدلته .

وأبلغ من هذا أنه بما عمله من عمل لم يطلع عليه أحد من العالمين ، وأبلغ من هذا أنه يخبره أنك تاتينا إلى وقت كذا وكذا فيكون كما أخبر ، وربما أخبره عن أمور يقطع الحي أنه لم يكن يعرفها غيره .

قال سعيد بن المسيب[1] : التقى عبد الله بن سلام وسلمان الفارسي ، فقال أحدهما للآخر : إن مت قبلي فالقني فأخبرني ما لقيت من ربك ، وإن أنا مت قبلك لقيتك فأخبرتك ، فقال الأخر وهل تلتقي الأموات والأحياء ؟ قال نعم أرواحهم في الجنة تذهب حيث تشاء . قال : فمات فلان فلقيه في المنام ، فقال : توكل وأبشر فلم أر مثل التوكل قط .

وقال العباس بن عبد المطلب : كنت اشتهي أن أرى عمر في المنام ، فما رأيته إلا عند قرب الحول ، فرأيته يمسح العرق عن جبينه وهو يقول : هذا أوان فراغي ، إن كان عرشي ليهد لولا أن لقيت رؤ فا رحيما .

ورأى مسلمة بن عبد الملك عمر بن عبد العزيز بعد موته فقال : يا أمير المؤمنين ليت شعري إلى أي الحالات صرت بعد الموت ؟ قال يا مسلمة هذا أوان فراغي ، والله ما استرحت إلا الآن ، قال : قلت : فأين أنت يا أمير المؤمنين ؟ قال : مع أئمة الهدى في جنة عدن .

وقال مالك بن دينار : رأيت مسلم بن يسار بعد موته فسلمت عليه فلم يرد عليَّ السلام، فقلت : ما يمنعك أن ترد السلام ؟ قال أنا ميت فكيف أرد عليك السلام ؟ فقلت له : ماذا لقيت بعد ذلك ؟ لقيت والله أهوالا وزلازل عظاما شداداً . قال : قلت له : فما كان بعد ذلك ؟ قال : وما تراه يكون من الكريم ؟ قبل منا الحسنات ، وعفا عن السيئات . وضمن عنا التبعات . قال ثم شهق مالك وخر مغشياً عليه . قال فلبث بعد ذلك اياما مريضا ، ثم انصدع قلبه فمات .

---

(١) سعيد بن المسيب : كان رحمه الله عظيم الشأن ، رفيع القدر ، عزيز القول جيد [illegible] . . وكان سيد التابعين . . جمع بين الحديث والفقه والزهد والعبادة والورع . . سمع سعد بن أبي وقاص ، وأبا هريرة وغيرهم . . توفى سنة ٩٤ هـ وقيل سنة ١٠٥ هـ . والله أعلم . .

وقال أبو يعقوب القاري : رأيت في منامي رجلا آدمَ طوالاً والناس يتبعونه قلت : من هذا؟ قالوا : أويس القرني[1] ، فاتبعته فقلت : أوص يرحمك الله ، فكلح[2] في وجهي ، فقلت : مسترشد فأرشدني رحمك الله ، فأقبل عليَّ فقال : ابتغ رحمة الله عند محبته ، واحذر نقمته عند معصيته ، ولا تقطع رجاءك منه في خلال ذلك ، ثم ولى وتركني .

يقول ابن القيم في هذا الباب : « وهذا باب طويل جداً ، فإن لم تسمح نفسك بتصديقه ، وقلت هذه منامات وهي غير معصومة فتأمل من رأى صاحباً له ، أو قريبا ، أو غيره ، فأخبره بأمر لا يعلمه الا صاحب الرؤ يا ، وأخبره بمال دفنه ، أو حذره من أمر يقع ، أو بشره بأمر يوجد فوقع كما قال : أو أخبره بأنه يموت هو أو بعض أهله إلى كذا وكذا فيقع كما أخبره ، أو أخبره بخصب أو جدب أو عدو أو نازلة أو مرض أو بغرض له فوقع كما أخبره ، والواقع من ذلك لا يحصيه إلا الله ، والناس مشتركون فيه وقد رأينا نحن وغيرنا من ذاك عجائب .

وأبطل من قال : إن هذه كلها علوم وعقائد في النفس تظهر لصاحبها عند انقطاع نفسه عن الشواغل البدنية بالنوم . وهذا عين الباطل والمحال ، فإن النفس لم يكن فيها قط معرفة هذه الأمور التي يخبر بها الميت ، ولا خطرت ببالها ولا عندها علامة عليها ولا أمارة بوجه ما ، ونحن لا ننكر أن الأمر قد يقع كذلك .

وإن من الرؤ يا ما يكون من حديث النفس وصورة الاعتقاد ، بل كثير من مرائي الناس انما هي مجرد صورة اعتقادهم المطابق وغير المطابق .

فإن الرؤيا على ثلاثة أنواع : رؤيا من الله ، ورؤيا من الشيطان ، ورؤيا من حديث النفس[3] .

---

(١) أويس القرني : عاصر عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ولكنه لم يره .. وقدم مكة بعد وفاته .. وكان زاهدا ورعا .. استشهد في موقعة صفين ..

(٢) كلح : أي أعرض عنه

(٣) انظر (تفسير الاحلام) لابن سيرين والنابلسي ـ تحقيق المؤلف ـ ط . م القرآن

والرؤيا الصحيحة أقسام منها : إلهام يلقيه الله سبحانه في قلب العبد وهو كلام يكلم به الرب عبده في المنام كما قال عبادة بن الصامت وغيره .

ومنها : مثل يضربه له ملك الرؤيا الموكل بها .

ومنها : التقاء روح النائم بأرواح الموتى من أهله وأقاربه وأصحابه وغيرهم . .

ومنها : عروج روحه إلى الله سبحانه وخطابها له . .

ومنها : دخول روحه إلى الجنة ومشاهدتها وغير ذلك فالتقاء أرواح الأحياء والموتى نوع من أنواع الرؤيا الصحيحة التي هي عند الناس من جنس المحسوسات .

وهذا موضع اضطرب فيه الناس (فمن قائل) : إن العلوم كلها كامنة في النفس وانما اشتغالها بعالم الحس يحجب عنها مطالعتها ، فإذا تجردت بالنوم رأت عنها بحسب استعدادها ، ولما كان تجردها بالموت أكمل كانت علومها ومعارفها هنا أكمل .

وهذا فيه حق وباطل ، فلا يرد كله ولا يقبل كله ، فإن تجرد النفس يطلعها على علوم ومعارف لا تحصل بدون التجرد ، لكن لو تجردت كل التجرد لم تطلع على علم الله الذي بعث به رسوله ، وعلى تفاصيل ما أخبر به عن الرسل الماضية والأمم الخالية وتفاصيل المعاد وأشراط الساعة وتفاصيل الأمر والنهي والأسماء والصفات والأفعال وغير ذلك وتلقيه من معدنه أسهل وأقرب وأكثر مما يحصل للنفس المنغمسة في الشواغل البدنية .

ومن قائل : إن هذه المرائي علوم علقها الله في النفس ابتداء بلا سبب وهذا قول منكري الأسباب ، والحكم القوي وهو قول مخالف للشرع والعقل والفطرة .

ومن قائل : إن الرؤيا أمثال مضروبة يضربها الله للعبد بحسب استعداد

ألفه على يد ملك الرؤيا ، فمرة يكون مثلا مضروباً ومرة يكون نفس ما رآه الرائي فيطابق الواقع مطابقة العلم لمعلومه .

وهذا أقرب من القولين قبله .. ولكن الرؤيا ليست مقصورة عليه ، بل لها أسباب أخرى كما تقدم[1] .

* * *

فقد ثبت أن الأرواح تتلاقى .. لأنها جنود مجندة .. فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف ، كما تقدم ..

ولم تزل الناس قديماً وحديثاً تعرف هذا وتشاهده ..

قال جميل بن معمر العذري :

أَظَـلُّ نَهَارِي مُسْتَهَـامـاً وَتَلْتَقِـي ... مَـعَ اللَّيْـلِ رُوحِي في المَنَامِ وَرُوحَهَـا

فإن قيل : فالنائم يرى غيره من الأحياء يحدثه ويخاطبه ، وربما كان بينهما مسافة بعيدة ، ويكون المرئي يقظان روحه لم تفارق جسده ، فكيف التقت روحاهما ؟ قيل هذا إما أن يكون مثلا مضروباً ضربه ملك الرؤيا للنائم أو يكون حديث نفس من الرائي تجرد له في منامه كما قال حبيب بن أوس :

سُقْيـاً لِطَيْفِـكَ مِنْ زُورٍ أَتَـاكَ بِـهِ ... حَـدِيثُ نفسـك عنه وَهْـوَ مَشْغُـولُ

وقد تتناسب الروحان ، وتشتد علاقة احداهما بالأخرى ، فيشعر كل منهما ببعض ما يحدث لصاحبه ، وإن لم يشعر بما يحدث لغيره لشدة العلاقة بينهما ، وقد شاهد الناس من ذلك عجائب .

والمقصود أن أرواح الأحياء تتلاقى في النوم .. كما تتلاقى أرواح الأحياء والأموات ..

قال بعض السلف : « إن الأرواح تتلاقى في الهواء فتتعارف أو تتذاكر ، فيأتيها ملك الرؤيا بما هو لاقيها من خير أو شر ، قال : وقد وكل الله بالرؤيا

(١) الروح (٤٤) .

الصادقة ملكاً عَلَّمه وألهمه معرفة كل نفس بعينها واسمها ومنقلبها في دينها ودنياها وطبعها ومعارفها لا يتشبه عليه منها شيء ولا يغلط فيها ، فتأتيه نسخة من علم غيب الله من أم الكتاب بما هو مصيب لهذا الانسان من خير وشر في دينه ودنياه ، ويضرب له فيها الأمثال والأشكال على قدر عادته ، فتارة يبشره بخير قدّمه أو يقدمه وينذر عن معصية ارتكبها أو هَمَّ بها ، ويحذره من مكروه انعقدت أسبابه ليعارض تلك الأسباب بأسباب تدفعها ، ولغير ذلك من الحكم والمصالح التي جعلها الله في الرؤيا نعمة منه ورحمة واحساناً وتذكيراً وتعريفاً وجعل أحد طرق ذلك تلاقي الأرواح وتذاكرها وتعارفها ، وكم ممن كانت توبته وصلاحه وزهوه واقباله على الآخرة عن منام رآه أو رئي له ، وكم ممن استغنى وأصاب كنزاً ديناً عن منام . .

فهذا عمير بن وهب أتى في منامه فقيل له : قُمْ إلى موضع كذا من البيت فاحفره تجد مال أبيك . وكان أبوه قد دفن مالا ومات ولم يُوصِ به ، فقام عمير من نومه فاحتفر حيث أمره فأصاب عشرة آلاف درهم وتبراً كثيراً ، فقالت له الصغرى من بناته ، يا أبتِ ربنا هذا الذي أحيانا بدينه خير من هبل رالعزى ، ولولا أنه كذلك ما ورثك هذا المال ، وإنما عبدنه أياماً قلائل .

يقول ابن القيم : « وأما من حصل له الشفاء باستعمال دواء رأى مَنْ وصفه له في منامه فكثير جداً ، (وقد حدثني) غير واحد ممن كان غير مائل إلى شيخ الاسلام ابن تيمية أنه رآه ، بعد موته وسأله عن شيء كان يشكل عليه من مسائل الفرائض وغيرها فأجابه بالصواب .

وبالجملة فهذا أمر لا ينكره إلا من هو أجهل الناس بالأرواح وأحكامها وشأنها ، وبالله التوفيق[1] .

*

---

(١) السابق .

هل تقبض الروح وهي تعرف حالها من الايمان ؟

نعم . . لا تقبض الروح حتى يبشر . . وأنه يصعد بها .

قال مجاهد : إن المؤمن ليبشر بصلاح ولده من بعده لتقر عينه . .

وقال ابن مسعود : إذا جاء ملك الموت ليقبض روح المؤمن قال : ربك يقرؤك السلام .

قال ابن المبارك : أخبرنا حيوه قال : أخبرني أبو صخر عن محمد بن كعب القرظي قال : إذا استنفقت نفس العبد المؤمن جاءه ملك الموت فقال : السلام عليك يا ولي الله ، الله يقرئك السلام ثم نزع بهذه الآية :

﴿ الذِينَ تَتوفَاهُمُ الملائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾[1] . .

وأخرج ابن ماجه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال . « تحضر الملائكة فإذا كان الرجل صالحاً قالوا : اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب . اخرجي حميدة وأبشري بِرَوْحٍ وريحان ورب راضٍ غير غضبان . فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يُعرج بها إلى السماء ، فيفتح لها فيقال : من هذا ؟ فيقولون : فلان ابن فلان فيقال : مرحباً بالنفس الطيبة التي كانت في الجسد الطيب . ادخلي حميدة وأبشري بروح وريحان ، ورب راض غير غضبان . فلا يزال يقال لها ذلك حتى تنتهي إلى السماء التي فيها الله تعالى . فإذا كان الرجل السوء قال : اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث . اخرجى ذميمة وأبشري بحميم وغسّاق وآخر من شكله أزواج .

فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال: من هذا ؟ فيقال: فلان. فيقال: لا مرحباً بالنفس الخبيثة التي كانت في الجسد الخبيث . ارجعي ذميمة فإنها لا تفتح لك أبواب السماء . فترسل من

---

(١) النحل : ٣٢ .

السماء ثم تصير إلى القبر » أ . هـ خرَّجه كذلك ابن أبي شيبة .

ـ وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الميت تحضره الملائكة ، فإذا كان الرجل الصالح قالوا : اخرجي أيتها الروح الطيبة » ولفظ مسلم « إذا خرجت روح العبد المؤمن تلقاها ملكان يصعدان بها »[1] .

ـ وعن عبادة بن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، فقالت عائشة أو بعض أزواجه : إنا لنكره الموت فقال : ليس ذاك ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشِّرَ برضوان من الله وكرامته فليس شيء أحب إليه مما أمامه فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه وأن الكافر إذا حضره الموت بُشِّرَ بعذاب الله وعقوبته فليس شيء أكره إليه مما أمامه فكره لقاء الله وكره لقاءه » أ . هـ[2] .

* * *

وقد خرَّج البزار في مسنده من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« إن المؤمن إذا احتضر أتته الملائكة بحريرة فيها مسك وضباير ريحان فتسل روحه كما تسل الشعرة من العجين ويقال : « أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية » مرضياً عنك إلى رَوْحٍ وكرامة ، فإذا خرجت روحه وضعت على ذلك المسك والريحان وطويت عليها الحريرة وذهب بها إلى عليين .

وإن الكافر إذا احتضر أتته الملائكة بمسح فيه جمرة ، فتنزع روحه انتزاعاً شديداً ويقال : أيتها النفس الخبيثة اخرجي ساخطة مسخوطاً عليك إلى هوان

---

(١) اخرجه ابن أبي شيبة واسناده صحيح ثابت اتفق على رجاله البخاري ومسلم .

(٢) أخرجه البخاري وهذا لفظه . كذلك أخرجه مسلم وابن ماجه من حديث عائشة ، وابن المبارك من حديث أنس رضي الله عنه .

الله وعذابه ، فإذا خرجت روحه وضعت تلك الجمرة ، ويطوى عليها المسح ويذهب بها إلى سجين .

قال القرطبي معلقاً : « فقوله في روح المؤمن : يذهب بها إلى عليين هو معنى ما جاء في حديث أبي هريرة المتقدم إلى السماء التي فيها الله والأحاديث يفسر بعضها بعضاً فلا اشكال .

وذكرته عند بعض من يتسم بالعلم والفقه والقضاء فلم يكن منه إلا أن بادر بلعن من رواه ونقله فظن منه التجسيم . فقلت له . الحديث صحيح . . والذين رووه هم الذين جاءوا بالصلوات الخمس وغيرها من أمور الدين . . فإن كذبوا هنا كذبوا هنالك ، وإن صدقوا هنا صدقوا هنالك . والتأويل مزيل ما توهمته . . وكان في ذلك كلام » أ . هـ[1] .

(١) التذكرة (٧٤) ط الكليات الأزهرية .

الفصل الثانى

سكرات الموت

تمني الموت :

قال تعالى مخبراً عن يوسف عليه السلام :

﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾[1] . .

وعن مريم عليها السلام في قولها :

﴿ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً ﴾[2] . .

وسيأتي في علامات الساعة حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول : يا ليتني مكانه » أ . هـ

* *

قال القرطبي معلقا : « ولا تعارض بين هذه الترجمة والتي قبلها لما نبينه . أما يوسف عليه السلام فقال قتادة : لم يتمنَ الموتَ أحدٌ : نبي ولا غيره الا

---

(1) يوسف : ١٠١ .

(2) مريم : ٢٣ .

يوسف عليه السلام حين تكاملت عليه النعم وجمع له الشمل : اشتاق إلى لقاء ربه عز وجل فقال :

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ المُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي ﴾[1] . .

الآية . فاشتاق إلى لقاء ربه عز وجل ، وقيل إن يوسف عليه السلام لم يتمنَ الموت ؟ وإنما تمنى الوفاة على الاسلام . أي إذا جاء أجلي توفني مسلماً . وهذا هو القول المختار في تأويل الآية عند أهل التأويل .

وأما مريم عليها السلام فإنما تمنت الموت لوجهين : أحدهما : أنها خافت أن يُظَنَّ بها السوء في دينها وتُعيَّر . فيفتنها ذلك . الثاني : لئلا يقع قوم بسببها في البهتان والزور والنسبة إلى الزنا . وذلك مُهلك لهم . . والله أعلم .

وأما الحديث فإنما هو خبر : أن ذلك سيكون لشدة ما ينزل بالناس من فساد الحال في الدين ، وضعفه وخوف ذهابه ، لا لضر ينزل بالمرء في جسمه أو غير ذلك ، من ذهاب ماله مما يحط به عنه خطاياه . ومما يوضح هذا المعنى ويبينه قوله عليه السلام « اللهم إني أسألك من فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين ، وإذا أردت - ويروى أدرت - في الناس فتنة فاقبضني اليك غير مفتون » أ . هـ[2] .

ومثل هذا قول عمر رضي الله عنه : « اللهم قد ضعفت قوتي وكبرت سني وانتشرت رعيتي فاقبضني اليك غير مضيع ولا مقصر » . فما جاوز ذلك الشهر حتى قبض رحمه الله .

* * *

المؤمن يموت بعرق الجبين :

عن بريدة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « المؤمن يموت بعرق

---

(١) يوسف : ١٠١ .

(٢) أخرجه مالك .

الجبين » أ . هـ[1] وروي عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ارقبوا للميت عند موته ثلاثاً : إن رشح جبينه ، وذرفت عيناه ، وانتشر منخراه ، فهي رحمة الله قد نزلت به ، وإن غط غطيط البكر المخنوق ، وخمد لونه ، وأزبد شدقاه . فهو عذاب من الله تعالى قد حل به » أ . هـ[2] .

قال عبدالله : « إن المؤمن يبقى عليه خطاياه فيجازى بها عند الموت ، أي يجازى فيعرق لذلك جبينه » أ . هـ .

قال بعض العلماء : « إنما يعرق جبينه حياء من ربه لما اقترف من مخالفته ، لأن ما سفل منه قد مات ، وانما بقيت قوى الحياة وحركاتها فيما علا ، والحياء في العينين وذلك وقت الحياء والكافر في عمى عن هذا كله ، والموحد المعذب في شغل عن هذا بالعذاب الذي قد حل به ، وانما العرق الذي يظهر لمن حلت به الرحمة ، فإنه ليس من ولي ولا صديق ولا بر إلا وهو مستحٍ من ربه ، مع البشرى والتحف والكرامات » .

قال القرطبي : « وقد تظهر العلامات الثلاث ، وقد تظهر واحدة ، وتظهر اثنتان ، وقد شاهدنا عرق الجبين . . وذلك بحسب تفاوت الناس في الأعمال . . والله أعلم[3] .

وفي حديث ابن مسعود « موت المؤمن بعرق الجبين تبقى عليه البقية فيجازف بها عند الموت » أي يشدد لتمحص عنه ذنوبه .

* * *

خروج نفس المؤمن والكافر

عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) أخرجه الترمذي الحكيم في « نوادر الأصول » .
(٢) أخرجه الترمذي الحكيم في « نوادر الأصول » .
(٣) التذكرة [٢٧] .

« إن نفس المؤمن تخرج رشحاً ، وإن نفس الكافر تُسلُّ كما تُسلُّ نفس الحمار . وإن المؤمن ليعمل الخطيئة فيشدد عليه عند الموت ليكفر بها عنه .

وإن الكافر ليعمل الحسنة فيسهل عليه عند الموت ليجزي بها » أ . هـ[1] .

* * *

إن للموت لسكرات

قال تعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ﴾[2] . .

وقال :

﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾[3] . .

وقال :

﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴾[4] . .

فللموت شدة . . يلاقيها العبد بألم شديد . . وهذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحتضر . . كانت بين يديه ركوة أو علبة فيها ماء . فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بها وجهه ويقول :

« لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إن للموت سكرات » . .

ثم نصب يديه فجعل يقول : « في الرفيق الأعلى » حتى قبض ومالت يده » أ . هـ[5] . .

---

(١) أخرجه أبو نعيم .
(٢) الأنعام : ٩٣ .
(٣) ق : ١٩ .
(٤) الواقعة : ٨٣ .
(٥) أخرجه البخاري عن عائشة .

وهو الذي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . . وهو الذي كان يقوم من الليل حتى تتورم قدماه . . فما بالك بالعبد الضعيف . . نسأل الله السلامة . .

* *

يقول الشيخ الغزالي في الاحياء : « أعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها لكان جديراً بأن ينغض عليه عيشه ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته . . وحقيقاً بأن يطول فيه فكره ويعظم له استعداده لا سيما وهو في كل نفس بصدده . . كما قال بعض الحكماء : كرب بيد سواك لا تدري متى يغشاك » .

وقال لقمان لابنه : يا بني أمر لا تدري متى يلقاك استعد له قبل أن يفجأك ، والعجب أن الانسان لو كان في أعظم اللذات وأطيب مجالس اللهو فانتظر أن يدخل عليه جندي فيضربه خمس خشبات لتكدرت عليه لذاته وفسد عليه عيشه . . وهو في كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع وهو عنه غافل فما لهذا سبب إلا الجهل والغرور »[1] .

خرج الترمذي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : « ما أغبط أحدا بهون موت بعد الذي رأيت من شدة موت رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وذكر المحاسبي في الرعاية : أن الله تعالى قال لابراهيم عليه السلام : « يا خليلي كيف وجدت الموت » ؟ قال : كسفود محمى جعل في صوف رطب ثم جذب . قال : « أما أنا قد هونا عليك يا ابراهيم » .

وروي أن موسى عليه السلام لما صار روحه إلى الله . قال له ربه : « يا موسى كيف وجدت الموت ؟ » قال : وجدت نفسي كالعصفور الحي حين يقلى على المقلى ، لا يموت فيستريح ولا ينجو فيطير . . وروي عنه أنه قال : وجدت نفسي كشاة تسلخ بيد القصاب[2] وهي حية .

---

(١) الاحياء : (٤٤٥/٤) ط الحبي .
(٢) القصاب : الجزار .

وفي الخبر من حديث حميد الطويل عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم : الملائكة تكتنف العبد ، وتحبسه ، ولولا ذلك لكان يعدو في الصحاري والبراري من شدة سكرات الموت ! وجاءت الرواية بأن ملك الموت عليه السلام إذا تولى الله قبض نفسه بعد موت الخلائق يقول : « وعزتك لو علمت من سكرة الموت ما أعلم ما قبضت نفس مؤمن » ذكره القاضي أبو بكر ابن العربي ، وعن شهر بن حَوْشب قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الموت وشدته ؟ فقال : « إن أهون الموت بمنزلة حسكة كانت في صوف . فهل تخرج الحسكة من الصوف إلا ومعها صوف » قال شهر . ولما حضرت عمرو بن العاص الوفاة قال له ابنه: يا أبتاه ؟ انك لتقول لنا : ليتني كنت ألقى رجلاً عاقلاً لبيباً عند نزول الموت حتى يصف لي ما يجب . وأنت ذلك الرجل فصف لي الموت فقال: يا بني والله كأن جنبي في تخت . وكأني أتنفس من سَمّ إبرة ، وكأن غصن شوك يجذب من قدمي إلى هامتي . ثم أنشأ يقول :

لَيْتَنِي كُنْتُ قَبْلَ مَا قَدْ بَدَا لِي ... في تِلَالِ الجِبَالِ أَرْعَى الوُعُولَا

وعن أبي ميسرة رفعه قال : « لو أن ألم شعرة من الميت وضع على أهل السماء والأرض لماتوا جميعاً » وأنشد :

أَذْكُرُ المَوْتَ وَلَا أَرْهَبُهُ ... إِنَّ قَلْبِي لَغَلِيظٌ كَالحَجَرْ
أَطْلُبُ الدُّنْيَا كَأني خَالِدٌ ... وَوَرَائِي المَوْتُ يَقْفُو بالأَثَرْ
وَكَفَى بالمَوْتِ فَاعْلَمْ وَاعِظاً ... لِمَنِ المَوْتُ عَلَيْهِ قَدْ قُدِرْ
والمَنَايَا حَوْلَهُ رُصَّدٌ ... لَيْسَ يُنْجِي المَرْءَ مِنْهُنَّ المَفَرْ

* * *

النزع :

شدة الموت لا يعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها ، ومن لم يذقها فإنما يعرفها إما بالقياس إلى الآلام التي أدركها واما بالاستدلال بأحوال الناس في النزع على شدة ما هم فيه فأما القياس الذي يشهد له فهو : أن كل عضو لا روح فيه فلا يحس

بالألم فإذا كان فيه الروح فالمدرك للألم هو الروح فمهما أصاب العضو جرح أو حريق سرى الأثر إلى الروح فبقدر ما يسري إلى الروح يتألم والمؤلم يتفرق على اللحم والدم وسائر الأجزاء فلا يصيب الروح إلا بعض الألم فإن كان في الآلام ما يباشر نفس الروح ولا يلاقي غيره فما أعظم ذلك الألم وما أشده !!

* * *

والنزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح فاستغرق في جميع أجزائه حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشر في أعماق البدن إلا وقد حلَّ به الألم فلو أصابته شوكة فالألم الذي يجده إنما يجري في جزء من الروح يلاقي ذلك الموضع الذي أصابته الشوكة ، وإنما يعظم أثر الاحتراق لأن أجزاء النار تغوص في سائر أجزاء البدن فلا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهراً وباطناً إلا وتصيبه النار فتحسه الأجزاء الروحانية المنتشرة في سائر أجزاء اللحم .

وأما الجراحة فإنما تصيب الموضع الذي مسه الحديد فقط فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النار ، فألم النزع يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائه فإنه المنزوع المجذوب من كل عِرْق من العروق وعصب من الأعصاب وجزء من الأجزاء ومفصل من المفاصل . . ومن أصل كل شعرة وبشرة من الفرق إلى القدم فلا تسأل عن كربه وألمه حتى قالوا : إن الموت لأشد من ضرب بالسيف ونشر بالمناشير وقرض بالمقاريض لأن قطع البدن بالسيف انما يؤلم لتعلقه بالروح فكيف إذا كان المتناول المباشر نفس الروح وانما يستغيث المضروب ويصبح لبقاء قوته في قلبه وفي لسانه . . وانما انقطع صوت الميت وصياحه مع شدة ألمه ؛ لأن الكرب قد بالغ فيه وتصاعد على قلبه وبلغ كل موضع منه . . فهدَّ كل قوة وضعف كل جارحة فلم يترك له قوة الاستغاثة .

أما العقل فقد غشيه وشوشه وأما اللسان فقد أبكمه . . وأما الأطراف فقد ضعفها ، ويود لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغاثة ، ولكنه لا يقدر على ذلك فإن بقيت فيه قوة سمعتَ له عند نزع الروح وجذبها خواراً وغرغرة من حلقه وصدره وقد تغير لونه وأربد حتى كأنه ظهر منه التراب الذي

هو أصل فطرته وقد جذب منه كل عرق على حياله فالألم ينتشر في داخله وخارجه حتى ترتفع الحدقتان إلى أعالي أجفانه وتتقلص الشفتان ويتقلص اللسان إلى أصله وترتفع الانثيان إلى أعالي موضعها وتخضر أنامله فلا تسل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه . . ولو كان المجذوب عرقاً واحداً لكان ألمه عظيماً فكيف والمجذوب نفس الروح المتألم لا من عرق واحد بل من جميع العروق ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجاً فتبرد أولا قدماه ثم ساقاه ثم فخذاه ولكل عضو سكرة بعد سكرة وكربة بعد كربة حتى يبلغ بها إلى الحلقوم فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ويغلق دونه باب التوبة وتحيط به الحسرة والندامة . .

* * *

وقال عمر رضي الله عنه لكعب الأحبار يا كعب حدثنا عن الموت ، فقال نعم يا أمير المؤمنين : إن الموت كغصن كثير الشوك أدخل في جوف رجل وأخذت كل شوكة بعرق ثم جذبه رجل شديد الجذب فأخذ ما أخذ وأبقى ما أبقى .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أن العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وأن مفاصله ليسلم بعضها على بعض تقول عليك السلام تفارقني وأفارقك إلى يوم القيامة » أ . هـ .

فهذه سكرات الموت على أولياء الله وأحبابه ، فما حالنا ونحن المنهكون في المعاصي وتتوالى علينا من سكرات الموت بقية الدواهي فإن دواهي الموت ثلاث . الأولى : شدة النزع .

الداهية الثانية : مشاهدة صورة ملك الموت ودخول الروح والخوف منه على القلب فلو رأى صورته التي يقبض عليها روح العبد المذنب أعظم الرجال قوة لم يطق رؤ يته روي عن ابراهيم الخليل عليه السلام أنه قال لملك الموت هل تستطيع أن تريني صورتك التي تقبض عليها روح الفاجر؟ قال : لا تطيق ذلك .

قال: بلى . قال: فأعرض عنه ثم التفت فإذا هو برجل أسود قائم الشفر منتن الريح أسود الثياب يزج مِنْ فِيهِ ومناخيره لهب النار والدخان فغشي على ابراهيم عليه السلام ثم أفاق وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى فقال : يا ملك الموت ، لو لم يَلْقَ الفاجر عند الموت إلا صورة وجهك لكان حسبه .

* * *

الشيطان يحضر الميت :

قال القرطبي في التذكرة « روي عن النبي صلى الله عليه وسلم : أن العبد إذا كان عند الموت قعد عنده شيطانان : الواحد عن يمينه ، والآخر عن شماله ، فالذي عن يمينه على صفة أبيه ، يقول له : يا بني اني كنت عليك شفيقاً محباً ، ولكن مت على دين النصرانية فهو خير الأديان ، والذي على شماله على صفة أمه ، تقول له : يا بني إنه كان بطني لك وعاء ، وثدي لك سقاء ، وفخذي لك وطاء ، ولكن مت على دين اليهود وهو خير الأديان » أ . هـ .

ذكره أبو الحسن القاسبي في شرح رسالة ابن أبي زيد له . . وذكر معناه أبو حامد في كتاب « كشف علوم الآخرة » : وإن عند استقرار النفس في التراقي والارتفاع تعرض عليه الفتن وذلك أن ابليس قد أنفذ أعوانه إلى هذا الانسان خاصة واستعملهم عليه ووكلهم به فيأتون المرء وهو على تلك الحال فيتمثلون له في صورة من سلف من الأحباب الميتين الباغين له النصح في دار الدنيا ، كالأب والأم والأخ والأخت والصديق الحميم فيقولون له:أنت تموت يا فلان ونحن قد سبقناك في هذا الشأن فمت يهوديا فهو الدين المقبول عند الله تعالى . . فإن انصرف عنهم وأبى ، جاءه آخرون وقالوا له:مت نصرانيا فإنه دين المسيح ، وقد نسخ الله به دين موسى ويذكرون له عقائد كل ملة فعند ذلك يزيغ الله من يريد زيغه وهو معنى قوله تعالى :

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ﴾[1] .

(١) آل عمران : ٨ .

أي لا تزغ قلوبنا عند الموت وقد هديتنا من قبل هذا زماناً ، فإذا أراد الله بعبده هداية وتثبيتاً جاءته الرحمة ، وقيل : هو جبريل عليه السلام فيطرد عنه الشياطين ويمسح الشحوب عن وجهه فيبتسم الميت لا محالة ، وكثير من يرى متبسماً في هذا المقام فرحاً بالبشر الذي جاءه رحمة من الله تعالى فيقول : يا فلان أما تعرفني ؟ أنا جبريل . . وهؤلاء أعداؤك من الشياطين مت على الملة الحنيفية والشريعة الجليلة . فما شيء أحب إلى الانسان وأفرح منه بذلك وهو قوله تعالى :

﴿ وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً انَّكَ أَنْتَ الوَّهَابُ ﴾ [1] . .

ثم يقبض عند الطعنة على ما يأتي :

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حضرت وفاة أبي أحمد ، وبيدي الخرقة لأشد لحييه ، فكان يفرق ثم يفيق ويقول بيده : لا بعد لا بعد . فعل هذا مراراً فقلت له : يا أبت أي شيء ما يبدو منك ؟ فقال ـ إن الشيطان قائم بحذائي عاضٌ على أنامله يقول : يا أحمد فتني وأنا أقول لا . بعد لا . حتى أموت .

* * *

قال القرطبي : وقد سمعت شيخنا الامام أبا العباس أحمد بن عمر القرطبي يقول : حضرت أخا شيخنا أبي جعفر أحمد بن محمد بن محمد القرطبي بقرطبة وقد احتضر . فقيل له : قل : لا اله إلا الله ، فكان يقول : لا . لا . فلما أفاق ذكرنا له ذلك فقال : أتاني شيطانان عن يميني وعن شمالي . يقول أحدهما : مت يهوديا فإنه خير الأديان ، والآخر يقول : مت نصرانيا فإنه خير الأديان . فكنت أقول لهما : لا . لا تقولان هذا ؟ وقد كتبت بيدي في كتاب الترمذي والنسائي عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أن الشيطان يأتي أحدكم عند موته فيقول : مت يهودياً مت نصرانياً » فكان الجواب لهما لا . لكما .

قلت : ومثل هذا عن الصالحين كثير يكون الجواب للشيطان لا لمن يلقنه

---

(١) بقية الآية السابقة .

الشهادة ، وقد تصفحت كتاب الترمذي أبي عيسى ، وسمعت جميعه ، فلم أقف على هذا الحديث فيه ، فإن كان في بعض النسخ . . فالله أعلم .

وأما كتاب النسائي فسمعت بعضه وكان عندي كثير منه : فلم أقف عليه وهو نسخ ، فيحتمل أن يكون في بعضها . . والله أعلم[1] .

* * *

صفة ملك الموت :

روي عن ابن عباس أن ابراهيم خليل الرحمن سأل ملك الموت أن يريه كيف يقبض روح المؤمن فقال له : اصرف وجهك عني فصرف ، ثم نظر فرآه في صورة شاب حسن الصورة حسن الثياب طيب الرائحة حسن البشر فقال له : والله لو لم يَلْقَ المؤمن من السرور شيئاً سوى وجهك كفاه ثم قال له : اصرف وجهك عني فصرف وجهه عنه ، ثم نظر اليه فإذا صورة انسان أسود رجلاه في الأرض ورأسه في السماء كأقبح ما أنت راءٍ من الصور ، تحت كل شعرة من جسده لهيب نار ، فقال له : والله لو لم يَلْقَ الكافر سوى نظرة إلى شخصك لكفاه ! .

* * *

قال علماؤنا رحمة الله عليهم : لا يتعجب من كون ملك الموت يرى على صورتين لشخصين فما ذلك إلا مثل ما يصيب الانسان بتغير الخلقة في الصحة والمرض والكبر والشباب والهرم ، وكصفاء اللون بملازمة الحمام وشحوب الوجه بتغير اللون بلفح الهواجر في السفر ، غير أن قضية الملائكة عليهم السلام يجري ذلك منهم في اليوم الواحد والساعة الواحدة ، وإن لم يجر هذا على الانسان إلا في الأوقات المتباعدة والسنين المتطاولة ، وهذا بين فتأمله .

* * *

---

(١) التذكرة (٥٠) .

وقالوا : وأما مشاهدة ملك الموت عليه السلام وما يدخل على القلب منه من الروع والفزع ، فهو أمر لا يعبر لعظم هوله وفظاعة رؤيته ، ولا يعلم حقيقة ذلك الا الذي يتبدى له ويطلع عليه وانما هي أمثال تُضرب وحكايات تروى .

روي عن عكرمة أنه قال : رأيت في بعض صحف شيث أن آدم عليه السلام قال : يا رب أرني ملك الموت حتى أنظر اليه ، فأوحى الله تعالى : أن له صفات لا تقدر على النظر اليها وسأنزله عليك في الصورة التي يأتي فيها الأنبياء والمصطفين فأنزل الله عليه جبريل وميكائيل وأتاه ملك الموت في صورة كبش أملح قد نشر من أجنحته أربعة آلاف جناح ، منها جناح جاوز السماوات والأرض وجناح جاوز الأرضين وجناح أقصى المشرق وجناح جاوز أقصى المغرب ، وإذا بين يديه الأرض بما اشتملت عليه من الجبال والسهول والغياض والجن والانس والدواب وما أحاط بها من البحار وما علاها من الأجواء في ثغرة نحره كالخردلة في فلاة من الأرض ، وإذا له عيون لا يفتحها إلا في مواضع فتحها ، وأجنحة لا ينشرها إلا في مواضع نشرها ، وأجنحة للبشرى ينشرها للمصطفين وأجنحة للكفار فيها سفافيد و كلاليب و مقاريض فصعق ادم صعقة لبث فيها إلى مثل تلك الساعة من اليوم السابع ثم أفاق وكان في عروق الزعفران . ذكر هذا الخبر ابن ظفر الواعظ المكنى أبو هاشم في كتاب النصائح .

سبب قبض ملك الموت لأرواح الخلق :

روي الزهري ووهب بن منبه وغيرهما ما معناه :

« إن الله أرسل جبريل عليه السلام ليأتيه من تربة الأرض فأتاها ليأخذ منها فاستعاذت بالله من ذلك فأعاذها ، فأرسل ميكائيل فاستعاذت منه فأعاذها فبعث عزرائيل فاستعاذت منه فلم يعذها فأخذ منها ، فقال الرب تبارك وتعالى : استعاذت بي منك ؟ قال : نعم . قال : فهلا رحمتها كما رحمها صاحباك ؟ قال : يا رب طاعتك أوجب عليَّ من رحمتي اياها . قال الله عز وجل : اذهب فأنت

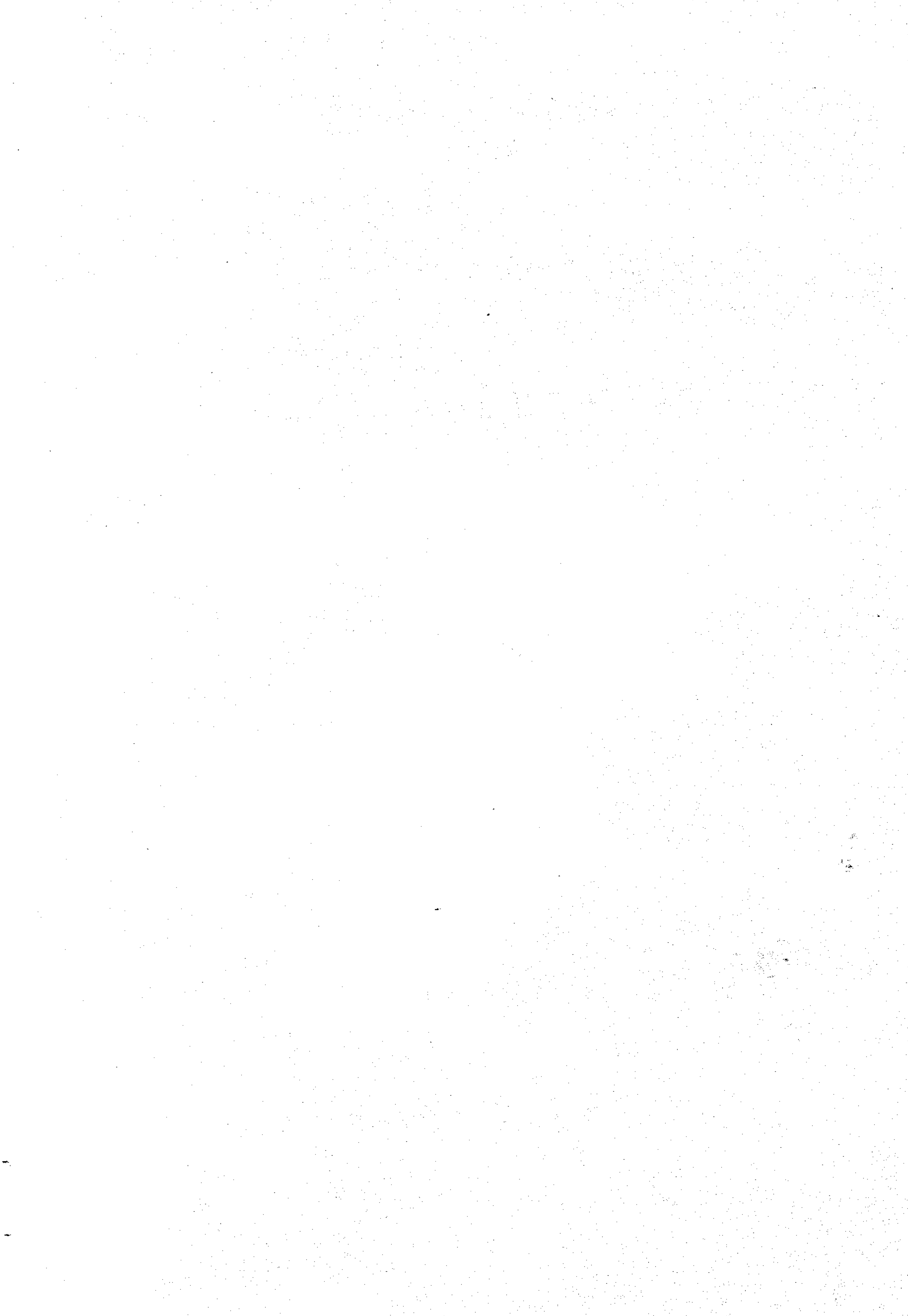
ملك الموت سلطتك على قبض أرواحهم فبكا . فقال:ما يبكيك ؟ فقال:يا رب إنك تخلق من هذا الخلق أنبياء وأصفياء ومرسلين وإنك لم تخلق خلقاً أكره اليهم من الموت فإذا عرفوني أبغضوني .

قال الله تعالى : إني سأجعل للموت عللا وأسباباً ينسبون الموت اليها ولا يذكرونك معها ، فخلق الله الأوجاع وسائر الحتوف » .

* * *

وقد قيل : إن الذي أتى بتربة آدم ابليس ، وأن الله بعثه بعد ملكين . . فاستغاثت بالله منه ، فقالت : إني أعوذ بالله منك ، ثم أخذ منها وصعد إلى ربه فقال : ألم تستعذ بي منك ؟ فقال : بلى يا رب . فقال الله عز وجل : وعزتي لأخلقنَّ بما جنتْ يداك خلقاً يسوؤك . . والله أعلم . .

* * *



الفصل الثالث

أحكام الميت

مما سبق ما يجب على المسلم معرفته وفعله . ولكن على من حضر حوله أمور هي :

١ ـ ما يسن عند الاحتضار :

يسن عند الاحتضار مراعاة السنن الآتية :

١ ـ تلقين المحتضر « لا اله إلا الله » لما روي في الصحاح . إذا كان في حالة ما لا ينطق بلفظ الشهادتين . فإن كان ينطق بها فلا معنى لتلقينه . .

وجمهور العلماء على أن المحتضر يقتصر في تلقينه على لفظ « لا اله الا الله » لظاهر الحديث . . ويرى جماعة أنه يلقن الشهادتين لأن المقصود تذكر التوحيد وهو يتوقف عليهما .

٢ – توجيهه إلى القبلة مضطجعاً على شقه الأيمن.

٣ ـ قراءة سورة يس .

٤ ـ تغميض عينيه إذا مات .

٥ ـ تسجيته صيانة له عن الانكشاف وستراً لصورته المتغيرة عن الأعين .

٦ ـ المبادرة بتجهيزه متى تحقق موته . .

٧ ـ قضاء دينه . .

* * *

٢ ـ غسل الميت :

يجب غسل الميت المسلم الذي لم يقتل في معركة بأيدي الكفار . .

أما الشهيد . . فلا يجب غسله . . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « زملوهم بكلومهم ودمائهم ، فإن أحدهم يبعث يوم القيامة وجرحه يثعب دماً : اللون لون دم والريح ريح مسك » . . والحديث في الصحاح .

* * *

وغسل الميت أن يعمم بدنه بالماء مرة واحدة . . ويستحب تجريد الميت من ثيابه ويوضع ساتر لعورته ويوضع على مكان مرتفع ويغسل . . وينبغي أن يكون الغاسل ثقة أميناً صالحاً فقد ثبت عند ابن ماجة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ليغسل موتاكم المأمونون » . .

وتجب النية عليه ، لأنه هو المخاطب بالغسل . ثم يبدأ فيعصر بطن الميت عصراً رفيقاً ، لاخراج ما عسى أن يكون بها ، ويزيل ما على بدنه من نجاسة . على أن يلف على يده خرقة يمسح بها عورته . . فإن لمس العورة حرام . ثم يوضئه وضوء الصلاة لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ابدأ بميامنها ومواضع الوضوء منها » ؟ ٠هـ ولتجديد سمة المؤمنين في ظهور أثر الغرة والتحجيل ، ثم يغسله ثلاثاً بالماء والصابون ، أو الماء القراح . مبتدئاً باليمين ، فإن رأى الزيادة على الثلاث بعدم حصول الانقاء بها أو لشيء آخر غسله خمساً ، أو سبعاً .

ففي الصحيح : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اغسلها وتراً ثلاثاً أو خمساً أو سبعاً ، أو أكثر من ذلك إن رأيته » . .

قال ابن المنذر : إنما فوض الرأي اليهن بالشرط المذكور وهو الايثار ، فإذا كان الميت امرأة ندب نقض شعرها وغسل وأعيد تضفيره ، وأرسل خلفها .

ففي حديث أم عطية : أنهن جعلن رأس ابنة النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة قرون . قلت : نقضنه وجعلنه ثلاثة قرون ؟ قالت : نعم .

وعند مسلم فضفرنا شعرها ثلاثة قرون : قرنيها وناصيتها . وفي صحيح ابن حبان الأمر بتضفيرها من قوله صلى الله عليه وسلم«لها ثلاثة قرون» .

فإذا فرغ من غسل الميت جفف بدنه بثوب نظيف ، لئلا تبتل أكفانه ، ووضع عليه الطيب .

وقال أبو وائل : كان عند علي رضي الله عنه مسك ، فأوصى أن يحنط به ، وقال هو فضل حنوط رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وجمهور العلماء على كراهة تقليم أظفار الميت وأخذ شيء من شعر شاربه ، أو إبطه أو عانته ، وجوز ذلك ابن حزم .

واتفقوا فيما إذا خرج من بطنه حدث بعد الغسل وقبل التكفين ، على أنه يجب غسل ما أصابه من نجاسة ، واختلفوا في اعادة طهارته فقيل : لا يجب ، وقيل : يجب الوضوء . وقيل : يجب اعادة الغسل»[1] .

* * *

الكفن :

تكفين الميت : ستره بما يستره ولو كان ثوباً واحداً .. ويستحب فيه ما يأتي :

١ ـ أن يكون حسناً نظيفاً ساتراً للبدن .

٢ ـ أن يكون أبيض اللون .

---

(١) فقه السنة (١/٤٣٣) .

٣ ـ أن يكون ثلاث لفائف للرجل . . وخمس لفائف للمرأة .

ـ فعن عائشة قالت : كفن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثلاثة أثواب بيض سحولية جدد ليس فيها قميص ولا عمامة » ٢٠٢هـ[1] .

قال الترمذي : والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وغيرهم .

وقال سفيان الثوري : يكفن الرجل في ثلاثة أثواب ، إن شئت في قميصين ولفافتين ، وإن شئت في ثلاث لفائف . ويجزي ثوب واحد إن لم يجدوا ثوبين والثوبان يجزيان ، والثلاثة لمن وجد أحب اليهم ، وهو قول الشافعي وأحمد واسحاق ، وقالوا : تكفن المرأة في خمسة أثواب .

* * *

الصلاة على الميت :

الصلاة على الميت فرض كفاية لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم ولمحافظة المسلمين عليها .

ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من تبع جنازة وصلى عليها ، فله قيراط ، ومن تبعها حتى يفرغ منها فله قيراطان ، أصغرهما مثل أحد أو أحدهما مثل أحد » ٢٠٢هـ[2] ويشترط فيها الشروط التي تفرض في سائر الصلوات المكتوبة من الطهارة واستقبال القبلة وستر العورة .

وأركانها :

١ ـ النية .

٢ ـ القيام للقادر عليه .

---

(١) رواه الجماعة .

(٢) رواه الجماعة ، وهو عند مسلم بلفظ آخر عن خباب رضي الله عنه .

٣ ـ التكبيرات الأربع : والسنة علم رفع اليدين في صلاة الجنازة ، إلا في أول تكبيرة فقط . .

٤ ـ ٥ ـ قراءة الفاتحة سراً ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم .

٦ ـ الدعاء .

٧ ـ الدعاء بعد التكبيرة الرابعة .

٨ ـ السلام .

* * *

الدفن :

قال تعالى :

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتاً . أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً ﴾[1] . .

فدفن المؤمن ومواراة بدنه فرض كفاية . . والدفن ليس له وقت معين . . فيدفن الميت بالليل أو بالنهار . .

وينبغي تعميق القبر قدر قامة . . ويفضل اللحد على الشق . . واللحد هو الشق في جانب القبر جهة القبلة . ينصب عليها اللبِنُ . فيكون كالبيت المسقف حفرة في وسط القبر تبنى جوانبها باللبن يوضع فيه الميت ويسقف عليه بشيء . وكلاهما جائز . . إلا أناللحدأولى . .

ومن السنة ادخال الميت القبر من مؤخره إذا تيسر . . فإذا لم يتيسر فكيفما امكن . . ومن السنة أيضاً : جعل الميت في قبره على جنبه الأيمن ووجهه تجاه القبلة . . ويقول واضعه « بسم الله وعلى ملة رسول الله ، أو : وعلى سنة رسول الله وعلى أربطة الكفن .

ويستحب أن يوسد رأس الميت بلبنة أو حجر أو تراب ويفضي بخده

(١) المرسلات : ٢٥ ، ٢٦ .

الأيمن إلى اللبنة ونحوها . بعد أن ينحى الكفن عن خده ، ويوضع على التراب[1] .

ويستحب أن يحثو من شهد الدفن ثلاث حثيات بيديه على القبر من جهة رأس الميت . . ويستحب الدعاء للميت بعد الفراغ من الدفن .

* * *

تلقين الميت بعد دفنه :

وأما عن تلقين الميت فقد ذكره طائفة من الخراسانيين من أصحاب الشافعي ، واستحسنوه أيضاً . . ذكره المتولي والرافعي وغيرهما ، وأما الشافعي نفسه فلم ينقل عنه فيه شيء .

ومن الصحابة من كان يفعله ، كأبي أمامة الباهلي ، وواثلة بن الاسقع وغيرهما من الصحابة .

ومن أصحاب أحمد من استحبه ، والتحقيق أنه جائز ، وليس بسنة راتبة . . والله أعلم » ا . هـ[2] .

* * *

المرأة تموت وفي بطنها جنين :

إذا ماتت المرأة وفي بطنها جنين حي وجب شق بطنها لاخراج الجنين إذا كانت حياته موجودة ، ويعرف ذلك بواسطة الأطباء الثقات .

المرأة الكتابية تموت وهي حامل من مسلم تدفن وحدها :

روى البيهقي عن واثلة بن الاسقع . أنه دفن امرأة نصرانية في بطنها ولد

---

(١) فقه السنة (١/ ٤٦٠) .

(٢) مجموع الفتاوي (٢٤/ ٢٩٩) .

مسلم في مقبرة ليست بمقبرة النصارى ولا المسلمين ، واختار هذا الإمام أحمد لأنها كافرة ولا تدفن في مقبرة المسلمين ، فيتأذوا بعذابها ، ولا في مقبرة الكفار لأن ولدها مسلم فيتأذى بعذابهم .

النهي عن سب الأموات :

عن عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا » ؟ ٠هـ[1] .

فلا يحل سب أموات المسلمين . . ولا ذكر مساوئهم لهذا الحديث . .

ـ فعن أنس رضي الله عنه قال : « مروا بجنازة فأثنوا عليها خيراً . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : وجبت . ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شراً ، فقال : وجبت . فقال عمر رضي الله عنه . ما وجبت ؟ قال : هذا أثنيتم عليه خيراً فوجبت له الجنة ، وهذا أثنيتم عليه شراً فوجبت له النار . أنتم شهداء الله في الأرض » ١ ٠هـ[2] .

* * *

ويجوز سب أموات الكفار ولعنهم . قال الله تعالى :

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي اسْرَائِيلَ ﴾[3] . .

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾[4] . .

---

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) المائدة : ٧٨ .

(٤) المسد : ١ .

وقال :

ولعن فرعون وأمثاله وسبه مشهور في كتاب الله »[1] .

نقل الميت :

يجوز نقل الميت من مكان إلى آخر عند المالكية . قبل الدفن وبعده لمصلحة، كأن يخاف عليه أن يغرق في البحر أو يأكله السبع، أو لزيارة أهله له، أو لدفنه بينهم ، أو رجاء بركته للمكان المنقول اليه . . ونحو ذلك . فالنقل حينئذ جائز ما لم ننتهك حرمة الميت بانفجاره أو تغيره أو كسر عظمه . .

ويحرم نقل الميت عند الشافعية من بلد إلى آخر إلا أن يكون بقرب مكة أو المدينة أو بيت المقدس ، فإنه يجوز النقل إلى احدى هذه البلاد لشرفها وفضلها .

ويكره الأحناف النقل . .

وقد سئل العلامة ابن تيمية عن هذا فقال :

« لا ينبش الميت من قبره ، إلا لحاجة . مثل أن يكون المدفن الأول فيه ما يؤذي الميت ، فينقل إلى غيره ، كما فعل بعض الصحابة في مثل ذلك .

وأرواح الأحياء إذا قبضت تجتمع بأرواح الموتى ، ويسأل الموتى القادم عليهم عن حال الأحياء فيقولون : ما فعل فلان ؟ فيقولون : فلان تزوج . فلان على حال حسنة . ويقولون : ما فعل فلان ؟ فيقول : ألم يأتكم ؟ فيقولون : لا . ذهب به إلى أمه الهاوية .

وأما أرواح الموتى فتجتمع : الأعلى ينزل إلى الأدنى . . والأدنى لا يصعد إلى الأعلى والروح تشرف على القبر . وتعاد إلى اللحد أحياناً . . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم :

« ما من رجل يمر بقبر الرجل كان يعرفه في الدنيا ، فيسلم عليه ، إلا رد

---

(١) بتصرف عن فقه السنة (١/٤٧٢) .

الله عليه روحه ، حتى يرد عليه السلام » أ ٠هـ .

والميت قد يعرف من يزوره . لهذا كانت السنة أن يقال : « السلام عليكم ، أهل دار قوم مؤمنين ، وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون ، ويرحم الله المستقدمين منا ومنكم ، والمستأخرين » والله أعلم[1] .

* * *

التعزية :

التعزية : التصبير والحمل على الصبر بذكر ما يسلي المصاب ويخفف عنه حزنه . . ويهون عليه مصيبته .

ـ فعن عمرو بن حزم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما من مؤمن يعزي أخاه بمصيبة الا كساه الله عز وجل من حلل الكرامة يوم القيامة » أ ٠هـ[2] .

قال العلماء عن ألفاظها : فإن عزى مسلماً بمسلم قال : أعظم الله أجرك ، وأحسن عزاءك ، وغفر لميتك . .

وإن عزى مسلماً بكافر قال : أعظم الله أجرك وأحسن عزاءك .

وإن عزى كافراً بمسلم قال : أحسن الله عزاءك وغفر لميتك ، وإن عزى كافراً بكافر قال : أخلف الله عليك . .

وأما جواب التعزية فيؤمن المعزي ويقول للمعزي : آجرك الله . وعند أحمد إن شاء صافح المعزي وإن شاء لم يصافح .

* * *

---

(١) مسلم والنسائي وأحمد .

(٢) ابن ماجه .

هل يتأذى الميت بالبكاء عليه ؟

« .. المسألة فيها نزاع بين السلف والخلف والعلماء .

وقد أنكر أنه يتأذى بالبكاء طوائف من السلف والخلف واعتقدوا أن ذلك من باب تعذيب الانسان بذنب غيره . فهو مخالف لقوله تعالى :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[1] ..

ثم تنوعت طرقهم في تلك الأحاديث الصحيحة .

قال ابن تيمية : « والصواب أنه يتأذى بالبكاء عليه . كما نطقت به الأحاديث الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه - وفي لفظ - مَنْ يُنَحْ عليه يعذب بما نُيِح عليه » وفي الحديث الصحيح أن عبد الله بن رواحة لما أنحى عليه جعلت أخته تندب وتقول واعضداه ، واناصراه ، فلما أفاق قال : ما قلت لي شيئاً إلا قيل لي : أكذلك أنت ؟ » .

ثم قال :

وأما تعذيب الميت : فهو لم يقل : إن الميت يعاقب ببكاء أهله عليه . بل قال : « يعذب » والعذاب أعم من العقاب ، فإن العذاب هو الألم ، وليس كل من تألم بسبب كان ذلك عقاباً له على ذلك السبب ..

فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « السفر قطعة من العذاب ، يمنع أحدكم طعامه وشرابه » فسمي السفر عذاباً ، وليس هو عقاباً على ذنب

والإنسان يعذب بالأمور المكروهة التي يشعر بها ، مثل الأصوات الهائلة ، والأرواح الخبيثة والصور القبيحة ، فهو يتعذب بسماع هذا وشم هذا ورؤية

---

(١) سورة الزمر آية ٧ .

هذا ، ولم يكن ذلك عملاً له عوقب عليه . فكيف ينكر أن يعذب الميت بالنياحة ، وإن لم تكن النياحة عملاً له يعاقب عليه ، ؟ ٥هـ[1] .

* * *

مسألة : ٢ .

هل ينتفع الميت بالصدقة وغيرها ؟

اتفق المسلمون على أن الميت ينتفع بالصدقة . . وكذلك ينفعه الحج عنه ، والأضحية عنه . . والعتق عنه . . والدعاء له والاستغفار له بلا نزاع . .

وقد وردت بذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث صحيحة . مثل قول سعد : « يا رسول الله ! إن أمي افتلتت نفسها وأراها لو تكلمت تصدقت ، فهل ينفعها أن أتصدق عنها ؟ قال : نعم » .

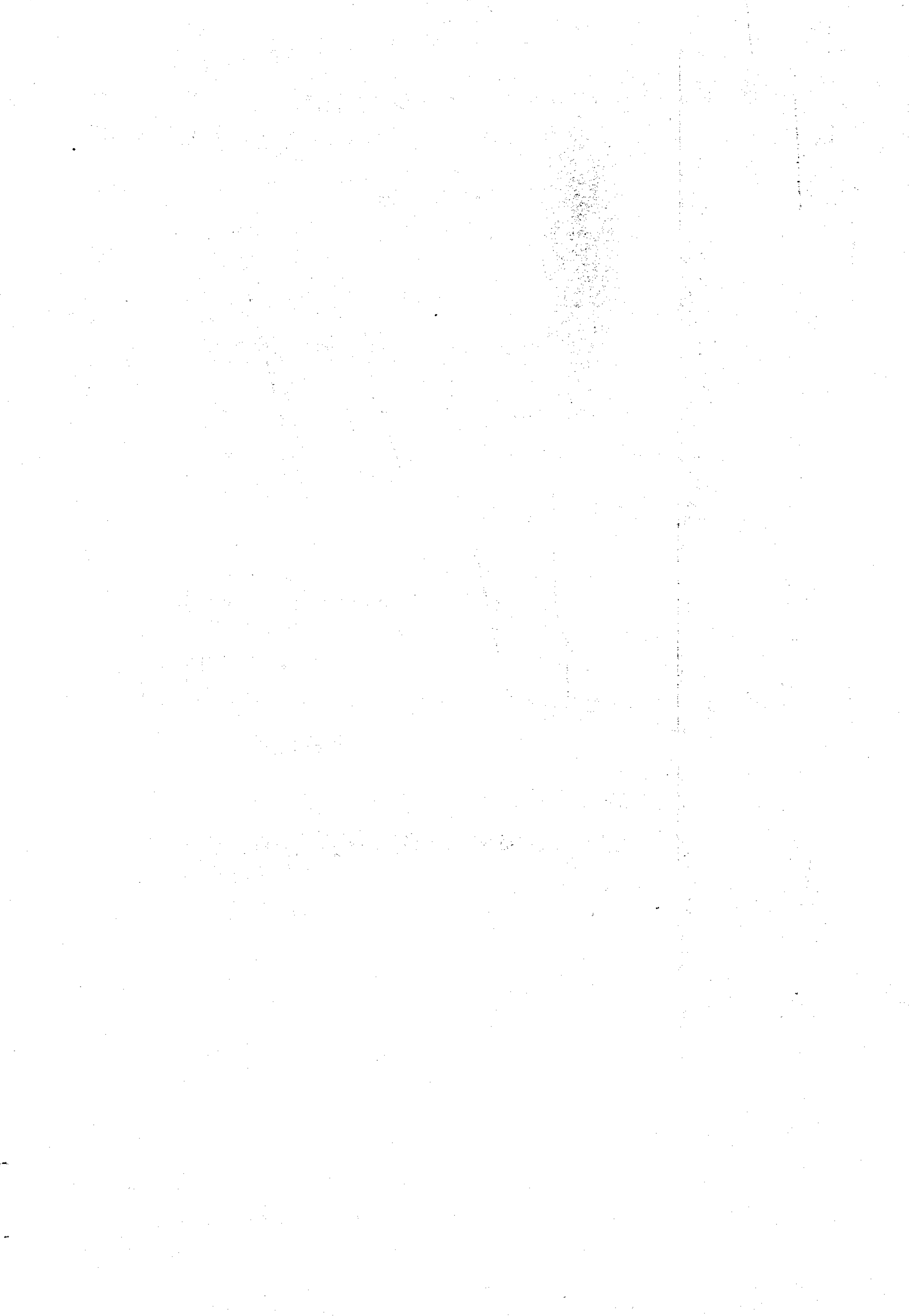
وأما الصيام عنه وصلاة التطوع عنه . . وقراءة القرآن عنه . . فهذا فيه قولان للعلماء : أحدهما : ينتفع به ، وهو مذهب احمد ، وأبي حنيفة ، وغيرهما وبعض أصحاب الشافعي وغيرهم .

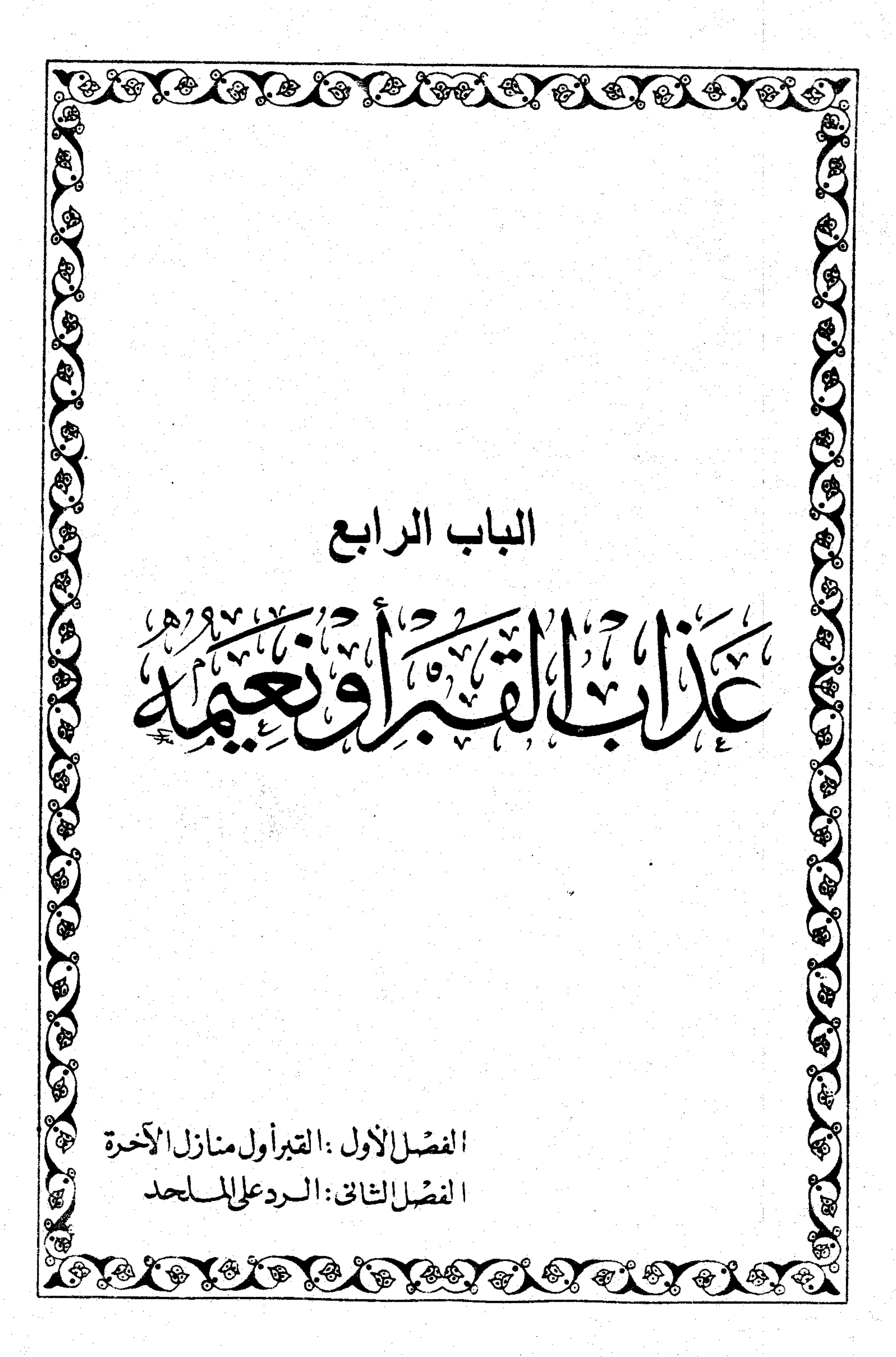
والثاني : لا تصل إليه ، وهو المشهور في مذاهب مالك والشافعي .

وأما الاستئجار لنفس القراءة ، والاهداء ، فلا يصح ذلك .

---

(١) مجموع الفتاوي (٢٤ / ٣٧٤) .





الباب الرابع

عذاب القبر أو نعيمه

الفصل الأول : القبر أول منازل الآخرة

الفصل الثانى : الرد على الملحد



الفصل الأول

القبر أول منازل الآخرة

صدق الشاعر حينما قال :

تَـاللهِ لَـوْ عَـاشَ الـفَتى في عُـمْـرِهِ ... أَلْـفَـاً مِنَ الأعْـوَامِ مَـالِـكَ أَمْـرِهِ
مُـتَـلَذِّذاً فِـيـهَـا بِـكُـلِّ نَـعِـيـمِ ... مُتَنـعِّـماً فِيهَـا بِنُـعْـمَى عَـصْـرِهِ
مَـا كَـانَ ذَلِـكَ كُـلُّه في أَنْ يَـفِـي ... بِـمَـبِـيـتِ أَوَّلِ لَـيْـلَةٍ في قَـبْـرِهِ

نعم حقيقة . أود أن يقرأها كل الناس .. ليعلموا أن وعد الله حق .. أود كما أنهم يفلسفونَ الأشياء .. ويمنطقون الأحداث .. ويسلكون مسالك النهج العلمي في الأمور .. أن يفكروا كذلك في هذا الأمر .. عذاب القبر أو نعيمه .. والرد على منكريه .

لقد أغلقت الحضارات الحديثة أعين الناس عن حقائقهم ومآلهم .. ولكنهم سوف يندمون أشد الندم إذا استمروا في لهوهم ودنياهم .. ونحن نضع أمامهم حقائق الكون وقضايا المستقبل . كما ذكرها الكتاب والسنة .. وتحدث عنها العلماء والفضلاء وأقرها العقل السليم .

هول المطلع :

قال أبو الدرداء رضي الله عنه : أضحكني ثلاث وأبكاني ثلاث . أضحكني مؤمل دنيا والموت يطلبه ، وغافل ليس بمغفول عنه ، وضاحك بملء

فيه لا يدري أأرضى الله أم أسخطه ؟ وأبكاني : فراق الأحبة محمد صلى الله عليه وسلم وحزبه ، وأحزنني هول المطلع عند غمرات الموت ، والوقوف بين يدي الله يوم تبدو السريرة علانية ثم لا يدري إلى الجنة أو النار » .. أخرجه ابن المبارك .

القبر أول منازل الآخرة :

القبر : أي المدفن الذي يدفن فيه الميت ..

واختلفت الناس في أول من سَنّ القبر ؟ فقيل : الغراب لما قتل قابيل هابيل .. وقيل بنو اسرائيل ، وليس بشيء . وقد قيل : كان قابيل يعلم الدفن ولكن ترك أخاه في العراء استخفافاً به ، فبعث الله غراباً يبحث في التراب على هابيل ليدفنه . فقال عند ذلك :

﴿ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾[1] .

حيث رأى اكرام الله لهابيل بأن قيض الله الغراب له حتى واراه ولم يمن ذلك ندم توبة .. وقيل : ندمه إنما كان على فقده . لا على قتله .

قال علماؤنا ـ رحمة الله عليهم ـ يسنم القبر ليعرف كي يحترم ، ويمنع من الارتفاع الكثير الذي كانت الجاهلية تفعله ، فإنها كانت تعلى عليها ، وتبني فوقها تفخيماً لها وتعظيماً .. وأنشدوا ..

أَرَى أَهْلَ الْقُصُورِ إِذَا أُمِيتُوا ... بَنَوْا فَوْقَ الْمَقَابِرِ بِالصُّخُورِ
أَبَوْا إِلَّا مُبَاهَاةً وَفَخْرًا ... عَلَى الْفُقَرَاءِ حَتَّى فِي الْقُبُورِ
لَعَمْرُكَ لَوْ كَشَفْتَ التُّرَابَ عَنْهُمْ ... فَمَا تَدْرِي الْغَنِيَّ مِنَ الْفَقِيرِ
وَلَا الْجِلْدَ الْمُبَاشِرَ ثَوْبَ صُوفٍ ... مِنَ الْجِلْدِ الْمُبَاشِرِ لِلْحَرِيرِ
إِذَا أَكَلَ الثَّرَى هَذَا وَهَذَا ... فَمَا فَضْلُ الْغَنِيِّ عَلَى الْفَقِيرِ؟

---

(١) سورة المائدة آية ٣١ .

يا هذا .. أين الذي جمعته من الأموال، وأعددته للشدائد والأهوال، لقد أصبحت كفك منه عند الموت خالية صفراً وبدلت من بعد غناك وعزك ذلاً وفقراً، فكيف أصبحت يا رهين أوزاره ويا من سلب من أهله ودياره؟ ما كان أخفى عليك سبيل الرشاد، وأقل اهتمامك لحمل الزاد، إلى سفرك البعيد، وموقفك الصعب الشديد، أو ما علمت يا مغرور: أن لا بد من الارتحال، إلى يوم شديد الأهوال، وليس ينفعك ثَمَّ قيل ولا قال: بل يعد عليك بين يدي الملك الديان ما بطشت اليدان، ومشت القدمان، ونطق به اللسان، وعملت الجوارح والأركان، فإن رحمك فإلى الجنان، وإن كانت الأخرى فإلى النيران يا غافلاً عن هذه الأحوال. إلى كم هذه الغفلة والتواني .. أتحسب أن الأمر صغير .. وتزعم أن الخطب يسير؟ وتظن أن سينفعك حالك، إذا آن ارتحالك أو ينقذك مالك، حين توبقك أعمالك؟ أو يغني عنك ندمك، إذا زلت بك قدمك؟ أو يعطف عليك معشرك، حين يضمك محشرك؟ كلا والله ساء ما تتوهم ولا بد لك أن ستعلم. لا بالكفاف تقنع، ولا من الحرام تشبع، ولا للعظات تستمع، ولا بالوعيد ترتدع، دأبك أن تنقلب مع الأهواء، وتخبط خَبْطَ العشواء، يعجبك التكاثر بما لديك، ولا تذكر ما بين يديك، يا نائماً في غفلة وفي خبطة يقظان، إلى كم هذه الغفلة والتوان، أتزعم أن ستترك سدى، وأن لا تحاسب غداً، أم تحسب أن الموت يقبل الرشا، أما تميز بين الأسد والرشا، كلا والله لن يدفع عنك الموتِ مال ولا بنون، ولا ينتفع أهل القبور إلا العمل المبرور، فطوبى لمن سمع ووعى، وحقق ما ادعى، ونهى النفس عن الهوى، وعلم أن الفائز من ارعوى ..

«وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ»[1] ..

فانتبه من هذه الرقدة .. واجعل العمل الصالح لك عدة، ولا تتمن منازل الأبرار، وأنت مقيم على الأوزار عامل بعمل الفجار، بل أكثر من

---

(١) النجم: ٣٩، ٤٠.

الأعمال الصالحات ، وراقب الله في الخلوات ، رب الأرض والسماوات ولا يغرنك الأمل ، فتزهد في العمل[1] . .

كان يزيد الرقاضي يقول في كلامه :

« أيها المقبور في حفرته ، المتخلي في القبر بوحدته ، المستأنس في بطن الأرض بأعماله ، ليت شعري بأي أعمالك استبشرت وبأي أحوالك اغتبطت ؟ ثم يبكي حتى يبل عمامته ، ويقول : استبشر ـ والله ـ بأعماله الصالحة ـ واغتبط ـ والله ـ باخوانه المعاونين له على طاعة الله ، وكان إذا نظر إلى القبر صرخ كما الثور » . .

* * *

ضغطة القبر

عن عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

وهذا الذي تحرك له عرش الرحمن وفتحت له أبواب السماء ، وشهده سبعون ألفاً من الملائكة ، لقد ضم ضمة ثم خرج عنه» قال أبو عبد الرحمن النسائي يعني سعد بن معاذ[2] . :

ومن حديث شعبة بن الصحاح باسناده إلى عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن للقبر ضغطة لو نجا منها أحد لنجا منها سعد بن معاذ » ؟ ٠هـ .

* * *

وقد روى عمر بن شبه في كتاب المدينة ـ على ساكنها السلام ـ في ذكر وفاة فاطمة بنت أسد أم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : بينما هو صلى الله عليه وسلم في أصحابه أتاه آتٍ . فقال : إن أم علي وجعفر وعقيل قد

---

(١) التذكرة (١١٨) .

(٢) أخرجه النسائي .

ماتت . فقال : « قوموا بنا إلى أمي » قال : فقمنا كأن على رؤ وسنا الطير . فلما انتهينا إلى الباب نزع قميصه وقال : « إذا كفنتموها فأشعروه إياها تحت أكفانها » فلما خرجوا بها جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة يحمل ، ومرة يتقدم . ومرة يتأخر حتى انتهينا بها إلى القبر فترحل في اللحد . ثم خرج وقال : « أدخلوها بسم الله وعلى اسم الله » فلما دفنوها قام قائماً وقال : « جزاك الله من أم . وربيبة خيراً . إن شاء الله تعالى . وأن يوسع الله عليها قبرها » وقال : ما عُفي أحد من ضغطة القبر ، إلا فاطمة بنت أسد » قيل يا رسول الله : ولا القاسم ابنك ؟ قال : « ولا ابراهيم » وكان أصغرها » ورواه أبو نعيم الحافظ عن عاصم الأحول عن أنس بمعناه . وليس فيه السؤال بتمعكه إلى آخره .

* * *

سؤال الملكين

اخرج البخاري عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن العبد إذا وضع في قبره ، وتولى عنه أصحابه . أنه ليسمع قرع نعالهم . أتاه ملكان فيقعدان فيقولان له ما كنت تقول في هذا الرجل محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقال له : انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله تعالى به مقعداً من الجنة فيراها جميعاً ، قال : قتادة وذكر أنه يفسح له في قبره أربعون ذراعاً » .

وقال مسلم : سبعون ذراعاً . ويملأ خضراً إلى يوم يبعثون ثم رجع إلى حديث أنس قال : « وأما المنافق والكافر فيقال له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدري كنت أقول ما يقول الناس فيقول : لا دريت ولا تليت . ويضرب بمطارق من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين » . .

قال الترمذي معلقاً : ليس عند مسلم . ثم رجع إلى حديث أنس إلى آخره وإنما هو عند البخاري . فحديثه أكمل . . وقول الملكين « ولا تليت » .

قال النحويون : الأصل في هذه الكلمة : الواو . أي ولا تلوت إلا أنها قلبت ياء ليتبع بها دريت . وقد جاء من حديث البراء : « لا دريت ولا تلوت » على ما رواه الإمام أحمد بن حنبل : أي لم تدر ولم تتل القرآن . فلم تنتفع بدرايتك ولا تلاوتك » . .

وخرّج ابن ماجه عن أبي قبرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الميت يصير إلى القبر فَيُجلس الرجل الصالح في قبره غير فزع ولا مرعوب ، ثم يقال له : فيم كنت ؟ فيقول : كنت في الإسلام ! فيقال : ما هذا الرجل ؟ فيقول : محمد رسول الله ، جاءنا بالبينات من عند الله فصدقناه . فيقال له : هل رأيت الله ؟ فيقول لا ، ما ينبغي لأحد أن يرى الله : فيفرج له فرجة قبل النار فينظر إليها يحطم بعضها بعضاً ، فيقال له : انظر إلى مقعدك وقاك الله ، ثم يفرج له فرجة قِبَلَ الجنة فينظر إلى زهرتها وما فيها ، فيقال له : هذا مقعدك .

ويقال له : على اليقين كنت ، وعليه مت ، وعليه تبعث إن شاء الله تعالى ، ويجلس الرجل السوء في قبره فزعاً مرعوباً فيقال له : فيم كنت ؟ فيقول : لا أدري . فيقال له: ما هذا الرجل ؟ فيقول : سمعت الناس يقولون قولاً فقلته . فيفرج له فرجة قبل الجنة فينظروا إلى زهرتها وما فيها فيقال له : انظر إلى ما صرفه الله عنك ثم يفرج له فرجة قبل النار فينظر اليها يحطم بعضها بعضاً . فيقال : هذا مقعدك على الشك كنت وعليه مت وعليه تبعث إن شاء الله تعالى » .

وخرّج أبو داود عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل نخلا لبني النجار ، فسمع صوتاً ففزع ، فقال : « من أصحاب هذه القبور ؟ » قالوا : يا رسول الله ناس ماتوا في الجاهلية ، فقال « تعوذوا بالله من عذاب القبر . ومن فتنة الدجال » قالوا : « ومم ذاك يا رسول الله ؟ قال : « إن المؤمن إذا وضع في قبره أتاه ملك ، فيقول له : ما كنت تعبد ؟ فإن هداه الله قال : كنت أعبد الله فيقال : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول هو عبد الله

ورسوله . فما يسأل عن شيء غيرها . فينطلق به إلى بيت كان له النار . فيقال له : هذا بيتك كان في النار ، ولكن الله عصمك ورحمك فأبدلك بيتاً في الجنة فيقول دعوني حتى أذهب فأبشر أهلي فيقال له : اسكن » .

وإن الكافر إذا وضع في قبره أتاه ملك فينتهزه ويقول له : ما كنت بعد ؟ فيقول : لا أدري . كنت أقول كما يقول الناس . فيضرب بمطارق من حديد بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها الخلق غير الثقلين » ١٠١هـ .

* * *

حديث البراء المشهور

حديث البراء الجامع لأحوال الموتى عند قبض أرواحهم وفي قبورهم من أشهر الأحاديث . . ويذكره المصنفون في هذا الموضوع . . ومع شهرته ينبغي ذكره في كتاب جامع كهذا .

« قال البراء . خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ، ولما لحد ، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله ، كأنما على رؤوسنا الطير . . قال عمرو بن ثابت . وقع ولم يقله أبو عوانة ، فجعل يرفع بصره وينظر إلى السماء ويخفض بصره وينظر إلى الأرض ، ثم قال : أعوذ بالله من عذاب القبر » قالها مراراً ثم قال : « إن العبد المؤمن إذا كان في اقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا ، جاءه ملك فجلس عند رأسه فيقول : اخرجي أيتها النفس الطيبة إلى مغفرة من الله ورضوان فتخرج نفسه فتسيل كما يسيل قطر السقاء » قال عمرو في حديثه : ولم يقله أبو عوانة : « وإن كنتم ترون غير ذلك ، وتنزل ملائكة من الجنة بيض الوجوه كأن وجههم الشمس ، معهم أكفان من أكفان الجنة ، وحنوط من حنوطها . . فيجلسون منه مد البصر فإذا قبضها الملك لم يدعوها في يده طرفة عين » قال : فذلك قوله تعالى :

﴿ توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾[1] .

---

(١) الأنعام : ٦١ .

قال فتخرج نفسه كأطيب ريح وجدت ، فتعرج به الملائكة فلا يأتون على جند فيما بين السماء والأرض إلا قالوا : ما هذه الروح ؟ فيقال فلان ، بأحسن أسمائه حتى ينتهوا به أبواب سماء الدنيا فيفتح له ، ويشيعه من كل سماء مقربوها حتى ينتهي به إلى السماء السابعة ، فيقال : اكتبوا كتابه في عليين .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيون.كِتَابٌ مَرْقُومٌ.يَشْهَدُهُ المقَرَّبُونَ ﴾[1] .

فيكتب كتابه في عليين ثم يقال : ردوه إلى الأرض فإني وعدتهم أني منها خلقتهم ، وفيها نعيدهم ، ومنها نخرجهم تارة أخرى ، قال : فيرد إلى الأرض ، وتعاد روحه في جسده ، فيأتيه ملكان شديدا الانتهار فينتهرانه ويجلسانه ، فيقولان: من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ فيقول:ربي الله وديني الإسلام ، فيقولان : فما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله . فيقولون : وما يدريك ؟ فيقول : جاءنا بالبينات من ربنا فآمنت به وصدقت قال : وذلك قوله تعالى :

﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ . .

قال : وينادي منادي السماء أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وأروه منزلته منها ، ويفسح له مد بصره . ويمثل عمله له في صورة رجل حسن الوجه طيب الرائحة حسن الثياب فيقول : أبشر بما أعد الله لك أبشر برضوان من الله وجنات فيهم نعيم مقيم فيقول : بشرك الله بخير من أنت ؟ فوجهك الوجه الذي جاء بالخير ! فيقول : هذا يومك الذي كنت توعد ، أو الأمر الذي كنت توعد أنا عملك الصالح فوالله ما علمتك إلا كنت سريعاً في طاعة الله بطيئاً عن معصية الله فجزاك الله خيراً.

فيقول : « يا رب أقم الساعة كي أرجع إلى أهلي ومالي » قال : « فإن كان فاجراً وكان في إقبال من الدنيا وانقطاع من الآخرة جاءه ملك ، فجلس عند رأسه فقال : اخرجي أيتها النفس الخبيثة أبشري بسخط من الله وغضبه

---

(١) المطففين: ١٩ ــ ٢١ .

فتنزل ملائكة سود الوجوه معهم مسوح من نار فإذا قبضها المَلَكُ قاموا فلم يدعوها في يده طرفة عين ، قال : فتفرق في جسده فيستخرجها ، تقطع منها العروق والعصب كالسفود الكثير الشعب في الصوف المبتل ، فتؤخذ من الملك فتخرج كأنتن جيفة وجدت فلا تمر على جند فيما بين السماء والأرض ، إلا قالوا ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون : هذا فلان بأسوأ أسمائه حتى ينتهوا به إلى سماء الدنيا فلا يفتح لهم ، فيقولون : ردوه إلى الأرض إني وعدتهم أني منها خلقتهم وفيها نعيدهم ، ومنها نخرجهم تارة أخرى قال : فيرمى به من السماء . قال : وتلا هذه الآية :

﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾[1] .

قال : « فيعاد إلى الأرض وتعاد فيه روحه ، ويأتيه ملكان شديدا الانتهار فينهرانه ويجلسانه . فيقولان : من ربك ؟ وما دينك ؟ فيقول : لا أدري . فيقولان : فما تقول في هذا الرجل الذي بُعِثَ فيكم ؟ فلا يهتدي لاسمه فيقال : محمد ، فيقول : لا أدري سمعت الناس يقولون ذلك قال : فيقال : لا دريت ، فيضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه ، ويمثل له عمله في صورة رجل قبيح الوجه منتن الريح قبيح الثياب ، فيقول : أبشر بعذاب الله وسخطه فيقول : من أنت فوجهك الذي جاء بالشر ؟ فيقول : أنا عملك الخبيث فوالله ما علمتك إلا كنت بطيئاً عن طاعة الله سريعاً إلى معصية الله » .

قال عمرو في حديثه عن المنهال بن زاوان عن البراء عن النبي صلى الله عليه وسلم :

« فيقيض له أصم أبكم بيده مرزبة لو ضرب بها جبل صار تراباً » أو قال : « رمياً فيضربه به ضربة تسمعها الخلائق إلا الثقلين ، ثم تعاد فيه الروح فيضرب ضربة أخرى »[2] ؟ ٠هـ . لفظ أبي داود .

---

(١) الحج : ٣١ .

(٢) أخرجه أبو داود وهذا لفظه . . كذا أخرجه الإمام أحمد في مسنده . . وهو حديث صحيح له طرق كثيرة .

وخرجه علي بن معبد الجهني من عدة طرق بمعناه : وزاد فيه :

« ثم يقيض له أعمى أصم معه مرزبة من حديد فيضرب بها ضربة فيدق بها من ذوائبه إلى خصره ، ثم يعاد فيضربه فيدق بها من ذوائبه إلى خصره » وزاد في بعض طرقه عند قوله مرزبة من حديد : « لو اجتمع عليها الثقلان لم ينقلوها . فيضرب بها ضربة فيصير تراباً ثم تعاد فيه الروح ، ويضرب بها ضربة يسمعها من على الأرض غير الثقلين ، ثم يقال : افرشوا له لوحين من نار وافتحوا له باباً إلى النار ، فيفرش له لوحان من نار ويفتح له باب إلى النار » وزاد فيه عند قوله : وانقطاع من الدنيا ، « نزلت به ملائكة غلاظ شداد معهم حنوط من نار وسرابيل من قطران يحتوشونه فتنتزع نفسه كما ينتزع السفود الكثير من الصوف المبتل يقطع معه عروقها ، فإذا خرجت نفسه لعنه كل مَلَكٍ في السماء وكل مَلَكٍ في الأرض » .

* * *

وخرج أبو عبد الله الحسين بن الحسين بن حرب ، صاحب ابن المبارك في رقائقه بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه كان يقول :

« إذا قتل العبد في سبيل الله كان أول قطرة تقطر من دمه إلى الأرض كفارة للخطايا ثم يرسل الله عز وجل بريطة من الجنة فيقبض فيها روحه . وصورة من صور الجنة فيركب فيها روحه ثم يعرج مع الملائكة كأنه كان معهم والملائكة على أرجاء السماء يقولون : قد جاءت روح من الأرض طيبة ، ونسمة طيبة ، فلا تمر بباب إلا فتح لها ، ولا ملك إلا صلى عليها ودعا لها : ويشيعها حتى يؤتى بها الرحمن . فيقولون : يا ربنا هذا عبدك توفيته في سبيلك فيسجد قَبْل الملائكة ، ثم تسجد الملائكة بعد ثُمَّ يُطهَّرُ ويغفر له ، ثم يؤمر فيذهب به إلى الشهداء ، فيجدهم في قباب من حرير في رياض خضر عندهم حوت وثور يظل الحوت يسبح في أنهار الجنة يأكل من كل رائحة في أنهار الجنة .

فإذا أمسى وكزه الثور بقرنه فيذكيه فيأكلون لحمه فيجدون في لحمه طعم كل رائحة ويبيت الثور في أفناء الجنة ، فإذا أصبح غدا عليه الحوت فوكزه بِذَنَبِه

فيذكيه فيأكلون فيجدون في لحمه طعم كل رائحة في الجنة ثم يعودون وينظرون إلى منازلهم من الجنة ، ويدعون الله عز وجل أن تقوم الساعة ، فإذا توفي العبد المؤمن بعث الله عز وجل اليه ملكين وأرسل اليه بِخرْقة من الجنة ، فقال : أخرجي أيتها النفس المطمئنة ، أخرجي إلى روح وريحان ، فتخرج كأطيب رائحة وجدها أحد بأنفه قط ، والملائكة على أرجاء السماء يقولون : قد جاء من قبل الأرض روح طيبة ، ونسمة طيبة فلا تمر بباب إلا فتح لها ولا بملك إلا دعا لها ، وصلى عليها ، حتى يؤتى بها الرحمن فتسجد الملائكة ثم يقولون : هذا عبدك فلان قد توفيته ، وكان يعبدك لا يشرك بك شيئاً ، فيقول مُرُوه فلْيسجد فتسجد النسمة ، ثم يُدْعى ميكائيل فيقول : اذهب بهذه واجعلها مع أنفس المؤمنين حتى أسألك عنها يوم القيامة ثم يؤمر فوسع عليه قبره سبعين ذراعاً عرضه وسبعين ذراعاً طوله ، وينبذ له فيه الرياحين ويستر بالحرير ، فإن كان معه شيء من القرآن كفاه نوره .

وإن لم يكن معه جعِل له في قبره نور مثل نور الشمس . ويكون مثله كمثل العروس ينام فلا يوقظه إلا أحب أهله اليه ، قال : فيقوم من نومه كأنه لم يشبع من نومته ، وإذا توفي العبد الفاجر أرسل الله إليه ملكين وأرسل بقطعة من نجاد أنتنَ من كل نتنٍ وأخشنَ من كل خشنٍ ، فقالا : اخرجي أيتها النفس الخبيثة ، اخرجي إلى حِميم وعذاب ، وربك عليك غضبان اخرجي وساء ما قدمت لنفسك ، فتخرج كأنتن رائحة وجدها بأنفه قط ، وعلى أرجاء السماء ملائكة يقولون : قد جاءت منَ الأرض روح خبيثة ، ونسمة خبيثة فتغلق دونها أبواب السماء ، ولا تصعد البخت فتأكل لحمه حتى لا تذر على عظمه لحماً . ويرسل عليه ملائكة صم عمي يضربونه بفطاطيس من حديد لا يسمعون صوته فيرحموه ، ولا يبصرونه فيرحموه ، ولا يخطئون حين يضربونه ، ويعرض عليه مقعده من النار بكرة وعشياً يدعو بأن يدوم ولا يخلص إلى النار » ؟ ٠هـ .

* * *

عذاب القبر هو عذاب البرزخ

قال تعالى :

﴿ وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[1] . .

فالبرزخ هو ما بين الدنيا والآخرة . . وعذاب القبر ونعيمه اسم لعذاب البرزخ .

وهذا البرزخ يشرف أهله فيه على الدنيا والآخرة ، وسمي عذاب القبر ونعيمه ، وأنه روضة أو حفرة نار ، باعتبار غالب الحق فالمصلوب والحرِقُ والغرِقُ وأكيل السباع والطيور له من عذاب البرزخ ونعيمه قسطه الذي تقتضيه أعماله وان تنوعت أسباب النعيم والعذاب وكيفياتها ، فقد ظن بعض الأوائل أنه إذا حُرِّق جسده بالنار وصار رماداً ، وذُرِّى بعضه في البحر وبعضه في البر في يوم شديد الريح أنه ينجو من ذلك ، فأوصى بنيه أن يفعلوا به ذلك ، فأمر الله البحر فجمع ما فيه ، وأمر البر فجمع ما فيه ، ثم قال : قُمْ فإذا هو قائم بين يدي الله ، فسأله: ما حملك على ما فعلت ؟ فقال : خشيتك يا رب وأنت أعلم ، فما تلاقاه أن رحمه . .

فلم يفت عذاب البرزخ ونعيمه لهذه الأجزاء التي صارت في هذا الحال حتى لو علّق الميت على رؤوس الأشجار في مهاب الرياح لأصاب جسده من عذاب البرزخ حظه ونصيبه ، ولو دفن الرجل الصالح في أتون من النار لأصاب جسده من نعيم البرزخ وروحه نصيبه وحظه ، فيجعل الله النار على هذا برداً وسلاماً ، والهواء على ذلك ناراً وسموماً ، فعناصر العالم وموارده منقادة لربها وفاطرها وخالقها يُصرفها كيف يشاء ولا يستعصي عليه منها شيء أراده ، بل هي طلوع مشيئة مذللة منقادة لقدرته ؟ ومن أنكر هذا فقد جحد رب العالمين ، وكفر به وأنكر ربوبيته[2] .

* * *

(١) المؤمنون : ١٠٠ .

(٢) الروح (١٠٣) .

عذاب القبر حق :

قال تعالى :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً ﴾[1] .

قال أبو سعيد الخدري وعبد الله بن مسعود : قال : عذاب القبر ، وقيل في قوله عز وجل . .

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ ﴾[2] . .

هو : عذاب القبر .

ـ وروى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أتدرون فيمن نزلت هذه الآية ؟ :

﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ . .

أتدرون ما المعيشة الضنك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « عذاب الكافر في القبر ، والذي نفسي بيده أنه ليسلط عليه تسعة وتسعون تنيناً . . أتدرون ما التنين ؟ تسعة وتسعون حية لكل حية تسعة أرؤس ينفخن في جسمه ويلسعنه ويخدشنه إلى يوم القيامة ويحشر من قبره إلى موقفه أعمى » . .

وذكر أبو بكر بن أبي شيبة عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يسلط على الكافر في قبره تسعة وتسعون تنيناً تنهشه وتلدغه حتى تقوم الساعة ، ولو أن واحداً منها نفخ في الأرض ما أنبتت خضراً » .

وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص موقوفاً : « ثم يؤمر به بعني الكافر فيضيق عليه قبره ويرسل عليه حيات كأمثال أعناق البخت فتأكل لحمه

---

(1) طه : ١٢٤ .

(2) الطور : ٤٧ .

حتى لا تذر على عظمه لحماً وتُرسلُ عليه ملائكة صم عمي يضربونه بفطاطيس » الحديث . .

قال القرطبي معلقاً : « لا تظن ـ رحمك الله ـ أن هذا معارض للحديث المرفوع « أنه يسلط على الكافر أعمى أصم » فإن أحوال الكفار تختلف فمنهم من يتولى عقوبته واحد . ومنهم من يتولى عقوبته جماعة .

وكذلك فلا تناقض بين هذا وبين أكل الحيات لحمه ، فإنه يمكن أن يتردد بين هذين العذابين كما قال تعالى :

﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ التِي يُكَذِّبُ بِهَا المجْرِمُونَ. يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾[1] . .

فمرة يُطْعمون الزقوم ، وأخرى يُسْقَوْن الحميم ، ومرة يعرضون على النار ، وأخرى على الزمهرير . أجارنا الله من عذاب القبر ، ومن عذاب النار برحمته وكرامته . وآخر يفرش له لوحان من نار . وآخر يقال له : نَمْ نومة المنهوس . كما أخرجه علي بن معبد بن أبي حازم عن أبي هريرة موقوفاً قال : « إذا وضع الميت في قبره أتاه آتٍ من ربه فيقول له : من ربك ؟ فإن كان من أهل التثبيت . قال : الله ربي . ثم يقال له: ما دينك ؟ فيقول: الاسلام فيقول : من نبيك ؟ فيقول: محمد صلى الله عليه وسلم فيرى بشراه ويبشر . . فيقول : دعوني أرجع إلى أهلي فأبشرهم فيقال له : نَمْ قرير العين إن لك اخواناً لم يلحقوا . وإن كان من غير أهل الحق والتثبيت قيل له : من ربك ؟ فيقول : هاه ، قالوا له ، ثم يضرب بمطراق يسمع صوتها الخلق إلا الجن والانس . . ويقال له : نم كنومة المنهوس ؟ .

قال أهل اللغة : المنهوس بالسين المهملة : الملسوع نهسته الحية تنهسه . . قال الراجز :

---

(١) الرحمن : ٤٣ ، ٤٤ .

وَذَاتُ قَرْنَيْنِ طمون الفرس تَنْهَسُ لَوْ تَمَكَّنَتْ مِنْ نَهْسِ
تُدِيرُ عَيْناً كَشِهَابِ القبس

والمنهوس مرة ينتبه لشدة الألم عليه . ومرة ينام كالمغمى عليه . .

* * *

عذاب الكافر في قبره

ذكر الواثلي الحافظ في كتاب الابانة له ، من حديث مالك بن مغول عن نافع عن ابن عمر . قال : بينا أنا أسير بجنبات بدر إذ خرج رجل من الأرض في عنقه سلسلة يمسك طرفها أسود . فقال:يا عبد اسقني فقال ابن عمر : لا أدري أعرف اسمي أو كما يقول الرجل : يا عبد الله ؟ فقال لي الأسود : لا تسقه فإنه كافر . اجتذبه فدخل به الأرض قال ابن عمر : فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال : « أو قد رأيته ؟ ذاك عدو الله أبو جهل وهو عذابه إلى يوم القيامة .

* * *

عذاب العاصين في القبور

١ ـ تأخير الصلاة عن وقتها :

عن عمرو بن دينار قال : كان رجل من أهل المدينة وكانت له أخت في ناحية المدينة فاشتكت ، وكان يأتيها يعودها ، ثم ماتت ، فدفنها ، فلما رجع ذكر أنه نسي شيئاً في القبر كان معه ، فاستعان برجل من أصحابه قال :

فنبشنا القبر ووجدت ذلك المتاع ، فقال للرجل . تَنح حتى أنظر على أي حال أختي فرفع بعض ما على اللحد فإذا القبر مشتعل ناراً فرده ، وسوى القبر ، فرجع إلى أمه فقال : ما كان حال أختي ؟ فقالت : ما تسأل عنها وقد هلكت ؟ فقال : لتخبريني ، قالت:كانت تؤخر الصلاة ، ولا تصلي فيها أظن

بوضوء ، وتأتي أبواب الجيران فتلقم اذنها أبوابهم ، وتخرج تحدثهم .

• • •

عذاب المشي تبختراً

عن حصين الأسدي قال : سمعت مرثد بن حوشب ، قال : كنت جالساً عند يوسف : حدث مرثداً بما رأيت ، فقال : كنت شاباً قد أتيت هذه الفواحش ، فلما وقع الطاعون . قلت : أخرج إلى ثغر من هذه الثغور ، ثم رايت أن أحفر القبور ، فإذا بي ليلة بين المغرب والعشاء قد حفرت وأنا متكىء على تراب قبر آخر إذ جيء بجنازة رجل حتى دفن في ذلك ، وسووا عليه ، فاقبل طائران أبيضان من المغرب مثل البعيرين حتى سقط أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه ، ثم أثاراه ، ثم تدلى أحدهما في القبر والآخر على شفيره فجئت حتى جلست على شفير القبر ـ وكنت رجلا لا يملأ جوفي شيء ـ قال : فسمعته يقول : ألست الزائر أصهارك في ثوبين ممصرين[1] .تسحبهما كبزاً تمشي الخيلاء ؟ فقال : أنا أضعف من ذلك ، قال:فضربه ضربات ، كل ذلك يقول ذلك ويذكر أن القبر يفيض دماء ودهنا ، قال : ثم رفع رأسه فنظر إلي فقال : انظر أين هو جالس ابلسه الله ، قال : ثم ضرب جانب وجهي فسقطت ، فمكثت ليلتي حتى أصبحت ، قال : ثم أخذت أنظر إلى القبر فإذا هو على حاله .

فهذا الحال والدهن في رأي العين لهذا الرائي هو نار تأجج للميت كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن الدجال أنه يأتي معه بماء ونار ، فالنار ماء بارد والماء نار تأجج.

عذاب المغتابين والنمامين :

ـ عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى على قبرين

---

(١) ثوب ممصر مصبوغ بحمرة خفيفة . وقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن لبس هذا النوع من الثياب لأنها ثياب الخيلاء في الجاهلية .

فقال : « أنهما ليعذبان في غير كبير . . اما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس . . وأما الآخر فكان صاحب نميمة ، ثم دعا بجريدة فشقها نصفين فوضع نصفها على هذا القبر ونصفها على هذا القبر وقال : عسى أن يخفف عنهما ما دامت رطبتين »[1] .

* * *

وقد اختلف الناس في هذين هل كانا كافرين أو مؤمنين ؟ كانا كافرين وقوله : « وما يعذبان في كبير بالاضافة إلى الكفر والشرك قالوا : ويدل عليه أن العذاب هل يرتفع عنهما وانما خفف ، وأيضاً فإنه خفف مدة رطوبة الجريدة فقط ، وأيضاً فإنهما لو كانا مؤمنين لشفع فيهما ودعا لهما النبي صلى الله عليه وسلم فرفع عنهما بشفاعته ، وأيضاً ففي بعض طرق الحديث : « أنهما كانا كافرين » وهذا التعذيب زيادة على تعذيبهما بكفرهما وخطاياهما وهو دليل على أن الكافر يعذب بكفره وذنوبه جميعاً . .

وقيل : كانا مسلمين لنفيه صلى الله عليه وسلم التعذيب بسبب غير السببين المذكورين ولقوله : « وما يعذبان في كبير والكفر والشرك أكبر الكبائر على الاطلاق ولا يلزم أن يشفع النبي صلى الله عليه وسلم بكل مسلم يعذب في قبره على جريمة من الجرائم ؛ فقد أخبر عن صاحب الشملة الذي قتل في الجهاد أن الشملة تشتعل عليه ناراً في قبره وكان مسلماً مجاهداً ، ولا يعلم ثبوت هذه اللفظة وهي قوله كانا كافرين ، ولعلها لو صحت فهي من قول بعض الرواة . والله أعلم .

* * *

البهائم تسمع عذاب القبر

ـ عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخلت على عجوزين من عجائز يهود المدينة فقالتا : أن أهل القبور يعذبون في قبورهم . قالت : فكذبتهما ولم أنعم

---

(١) رواه أبو داود الطيالسي .

أن أصدقهما . فخرجتا ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقلت : يا رسول الله إن عجوزين من عجائز يهود المدينة قالتا : إن أهل القبور يعذبون في قبورهم . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « صدقتا إنهم يعذبون عذاباً تسمعه البهائم » قالت : فما رأيته بعد في صلاة إلا يتعوذ من عذاب القبر »[1] .

قال الترمذي : قال علماؤنا : « وانما حادت به البغلة لما سمعت من صوت المعذبين وانما لم يسمعه من يعقل من الجن والانس لقوله عليه الصلاة والسلام « لولا أن لا تدافنوا » الحديث . . فكتمه الله سبحانه عنا حتى نتدافن بحكمته الالهية ولطائفه الربانية لغلبة الخوف عند سماعه فلا نقدر على القرب من القبر للدفن أو يهلك الحي عند سماعه . إذ لا يطاق سماع شيء من عذاب الله في هذه الدار . لضعف هذه القوى ، ألا ترى أنه إذا سمع الناس صعقة الرعد القاصف ، أو الزلازل الهائلة هلك كثير من الناس ، وأين صعقة الرعد من صيحة الذي تضربه الملائكة بمطارق من الحديد التي يسمعها كل من يليه ؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم في الجنازة : « ولو سمعها انسان لصعق » . .

ثم قال : هذا وهوى رؤوس الرجال من غير ضرب ولا هوان . فكيف إذا حل به الخزي والنكال واشتد عليه العذاب والوبال ؟ فنسأل الله معافاته ومغفرته وعفوه ورحمته عنه » أ . هـ[2] .

* * *

---

(١) أخرجه مسلم : وهو عند البخاري أيضا وقال (وتسمعه البهائم كلها) .
(٢) التذكرة (١٨٠) .

الفصل الثانى

الرّد على الملحدة

يقول الملاحدة : أنه لو انكشف القبر فلن تجد فيه ملائكة عميا صماً يضربون الموتى بمطارق من حديد ، ولا نجد هناك حيات ولا ثعابين ولا نيراناً تأجج ! !

ولمناقشة قولهم نذكر أموراً يُعْلَمُ بها الجوابُ :

الأول :

أن يعلم أن الرسول صلوات الله وسلامه عليهم لم يخبروا بما تُحيله العقول وتقطع باستحالته بل أخبارهم قسمان :

أحدهما : ما تشهد به العقول والفطر .

الثاني : ما لا تدركه العقول بمجردها كالغيوب التي أخبروا بها عن تفاصيل البرزخ واليوم الآخر ، وتفاصيل الثواب والعقاب ، ولا يكون خبرهم محالا في العقول أصلا ، وكل خبر يظن أن العقل يحيله فلا يخلو من أحدْ أمرين ، اما يكون الخبر كذباً عليهم ، أو يكون ذلك العقل فاسداً وهو شبهة خيالية يظن صاحبها أنها معقول صريح . . قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ، وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنكِرُ بَعْضَهُ ﴾[1] .

---

(١) الرعد : ٣٦ .

والنفوس لا تفرح بالمحال .

* * *

الثاني :

أن يفهم عن الرسول صلى الله عليه وسلم مراده ، من غير غلو ولا تقصير ، فلا يحمل كلامه مالا يحتمله ولا يقصر به عن مراده وما قصده من الهدى والبيان .

وقد حصل باهمال ذلك والعدول عنه من الضلال والعدول عن الصواب ما لا يعلمه الا الله ، بل سوء الفهم في بعض الأشياء من المتبوع مع حسن قصده وسوء القصد من التابع ، فيما فيه محنة الدين وأهله ! والله المستعان[1] .

وما أوصل القدرية إلى ما وصلوا اليه الا سوء الفهم عن الله ورسوله حتى صار الذي بأيدي أكثر الناس هو موجب هذه الافهام .

الثالث :

إن الله سبحانه جعل ثلاثاً : دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار ، وجعل لكم داراً وأحكاماً تختص بها ، وركّب هذا الانسان من بدن ونفس ، وجعل أحكام دار الدنيا على الأبدان ، والأرواح تبعا لها ، ولهذا جعل أحكامه الشرعية مرتبة على ما يظهر من حركات اللسان والجوارح وإن أضمرت النفوس خلافه ، وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبعاً لها ، فكما تبعت الأرواح الأبدان في أحكام الدنيا فتألمت بألمها والتذت براحتها وكانت هي التي باشرت أسباب النعيم والعذاب تبعت الأبدان والأرواح في نعيمها وعذابها ، والأرواح حينئذ هي التي تباشر العذاب والنعيم ، فالأبدان هنا ظاهرة والأرواح خفية ، والأبدان كالقبور لها ، والأرواح هناك ظاهرة والأبدان خفية في قبورها ، تجري أحكام البرزخ على الأرواح فتسري إلى أبدانها نعيماً أو عذاباً كما تجري

(١) الروح (٨٧) .

أحكام الدنيا على الأبدان فتسري إلى أرواحها نعيما أو عذابا ، فاحظ بهذا الموضع علما واعرفه كما ينبغي يَزُلْ منك كل إشكال يورد عليك من داخل وخارج .

وقد أرانا الله سبحانه بلطفه ورحمته وهدايته من ذلك أنموذجاً في الدنيا حال النائم ، فإن لم ينعم به أو يعذب في نومه يجري على روحه أصلا والبدن تبع له ، وقد يقوى حتى يؤثر في البدن تأثيراً مشاهداً فيرى النائم أنه ضرب فيصبح وأثر الضرب في جسمه ، ويرى أنه قد أكل أو شرب فيستيقظ وهو يجد أثر الطعام والشراب في فِيهِ ويذهب عنه الجوع والظمأ .

وأعجب من ذلك أنك ترى النائم يقوم في نومه ويضرب ويبطش ويدافع كأنه يقظان ، وهو نائم لا شعور له بشيء من ذلك ، وذلك أن الحكم لما جرى على الروح استعانت بالبدن من خارجه ولو دخلت فيه لاستيقظ وأحس ، فإذا كانت الروح تتألم وتتنعم ويصل ذلك إلى بدنها بطريق الاستتباع ، فهكذا في البرزخ بل أعظم فإن تجرد الروح هنالك أكمل وأقوى وهي معلقة ببدنها لم تنقطع عنه كل الانقطاع ، فإذا كان يوم حشر الأجساد وقيام الناس من قبورهم صار الحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد ظاهراً أبدياً أصلا .

وقد أعطيت هذا الموضع حقه ليتبين لك أن ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم من عذاب القبر ونعيمه وسعته وَضَمّهِ وكونه حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة مطابقة للعقلِ ، وأنه حق لا مِرْية فيه ، وإن من أشكل عليه ذلك فمن سوء فهمه وقلة علمه أُتي كما قيلَ .

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلاً صَحِيحَاً ... وَآفَتُهُ مِنَ الفَهْمِ السَّقِيمِ

وأعجب من ذلك أنك تجد النائمين في فراش واحد ، وهذا روحه في النعيم ويستيقظ وأثر النعيم على بدنه ، وهذا روحه في العذاب ويستيقظ وأثر العذاب على بدنه ، وليس عند أحدهما خبر بما عند الآخر ، فأمر البرزخ أعجب من ذلك .

الرابع :

أنه غير ممتنع أن ترد الروح إلى المصلوب ، والغريق والمحرق ، ونحن لا نشعر بها ؛ لأن ذلك الرد نوع آخر غير المعهود ، فهذا المعنى عليه . والمسكون : والمبهوت ، أحياء وأرواحهم معهم ، ولا نشعر بحياتهم ، ومن تفرقت أجزاؤه لا يمتنع على من هو على كل شيء قدير أن يجعل للروح اتصالا بتلك الأجزاء على تباعد ما بينها وقربه ويكون في تلك الأجزاء شعور بنوع من الألم واللذة ، وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد جعل في الجمادات شعوراً وادراكاً تسبح ربها به ، وتسقط الحجارة من خشيته ، وتسجد له الجبال والشجر ، وتسبحه الحصى والمياه والنباتات . .

قال تعالى :

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[1] .

فإن كل عاقل يفقه دلالتها على صانعها . . وقال تعالى :

﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾[2] .

والدلالة على الصانع لا تختص بهذين الوقتين : وكذلك قوله تعالى :

﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ ﴾[3] .

والدلالة لا تختص بعينه وحده ، وكذب على الله من قال : التأويب رجع الصدى ، فإن هذا يكون لكل مصدق ، وقال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ ، وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ﴾[4] .

والدلالة على الصانع لا تختص بكثير من الناس ، وقد قال تعالى :

---

(١) الاسراء : ٤٤ .
(٢) ص : ١٨ .
(٣) سبأ : ١٠ .
(٤) الحج : ١٨ .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ، كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾[1] ..

فهذه صلاة وتسبيح حقيقة يعلمها الله وإن جحدها الجاهلون المكذبون..
وقد أخبر تعالى عن الحجارة أن بعضها يزول عن مكانه ويسقط من خشيته ، وقد أخبر عن الأرض والسماء أنهما يأذنان له وقولهما ذلك أي يستمعان كلامه ، وأنه خاطبهما فسمعا خطابه وأحسنا جوابه فقال لهما :

﴿ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾[2] ..

وقد كان الصحابة يسمعون تسبيح الطعام وهو يؤكل ، وسمعوا حنين الجذع اليابس في المسجد ، فإذا كانت هذه الأجسام فيها الاحساس والشعور فالأجسام التي كانت فيها الروح والحياة أولى بذلك ، وقد أشهد الله سبحانه عباده في هذه الدار اعادة حياة كاملة إلى بدن قد فارقته الروح فتكلم ومشى وأكل وشرب وتزوج وولد له :

﴿ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾[3] ..

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ : أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ؟ فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ، قَالَ : كَمْ لَبِثْتَ ؟ قَالَ : لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾[4] ..

وكقتيل بني اسرائيل أو كالذين قالوا لموسى :

﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً ﴾[5] ..

فأماتهم الله ثم بعثهم من بعد موتهم ..

---

(١) النور : ٤١ .
(٢) فصلت : ١١ .
(٣) البقرة : ٢٤٣ .
(٤) البقرة : ٢٥٩ .
(٥) البقرة : ٥٥ .

وكأصحاب الكهف ، وقصة ابراهيم في الطيور الأربعة ، فإذا أعاد الحياة التامة إلى هذه الأجساد بعد ما بردت بالموت ، فكيف يمتنع على قدرته الباهرة أن يعيد اليها بعد موتها حياة ما غير مستقرة يقضي بها أمره فيها ويستنطقها بها ويعذبها أو ينعمها بأعمالها ؟ ! وهل انكار ذلك الا مجرد تكذيب وعناد وجحود ؟ وبالله التوفيق . .

الخامس :

الموت معاد وبعث أول ، فإن الله سبحانه وتعالى جعل لابن آدم معادين وبعثين يجزي فيهما الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى . فالبعث الأول مفارقة الروح للبدن ومصيرها إلى دار الجزاء الأول .

والبعث الثاني يوم يرد الله الأرواح إلىأجسادها ويبعثها من قبورها إلى الجنة أو النار ، وهو الحشر الثاني .

ولهذا في الحديث الصحيح « وتؤمن بالبعث الآخر »[1] فإن البعث الأول لا ينكره أحد وإن أنكر كثير من الناس الجزاء فيه والنعيم والعذاب، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هاتين القيامتين وهما الصغرى والكبرى في سورة المؤمنين ، وسورة الواقعة ، وسورة القيامة ، وسورة المطففين ، وسورة الفجر ، وغيرها من السور ، وقد اقتضى عدله وحكمته أن جعلها داري جزاء المحسن والمسيء ، ولكن توفية الجزاء إنما يكون يوم المعاد الثاني في دار القرار كما قال تعالى :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإنما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾[2] . .

وقد اقتضى عدله وأوجبت أسماؤه الحسنى وكماله المقدس تنعيم أبدان أوليائه وأرواحهم ، وتعذيب أبدان أعدائه وأرواحهم ، فلا بد أن يذيق بدن المطيع له وروحه من النعيم واللذة ما يليق به ، ويذيق بدن الفاجر العاصي له وروحه من الألم والعقوبة ما يستحقه . هذا موجب عدله وحكمته وكماله

---

(١) انظر البخاري في الايمان : وابن ماجه في المقدمة : ومالك في الموطأ ـ باب العتق ـ
(٢) آل عمران : ١٨٥ .

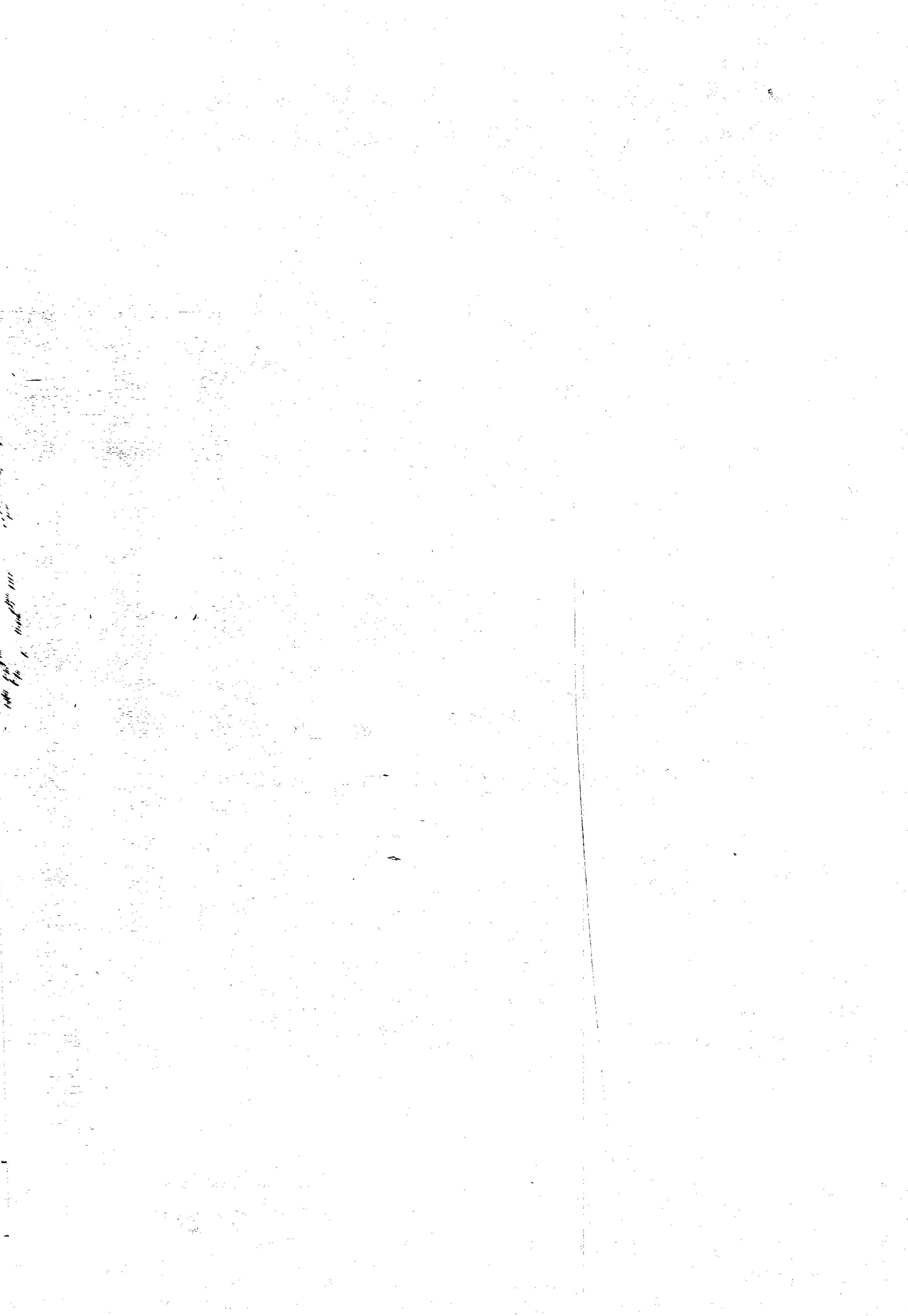
المقدس ، ولما كانت هذه الدار دار تكليف وامتحان لا دار جزاء لم يظهر فيها ذلك ، وأما البرزخ فأول دار الجزاء ، فظهر فيها من ذلك ما يليق بتلك الدار وتقتضي الحكمة اظهاره ، فإذا كان يوم القيامة الكبرى وفي أهل الطاعة وأهل المعصية ما يستحقونه من نعيم الأبدان والأرواح وعذابها ، فعذاب البرزخ ونعيمه أول عذاب الآخرة ونعيمها وهو مشتق منه ، وواصل إلى أهل البرزخ هناك كما دل عليه القرآن والسنة الصحيحة الصريحة في غير موضع دلالة صريحة كقوله صلى الله عليه وسلم :

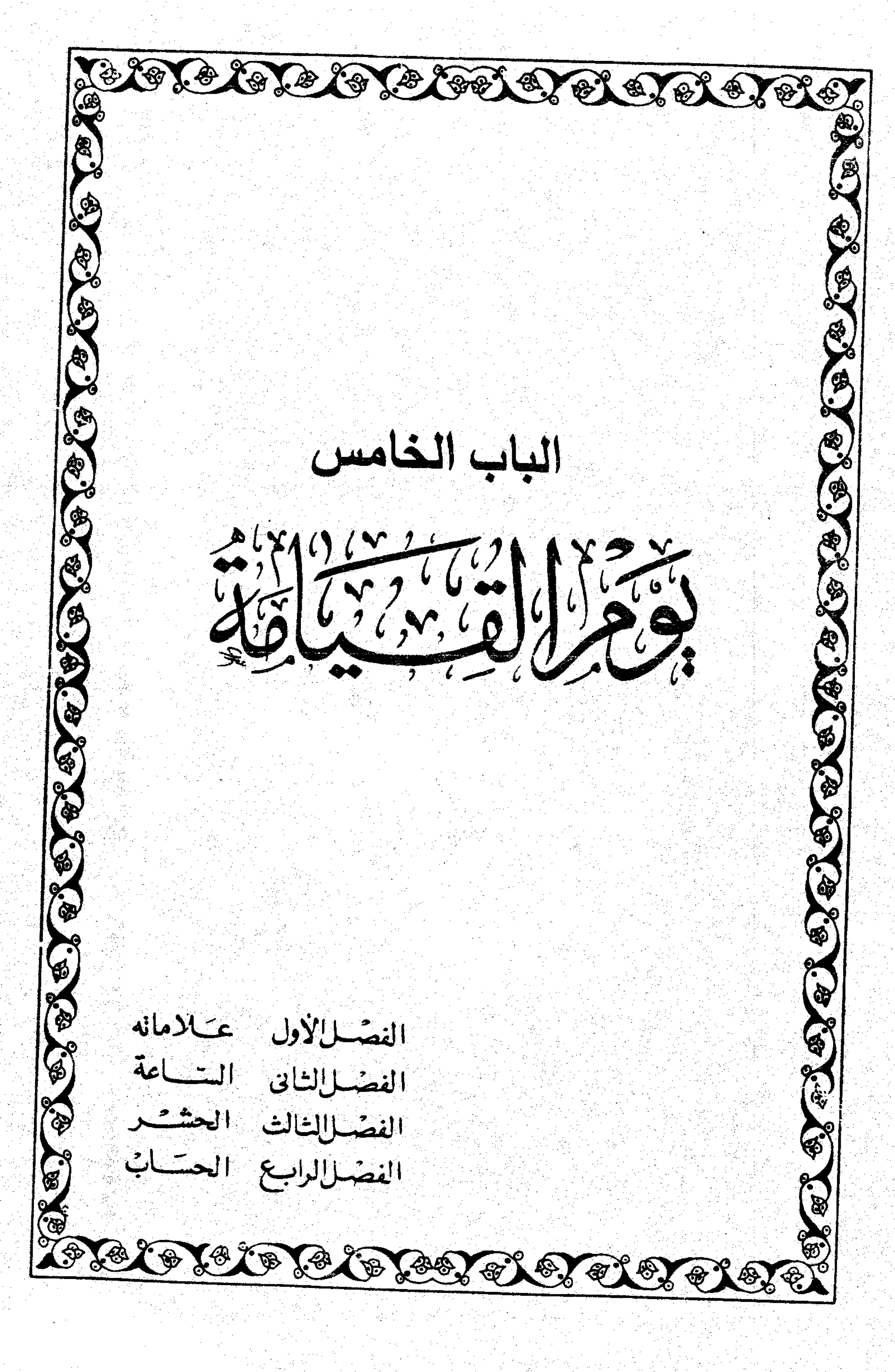
« فيفتح له باب من الجنة فيأتيه من روحها ونعيمها » وفي الفاجر « فيفتح له باب إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها » ومعلوم قطعاً أن البدن يأخذ حظه من هذا الباب كما تأخذ الروح حظها ، فإذا كان يوم القيامة دخل من ذلك الباب إلى مقعده الذي هو داخله ، وهذان البابان يصل منهما إلى العبد في هذه الدار أثر خفي محجوب بالشواغل والفواحش الحسية والعوارض ولكن يحس به كثير من الناس وإن لم يعرف سببه ، ولا يحسن التعبير عنه ، فوجود الشيء غير الاحساس ، والتعبير عنه ، فإذا مات كان وصول ذلك الأثر اليه من ذينك البابين أكمل ، فإذا بعث كمل وصول ذلك الأثر اليه . .

فحكمة الرب تعالى منتظمة لذلك أكمل انتظام في الدور الثلاث[1] . .

* * *

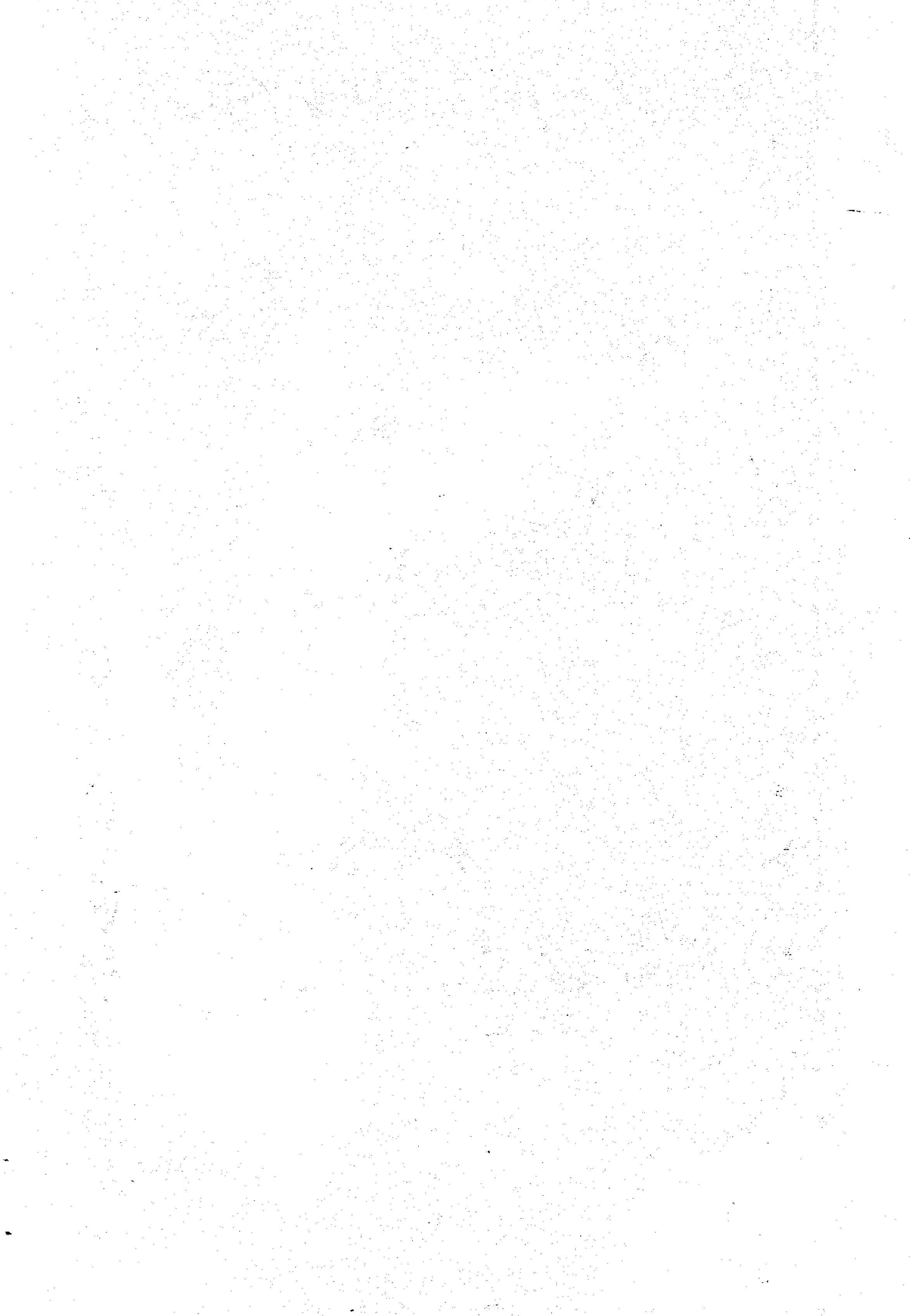
(١) عن الروح بتصرف (١٠٤) .





الباب الخامس

يوم القيامة



يوم القيامة

قال تعالى :

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾[1] ..

وقال :

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ، فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾[2] ..

وقال :

﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾[3] ..

ـ وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قدم على الوليد بن عبد الملك ؟ فسأله : ماذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم من كلام يذكر به الساعة ؟ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« أنتم والساعة كهاتين » أ . هـ[4]

وروى من طريق آخر قال : « ومد أصبعيه السبابة والوسطى »[5] .

(١) القمر : ١ .
(٢) محمد : ١٨ .
(٣) الشورى : ١٧ .
(٤) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد .
(٥) تفرد به أحمد .

ـ وعن عبد الله بن عمر قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قائم على المنبر يقول :

« إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس ، أعطى أهل التوراة التوراة ، فعملوا بها حتى إذا انتصف النهار عجزوا ، فأعطوها قيراطاً ، ثم أُعطى أهل الانجيل الانجيل ، فعملوا به حتى غربت الشمس ، فاعطيتم قيراطين قيراطين ، فقال أهل التوراة والانجيل : ربنا هؤلاء أقل عملا وأكثر أجراً :

فقال : هل ظلمتكم من أجركم من شيء قالوا : لا : قال : فذاك فضلي أوليه من أشاء » أ . هـ[1] .

ـ وعن ابن عمر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« انما أجلكم في أجل من خلا من الأمم قبلكم كما بين صلاة العصر ، ومغرب الشمس ، ومثلكم ومثل اليهود والنصارى »[2] وذكر الحديث السابق بطوله .

ـ وعن عبد الله بن عمر ، أنه كان واقفاً بعرفات ، فنظر إلى الشمس حتى نزلت مثل الترس للغروب ، فبكى واشتد بكاؤه ، فقال له رجل عنده : يا أبا عبد الرحمن قد وقفت معي مراراً فلم تصنع هذا ؟ فقال : « أيها الناس لم يبق من دنياكم فيما مضى منها ، إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه » أ . هـ[3] .

والأحاديث يستدل منها بقرب يوم القيامة بالنسبة إلى ما سلف من الأزمنة .

* * *

---

(١) أخرجه أحمد وغيره وهذا طريقه .
(٢) أخرجه البخاري .
(٣) تفرد به أحمد .

قال تعالى :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾[1] .

« والساعة : كلمة يُعبّر بها في العربية عن جزء من الزمان غير محدود ، وفي العرف : على جزء من أربعة وعشرين جزءا من يوم وليلة ، اللذين هما أصل الأزمنة .

وتقول العرب . أفعل كذا الساعة ، وأنا الساعة في أمر كذا ، وتريد الوقت الذي أنت فيه ، والذي يليه تقريباً له .

وحقيقة الاطلاق فيها أن الساعة بالألف واللام عبارة في الحقيقة عن الوقت الذي أنت فيه ، وهو المسمى بالآن . وسميت القيامة ساعة : اما لقربها فإن كل آت قريب ، واما تنبيها على ما فيها من الكائنات العظام التي تصهر الجلود وتكسر العظام وقيل : لأنها تأتي بغتة في ساعة ، وقيل : غير ذلك . .

وأمر الساعة أقرب من لمح البصر ، ومقدار هذا اليوم خمسون الف سنة ، وأن بين يدي الساعة فتناً كبيرة ، ومحناً كثيرة أخبر عنها النبي صلى الله عليه وسلم وبيّن أماراتها وعلاماتها ، وأوضح شروطها وآفاتها ، ولم يغادر صغيرة منها ولا كبيرة ، ليكون أهل كل قرن على حذر منها ، متهيئين لها بالأعمال الصالحة الباقية ، غير منهمكين في الشهوات العارية ، واللذات الفانية »[2] .

* * *

الفتنة :

الفتنة تذكر إذا ذكرت الساعة . . حتى شاعت على ألسنة العامة ، وعرفت بذكر القيامة . .

وأصل الفتن : ادخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته ، ويستعمل

---

(١) الروم : آية ٥٥ .

(٢) الاذاعة (١٠) .

في ادخال الانسان النار . . كذا قال الراغب في مفرداته . .

والفتنة الاختبار ، والمحنة . . ويطلق عليها العذاب ، قال تعالى :

﴿ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ ﴾[1] . .

وعلى ما يحصل عنه العذاب كقوله :

« أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾[2]

وعلى الاختبار :

﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ . .

* * *

ولشدة ما يقع قبل يوم القيامة وقُبَيْلَهُ يسمى فتنة . . وعلى المسلم أن يتعرف على هذه الفتن . . ليتقيها وليصبر عليها . . وهي تصديق للبشرية لما جاء في الكتاب والسنة من علامات الساعة . .

من الفتن التي تحدث في الأمة الاسلامية :

١ ـ عن عدي بن عميرة رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة ، حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه ، فإذا فعلوا ذاك عذّب الله الخاصة والعامة ».أ . هـ[3] .

ـ وعن زينب بنت جحش زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فزعاً محمراً وجهه يقول :

---

(١) الذاريات : ١٤ .

(٢) التوبة : ٤٩ ـ والآية التالية : طه : ٤٠ .

(٣) رواه أحمد بسند حسن .

« لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فُتِحَ اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وَحلَّقَ باصبعين الابهام والتي تليها قالت : فقلت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال نعم إذا كثر الخبث »[1] . .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « ويل للعرب من شر قد اقترب » المراد به هنا الحزن قال ابن عرفه . فأخبر عليه الصلاة والسلام بما يكون بعده من أمر العرب وما يستغلبهم من الويل والحرب وقد وجد ذلك بما استؤثر عليهم به من الملك والدولة والأموال والامارة فصار ذلك في غيرهم من الترك والعجم وتشتتوا في البراري بعد أن كان العز والملك والدنيا لهم ببركته عليه الصلاة والسلام وما جاءهم به من الدين والاسلام فلما لم يشكروا النعمة وكفروا بقتل بعضهم بعضاً وسلب بعضهم أموال بعض سلبها الله منهم ونقلها إلى غيرهم كما قال تعالى :

﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمَاً غَيْرَكُمْ ﴾[2] . .

ولهذا لما قالت زينب في سياق الحديث : أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم إذا كثر الخبث .

* * *

قال علماؤنا رحمة الله عليهم : قولها « أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم إذا كثر الخبث » . دليل على أن البلاء قد يرفع عن غير الصالحين إذا كثر الصالحون .

فأما إذا كثر المفسدون وَقَلَّ الصالحون هلك المفسدون والصالحون معهم إذا لم يأمروا بالمعروف ويكرهوا ما صنع المفسدون ، وهو معنى قوله :

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾[3] . .

بل يعم شؤمها من تعاطاها ومن رضيها هذا بفساده وهذا برضاه واقراره .

---

(١) رواه البخاري .

(٢) محمد : ٣٨ .

(٣) الأنفال : ٢٥ .

فإن قيل : فقد قال الله تعالى :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[1] . .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾[2] . .

﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾[3] . .

وهذا يوجب أن لا يؤاخذ أحد بذنب أحد . وإنما تتعلق العقوبة بصاحب الذنب .

وقرىء :

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَتُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾[4] . .

وعلى هذه القراءة يكون المعنى أنها تصيب الظالم خاصة وهي قراءة زيد ابن ثابت وعلي وأبي وابن مسعود رضي الله عنهم أجمعين . والجواب أن الناس إذا تظاهروا بالمنكر ، فمن الفرض على مَنْ رآه أن يغيره إما بيده ، فإن لم يقدر فبلسانه ، فإن لم يقدر فبقلبه ليس عليه أكثر من ذلك وإذا أنكر بقلبه فقد أدى ما عليه إذا لم يستطع سوى ذلك[5] . .

* * *

٢ ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم ـ يتبع بها شعف الجبال ، ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن »[6] . .

---

(١) الأنعام : ١٦٤ .
(٢) المدثر : ٣٨ .
(٣) البقرة : ٢٨٦ .
(٤) سبقت هذه الآية بقراءة حفص عن عاصم .
(٥) التذكرة (٦٢٧) ط الكليات الازهرية .
(٦) أخرجه الشيخان والنسائي ومالك وأبو داود .

والشعف : جمع شعفة كآكم وأكمة : رؤوس الجبال قال في الفتح : والخبر دال على فضيلة العزلة لمن خاف على دينه ، ولا يتأتى له الجهاد في سبيل الله .

وقيل : يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال ، واختار النووي الخلطة ، لمن لا يغلب على ظنه الوقوع في المعصية ، فإن أشكل الأمر فالعزلة .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قام إلى جنب المنبر فقال : « الفتنة ها هنا ، الفتنة ها هنا من حيث يطلع قرن الشيطان ، أو قال : قرن الشمس » أ . هـ[1] .

أشار صلى الله عليه وسلم إلى المشرق : لأن أهله يومئذ أهل كفر فأخبر أن الفتنة تكون من تلك الناحية ، وكذا وقع فكان وقعة الجمل ، ووقعة صفين ، ثم ظهور الخوارج في أرض نجد والعراق وما وراءها من المشرق ، وكان أصل ذلك كله وسببه قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وهذا علم من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم . .

قال في الفتن : وأول الفتن كان من قبل المشرق ، فكان ذلك سبباً للفرقة بين المسلمين ، وذلك مما يحبه الشيطان ويفرح به ، وكذلك البدع نشأت من تلك الناحية .

وقال الخطابي : « نجد من جهة المشرق ، ومن كان بالمدينة نجده بادية العراق ونواحيها ، وهي مشرق أهل المدينة ، وأصل النجد : ما ارتفع من الأرض ، وهو خلاف الغور ، فإنه ما انخفض منها ، وتهامة كلها من الغور ، ومكة من تهامة » . .

وعرف بهذا وهذا ما قاله الداودي : أن نجداً من ناحية العراق ، فإنه يوهم أن نجداً موضع مخصوص وليس كذلك ، بل كل شيء ارتفع بالنسبة إلى ما يليه يسمى المرتفع نجداً ، والمنخفض غوراً » . .

---

(١) أخرجه البخاري والترمذي .

٣ ـ عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« تدور رحى الاسلام لخمس وثلاثين أو ست وثلاثين ، فإن يهلكوا فسبيل من هلك ، وإن لم يقم لهم دينهم يقم لهم سبعين عاماً قال : قلت : أمما بقي ؟ قال : مما مضى »[1] .

قال الهروي في تفسير هذا الحديث : « قال الحربي : ويروى تزول وكأن تزول أقرب لأنها تزول عن ثبوتها واستقرارها ، وتدور يكون بما يحبون ويكرهون فإن كان الصحيح سنة خمس فإن فيها قام أهل مصر وحصروا عثمان رضي الله عنه ، وإن كانت الرواية سنة ست ففيها خرج طلحة والزبير إلى الجمل وإن كانت سنة سبع ففيها كانت صفين غفر الله لهم أجمعين .

قال الخطابي:يريد عليه الصلاة والسلام أن هذه المدة إذا انقضت حدث في الاسلام أمر عظيم يخاف على أهله لذلك الهلاك يقال : الأمر إذا تغير واستحال دارت رحاه وهذا والله أعلم اشارة إلى انقضاء مدة الخلافة ، وقوله « ليتم لهم دينهم » أي ملكهم وسلطانهم ، وذلك من لدن بايع الحسن عليه السلام معاوية إلى انقضاء بني أمية من المشرق نحو من سبعين سنة وانتقاله إلى بني العباس والدين الملة والسلطان ومنه قوله تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ المَلِكِ ﴾[2] . .

أي في سلطانه وقوله « تدور رحى الاسلام » دوران الرحى كناية عن الحرب والقتال شبهها بالرحى الدائرة التي تطحن لما يكون فيها من قبض الأرواح وهلاك الأنفس[3] .

* * *

٤ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

---

(١) أخرجه ابو داود .
(٢) يوسف : ٧٦ .
(٣) التذكرة (٦٣٢) .

« لا تقوم الساعة ، حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول : يا ليتني مكانه » أ . هـ[1] . .

أي كنت ميتاً ، قال ابن بطال : « يغبط أهل القبور ويتمنى الموت ، وذلك عند ظهور الفتن ، وخوف ذهاب الدين لغلبة الباطل وأهله ، وظهور المعاصي والمنكر » .

وليس هذا عاما في حق كل أحد ، انما هو خاص بأهل الخير ، وأما غيرهم فقد يكون لما يقع لبعضهم من المصيبة في نفسه أو أهله أو دنياه ، وإن لم يكن في ذلك شيء ويتعلق بدينه .

ويؤيده حديث أبي هريرة يرفعه « لا تذهب الدنيا حتى يمر الرجل على القبر فيتمرغ عليه ، ويقول : يا ليتني مكان صاحب هذا القبر وليس به الدين الا البلاء » أ . هـ[2] .

وفيه ايماء إلى أنه لو فعل ذلك بسبب الدين لكان ذلك محموداً ، ويؤيده ثبوت تمني الموت عند فساد أمور الدين عن جماعة من السلف ، قال النووي : لا كراهة في ذلك ، بل فعله خلائق ، منهم عمر بن الخطاب ، وعمر بن عبد العزيز ، وغيرهما .

قال القرطبي : كان في الحديث اشارة إلى أن الفتن والمشقة البالغة ستقع حتى يخف أمر الدين ويقل الاعتناء به ، ولا يبقى لأحد اعتناء إلا بأمر دنياه ومعاشه ونفسه وما يتعلق به ، ومن ثم عظم قدر العبادة أيام الفتنة ، كما أخرج مسلم والترمذي من حديث معقل بن يسار يرفعه « العبادة في الهرج كهجرة إلى » . .

وقد أخرج الحاكم عن أبي سلمة ، قال : « عدت أبا هريرة فقلت : اللهم اشف أبا هريرة ، فقال : اللهم لا ترجعها ، إن استطعت يا أبا سلمة

---

(١) رواه الشيخان .

(٢) رواه مسلم .

فَمت ، والذي نفسي بيده ليأتين على العلماء زمانٌ الموتُ أحب إلى أحدهم من الذهب الأحمر »[1] .

* * *

٥ ـ وعن حارثة بن وهب الخزاعي قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« تصدقوا ، فسيأتي على الناس زمان يمشي بصدقته فلا يجد من يقبلها » أ . هـ[2] .

وذلك لانشغال الناس عن المال بأنفسهم بالفتنة وما يترتب عليها . .

ـ فعن أبي أمية الشعباني ، قال : قلت : يا أبا ثعلبة كيف تقول في هذه الآية :

﴿يَا أَيها الذِينَ آمنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾[3] . .

فقال : أما والله لقد سألت عنها خبيراً ، سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

« ائتمروا بالمعروف وانتهوا عن المنكر حتى إذا رأيتم شحاً مطاعاً ، وهوى متبعاً ، ودنيا مؤثرة واعجاب كل ذي رأي برأيه ، فعليك بنفسك ، وَدَعْ عنك أمر العوام فإن من وراثكم أياماً ، الصبر فيهن كالقبض على الجمر ، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم » أ . هـ[4] .

ـ وعن ابن عمرو بن العاص ، قال : شَبَّكَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أصابعه ، وقال : كيف أنت يا عبد الله بن عمرو إذا بقيت في حثالة قد مرجت عهودهم ، واختلفوا فصاروا هكذا ، قال : فكيف يا رسول الله ؟ قال :

---

(١) أخرجه الحاكم

(٢) رواه البخاري .

(٣) المائدة : ١٠٥ .

(٤) أخرجه أبو داود والترمذي .

تأخذ ما تعرف وتدع ما تنكر ، وتقبل على خاصتك وتدعهم وعوامهم » أ . هـ[1] .

والحثالة : ما يسقط من قشر الشعير ونحوه إذا نقي ، وكأنه الرديء من كل شيء .

* * *

٦ - عن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما الناس كالإبل المائة ، لا تكاد تجد فيها راحلة »[2] .

- وعن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جُحْر ضَبٍّ تبعتموهم ، قيل : يا رسول الله اليهود والنصارى ، قال : فمن ؟! »[3] .

وعن ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« توشك الأمم أن تداعي عليكم كما تداعي الأكلة إلى قصعتها ، فقال قائل : من قلة نحن يومئذ ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن ، قال قائل : يا رسول الله وما الوهن ؟ قال : الوهن : حب الدنيا وكراهية الموت »[4] .

قال في الاذاعة : « وقد كادت ماجريات الاسنبول التي وقعت في هذا العام تكون من جنس ما يصدق عليه هذا الحديث ، فإن جموع النصارى وأممهم على اختلاف أفكارهم وأحوالهم قد تداعت اليوم على أرض الروم واستعدوا على

---

(١) أخرجه البخاري .
(٢) متفق عليه .
(٣) متفق عليه .
(٤) أخرجه أبو داود والبيهقي .

حرب السلطان عبد الحميد خان من جميع الجهات ، والله سبحانه مؤيد الإسلام والمسلمين ، ومبدد شمل الفئة الكافرين » ١٠هـ[1] .

* * *

فتن ظهرت وانقرضت

١ ـ قتل عمر رضي الله عنه :

وردت اشارة نبوية إلى أن عمر رضي الله عنه سيقتل :

ـ فقد ثبت في الصحيحين عن سلمة عن حذيفة قال :

« كنا جلوساً عند عمر فقال: أيكم يحفظ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في الفتنة قلت : أنا، فقال: هات انك لجريء، فقلت: ذكر فتنة الرجل في أهله وماله ونفسه وولده وجاره تكفرها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال : ليس هذا أعني إنما أعني التي تموج موج البحر فقلت: يا أمير المؤمنين إن بينك وبينها باباً مغلقاً فقال :

« ويحك أيفتح الباب أم يُكْسر فقلت: بل يكسر قال: إذاً لا يُغلق أبداً قلت: أجل فقلنا لحذيفة: فكان عمر يعلم من الباب ؟

قال: نعم إني حدثته حديثاً ليس بالأغاليط فقال: فهبنا أن نسأل حذيفة مَنْ الباب ؟ فقلنا ، لمسروق : فسأله فقال عمر : هكذا وقع الأمر سواء بعد ما قتل في سنة ثلاث وعشرين وقعت الفتن بين الناس وكان قتله سبب انتشارها بينهم » ٢٠هـ .

* * *

٢ ـ محنة عثمان بن عفان :

ـ عن عبد الله بن سلام قال : لما أريد عثمان رضي الله عنه جاء عبد الله ابن سلام فقال له عثمان بن عفان رضي الله عنه : ما جاء بك قال : جئت في

---

(١) الاذاعة ٥٢ .

نصرتك قال : اخرج إلى الناس فاطردهم عني فإنك خارجاً خير لي من داخل قال : فخرج عبد الله بن سلام إلى الناس فقال : أيها الناس إنه كان في الجاهلية اسمي فلان بن فلان فسماني رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله ونزلت فيّ آيات من كتاب الله تعالى نزلت :

﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي اسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[1] . .

ونزلت فيَّ :

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتَابِ ﴾[2] . .

إن لله سيفاً مغموراً عنكم وإن الملائكة قد جاورتكم في بلدكم هذا الذي نزل فيه نبيكم فالله الله في هذا الرجل أن تقتلوه فوالله إن قتلتموه لتطردن جيرانكم الملائكة ولتسلن سيف الله المغمود إلى يوم القيامة قال فقولوا اقتلوا اليهودي واقتلوا عثمان » ٢٠ هـ[3] .

قال القرطبي في التذكرة : « ومثل هذا من عبد الله لا يكون إلا من علم من الكتاب ، أعني التوراة على ما يأتي أو سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم . .

قال العلماء بالسير والأخبار : أنه دخل على أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه في الدار جماعة من الفجار منهم كنانة بن بشر التجيبي فأشعره مشقصاً أي قتله به فانتضح الدم على المصحف ووقع على قوله تعالى :

﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾[4] . .

وقيل: ذبحه رجل من أهل مصر يقال له عَمَّار وقيل: ذبحه رومان ، وقيل:

---

(١) الأحقاف : ١٠ .
(٢) الرعد : ٤٣ .
(٣) أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب .
(٤) البقرة : ١٣٧ .

قتله الموت الأسود يقال له أيضاً الدم الأسود من طغاة مصر فقطع يده فقال عثمان : أما والله إنها لأول كف خطت في المصحف وهذه البلوى التي ثبتت في الصحيح عن أبي موسى أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل حائطاً وأمرني بحفظ باب الحائط فجاء رجل يستأذن فقال: ائذن له وبشره بالجنة فإذا أبو بكر ثم جاء آخر يستأذن فقال: ائذن له وبشره بالجنة فإذا عمر ثم جاء آخر يستأذن فسكت هنيهة ثم قال: ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه فإذا عثمان بن عفان » ٢٠هـ . وهذا لفظ البخاري ذكره في مناقب عثمان .

وقد قيل : إن الصحيح في قتله رضي الله عنه أنه لم يتعين له قاتل معين بل أخلاط الناس وهم رعاع جاءوا من مصر ومن غير قطر وجاء الناس إلى عثمان فيهم عبد الله بن عمر متقلداً سيفه وزيد بن ثابت فقال له زيد بن ثابت : ان الأنصار بالباب يقولون : إن شئت كنا أنصار الله مرتين قال : لا حاجة لي في ذلك كفُّوا ، وكان معه في الدار الحسن والحسين وابن عمر وعبد الله بن الزبير وأبو هريرة وعبد الله بن عامر بن ربيعة ومروان بن الحكم كلهم يحملون السلاح فعزم عليهم في وضع أسلحتهم وخروجهم ولزوم بيوتهم فقال له الزبير ومروان : نحن نعزم على أنفسنا أن لا نبرح فضاق عثمان رضي الله عنه من الحصار ومنع من الماء حتى أفطر على ماء البحر المالح قال الزبير بن بكار: حاصروه شهرين وعشرين يوماً .

وقال الواقدي : حاصروه تسعة وأربعين يوماً ففتح الباب فخرج الناس ، وسلموا له راية في اسلام نفسه قال سليط بن أبي سليط فنهانا الإمام عثمان عن قتالهم ولو أذن لنا لضربناهم حتى نخرجهم من أقطارها ودخلوا عليه في أصح الأقوال وقتله من شاء الله من سفلة الرجال » ٢٠هـ[1] .

* * *

مسألة :

اختلف العلماء فيمن نزل به مثل نازلة عثمان وألحقه الله جناح المغفرة

---

(١) التذكرة (٦٢٤) .

والرضوان هل يلقي بيده أو يستنصر فأجاز جماعة من الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين أن يستسلم وهو أحد قولي الشافعي وقال بعض العلماء : لا يسلم بيده بل يستنصر ويقاتل ولكل من القولين وجه ودليل .

وقال بعض العلماء: لو اجتمع أهل المشرق والمغرب على نصرة عثمان لم يقدروا على نصرته ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنذره في حياته فأعلم بالبلوى التي تصيبه فكان ذلك من المعجزات التي أخبر بوقوعها بعد موته صلى الله عليه وسلم ، وما قال رسول الله شيئاً قط إلا كان .

قَتَلْتُمْ وَلِيَّ اللهَ فِي جَوْفِ دَارِهِ　　وَجِئْتُمْ بِأَمْرٍ جَائِرٍ غَيْرِ مُهْتَدِ
فَلَا ظَفِرَتْ أيمَانُ قَوْمٍ تَعَاوَنُوا　　عَلى قَتْلِ عُثْمَانَ الرَّشِيدِ المُسَدَّدِ

اصلاح الحسن رضي الله عنه بين فئتين عظيمتين :

روى البخاري عن أبي بكر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول والحسن بن علي إلى جانبه على المنبر:

« إبني هذا سيد ، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » ٤٠هـ .

* * *

هدم الكعبة :

ومن الفتن : هدم الكعبة ، وتولية الحجاج ، وهو من الفتن الواقعة في زمن بني مروان ، فإنه قتل مائة وعشرين ألفاً وأربعة آلاف نفس صَبْراً ـ غير ما قتله في المحاربات ـ وأهان جماعة من الصحابة ، وختمهم في رقابهم اهانة ، منهم أنس خادم النبي صلى الله عليه وسلم ، وَدَسَّ على ابن عمر مَنْ ضربه بحربة مسمومة فقتله ، إلى غير ذلك من القبائح ، ولا شك أنه سيئة من سيئات عبد الملك الشقي ، فإنه كان أميراً له على العراق ، وعلى الحجاز .

* * *

فتنة التتار :

ثم جاءت الطامة الكبرى بالتتار بعد الستمائة ، فكان خروج جنكيز خان ، واستعرت الدنيا بهم ناراً ، لا سيما الشرق بأسره حتى لم يبق بلد منه إلا ودخله شرهم ، ثم كان خراب بغداد ، وقتل الخليفة المستعصم على أيديهم في سنة ست وخمسين وستمائة ، وهو آخر الخلفاء العباسيين ببغداد ، الذي رثاه جميع العلماء الأمجاد منهم الشيخ « مصلح الدين السعدي الشيرازي » بالكلمة العربية والقصيدة الفارسية .

قال التاج السبكي : لم تكن منذ خلق الله الدنيا فتنة أكبر من فتنة التتار .

وقال السخاوي : ثم لم يزل بقاياهم يخرجون إلى أن كان آخرهم « تيمور » الأعرج ، وطالت مدته إلى أن مات وتفرق بنوه في البلاد . . ٨٠٢هـ .

وكان ملوك الهند أيضاً من أولاده حتى انقرضوا في زماننا هذا .

وفي أحواله كتاب لعرب شاه سماه « عجائب المقدور في أحوال تيمور » وظهر بجميع ذلك مصداق أخباره صلى الله عليه وسلم في كتب السنة المطهرة ، وذكره الجلال السيوطي في تاريخ الخلفاء وغيره ، وذكر جملة من أحواله الشنيعة

* * *

فتن ظهرت ولم تنقض

١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« لا تقوم الساعة حتى يقتتل فئتان عظيمتان يكون بينهما مقتلة عظيمة دعواهما واحدة ، وحتى يبعث دجالون كذابون قريباً من ثلاثين يزعم أنه رسول الله ، وحتى يقبض العلم ، وتكثر الزلازل ، ويتقارب الزمان ، وتظهر الفتن ويكثر الهرج ـ وهو القتل ـ وحتى يكثر فيكم المال فيفيض ، وحتى يهم رب المال فلا يجد من يقبل صدقته ، وحتى يعرضه فيقول : الذي يعرضه عليه لا أرب لي

فيه ، وحتى يتطاول الناس في البنيان ، وحتى يمر الرجل بقبر الرجل ، فيقول : يا ليتني مكانه ، وحتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس أجمعون ، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيراً ، ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن نعجته فلا يطعمه ، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه ، ولتقومن الساعة ، وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها » ؟ ٠ هـ[1] .

* * *

قال أهل العلم : « هذه ثلاث عشرة علامة جمعها أبو هريرة في حديث واحد ، ولم يبق بعد هذا ما ينظر من صحيح العلامات والشروط ، وفي عموم انذار النبي صلى الله عليه وسلم بفساد الزمان ، وتغير الدين ، وذهاب الأمانة ما يغني عن ذكر التفاصيل الباطلة ، والأحاديث الكاذبة في أشراط الساعة ، من ذلك حديث رووه عن أنس مرفوعاً : « أن في سنة المائتين يكون كذا وكذا وفي العشر والمائتين كذا وكذا » . . الحديث بطوله ، فهل كان هكذا ، أو قد مضت هذه المدة ؟ وهذا شيء يعم ، وسائر الأمور التي ذكرت قد تكون في بلدة وتخلو منها أخرى .

وأيضاً دلالة أخرى على أنه مفتعل ، أن التاريخ لم يكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما وضعوه على عهد عمر ، فكيف يجوز هذا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقال في سنة كذا يكون كذا ؟ والذي ينبغي أن يقال له في هذا الباب : أن ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم من الفتن والكوائن أن ذلك يكون ، وتعيين الزمان في ذلك من سنة كذا يحتاج إلى طريق صحيح يقطع العذر .

* * *

وإنما ذلك كوقت قيام الساعة فلا يعلم أحد أي سنة هي ولا أي شهر .

---

(١) أخرجه البخاري .

أما أنها تكون في يوم الجمعة في آخر ساعة منه ، وهي الساعة التي خلق الله تعالى فيها آدم عليه السلام ، ولكن أي جمعة؟ لا يعلم تعيين ذلك اليوم إلا الله وحده لا شريك له ، وكذا ما يكون من شروط تعيين الزمان لها لا يعلم ، والله أعلم[1] .

* * *

وأما الثلاث عشرة خصلة فقد ظهر أكثرها من ذلك قوله :

« حتى يقتتل فئتان » يريد فتنة معاوية وعلي بصفين . .

وقوله : « قريباً من ثلاثين » قال القاضي عياض : هذا الحديث قد ظهر ، فلو عد من تنبأ من زمن النبي صلى الله عليه وسلم إلى الآن ممن اشتهر بذلك وعرف واتبعه جماعة على ضلالته لوجد هذا العدد فيهم .

ومن طالع كتب الأخبار والتواريخ عرف صحة هذا ، وقوله « حتى يقبض العمل به ، ولم يبق إلا رسمه ، وأما كثرة الزلازل فقد ذكر ابن الجوزي أنه وقع منها بعراق العجم الكثير ، وقوله « يتقارب الزمان » معناه : تتقارب أحوال أهله في قلة الدين حتى لا يكون فيهم من يأمر بمعروف ، ولا من ينهى عن منكر ، كما هو اليوم لغلبة الفسق ، وظهور أهله .

وأما كثرة المال : فقد وقع في زماننا . .

وأما التطاول في البنيان : ويقصد بها ناطحات السحاب ونحن في عصرها .

* * *

العلامات العظمى

عن حذيفة قال : اطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غرفة ونحن نتذاكر الساعة فقال :

---

(١) الاذاعة (٩٨) .

« لا تقوم الساعة حتى تكون عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، والدخان ، والدابة ، ويأجوج ومأجوج ، وخروج عيسى بن مريم ، وثلاث خسوفات : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ونار تخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس إلى المحشر تبيت معهم إذا باتوا وتقيل معهم إذا قالوا »[1] ؟٠هـ .

وفي رواية « الدخان ، والدجال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى بن مريم ، وثلاث خسوفات : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطردهم الى محشرهم » ؟٠هـ .

ـ ولكن يسبق نزول المسيح ظهور المهدي المنتظر . . الذي يخرج في آخر الزمان يملك الدنيا كلها . .

فروى أن جميع ملوك الدنيا كلها أربعة : مؤمنان وكافران ، فالمؤمنان سليمان بن داود ، والاسكندر والكافران : نمروذ ، وبخت نصر ، وسيملكها من هذه الأمة خامس : وهو المهدي .

* * *

المهدي المنتظر :

وتسبق المهدي فتن كثيرة : منها حسر الفرات عن جبل من ذهب ، ومنها خروج السفياني ، والأبقع ، والأصهب ، والأعرج الكندي ، والمنصور ، والحارث ، وهي صفات وألقاب لا أسماء لهم ، ومنها قتال الخراساني بالسفياني ، وخروج رجل من كلب يقال له كنانة ، والملحمة الكبرى وذلك بعد هلاك السفياني ، ومنها طلوع الرايات السود من قبل خراسان ، وقذف الأرض أفلاذ كبدها من الذهب والفضة ، وخسف معدن في الحجاز ، وخسف قرية بالغوطة غربي دمشق ، وخسف بالبيداء ، وانكساف الشمس والقمر في رمضان ،

(١) أخرجه مسلم وابن ماجة والترمذي وقال حديث حسن .

وطلوع القرن ذي السنين ، وطلوع النجم ذي الذنب ، وخسوف القمر مرتين ، والنداء من السماء أن الحق في آل محمد ، وبلوغ الكف من السماء ، وإخراج كنز الكعبة وخزائنها ، وكون لخمسين امرأة قيم واحد[1] وفتح القسطنطينية والرومية ، وخروج الدجال[2] .

* * *

ومما لا شك أن دعوى المهدوية دعوة سهلة يستطيع كل مريض أحب الشهوة ، وعشق المكانة ، وتحلق الرياسة ترويجها لينال بهذا حظاً وفيراً بين الناس . . فرددها بعض الصوفية ، ورددها جمع من المرضى . . وهواة الشغب ، ومحبو الفتن . ولكن المهدي حقيقة ستظهر في الوجود بصفات وعلامات معينة مذكورة لدينا نحن المسلمين . . ويعرفها العلماء . .

والأحاديث الواردة في المهدي التي أمكن الوقوف عليها خمسون فيها الصحيح والحسن والضعيف المنجبر ، وهي متواترة بلا شك ولا شبهة ، بل يصدق وصف التواتر على ما هو دونها على جميع الاصطلاحات المحررة في الأصول ، وأما الآثار عن الصحابة المصرحة بالمهدي فهي كثيرة أيضاً ، لها حكم الرفع إذ لا مجال للاجتهاد في مثل ذلك .

- عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« لا تذهب الدنيا ولا تنقضي حتى يملك رجل من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي »؟ . هـ[3] .

وعنه أيضاً بلفظ « يلي رجل من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يلي » أ . هـ .

---

(1) قيم اي رجل .
(2) الاذاعة (١٥٠) .
(3) أخرجه احمد وابو داود والترمذي .

ـ عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« الدجال ممسوخ العين ، بين عينيه مكتوب كافر ، ثم تهجاها ك ف ر يقرؤه كل مسلم » أ . هـ[١] .

ـ وعنه أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« الدجال أعور ، وأن ربكم ليس بأعور مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير ذلك » أ . هـ[٢] .

ـ عن سمرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« إن المسيح الدجال أعور العين الشمال عليها ظفرة غليظة وأنه يبرىء الأكمه والأبرص ويحيى الموتى ، ويقول أنا ربكم ، فمن اعتصم بالله فقال ربي الله ثم أبى حتى يموت فلا عذاب عليه ولا فتنة ، ومن قال أنت ربي فقد فتن ، وأنه ليلبث في الأرض ما شاء الله أن يلبث ثم يجيء عيسى بن مريم من المشرق مصدقاً بمحمد وعلى ملته ثم يقتل الدجال » أ . هـ[٣] .

مسألة :

لماذا لم يذكر الدجال في القرآن ؟

الدجال شر بطبعه .. وفتنة كبرى في زمانه .. وما من نبي إلا حذر منه .. ولكن لم يصرح القرآن الكريم باسمه وينوه بكذبه وعناده فلماذا ؟ ..

والجواب : أنه قد أشير إلى ذكره في قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً ﴾[٤] ..

---

(١) أخرجه أحمد .
(٢) أخرجه أحمد .
(٣) أخرجه أحمد والطبراني واللفظ للطبراني قال ابن كثير في النهاية : حديث غريب ١/٤٠ .
(٤) الأنعام : ١٥٨ .

الدجال بين القطعتين ثم يقول له : قُمْ فيستوي قائماً قال ثم يقول له أتؤمن بي فيقول ما ازددت فيك إلا بصيرة قال : ثم يقول يا أيها الناس إنه لا يفعل بعدي بأحد من الناس مثل الذي فعل بي : قال : فيأخذه الدجال ليذبحه فيحول ما بين رقبته إلى ترقوته[1] نحاس فلا يستطيع إليه سبيلاً ، قال فيأخذه بيديه ورجليه ليقذف به فيحسب الناس إنما قذفه إلى النار وإنما ألقي في الجنة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين » أ . هـ[2] .

- وعن أبي بن كعب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الدجال فقال : « احدى عينيه كأنها زجاجة ، وتعوذوا بالله من عذاب القبر » أ . هـ[3] .

- عن مجاهد عن أبي الوداك قال : قال أبو سعيد : هل يلتقي الخوارج بالدجال ؟ قلت لا ، فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إني خاتم ألف أو أكثر ، وما بعث نبي يتبع الا وقد حذر أمته الدجال ، وأني قد بُيّن لي من أمره ما لم يُبين لأحد ، إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور وعينه اليمنى عوراء جاحظة لا تخفى كأنها نخامة على حائط مجصص وعينه اليسرى كأنها كوكب دري ، معه من كل لسان ومعه صورة الجنة خضراء يجري فيها الماء ، وصورة النار سوداء تدخن » أ . هـ[4] .

- عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يجيء الدجال فيطأ الأرض إلا مكة والمدينة فيأتي المدينة فيجد بكل نقب من أنقابها صفوفاً من الملائكة فتأتي سبخة الجرف فيضرب رواقه فترجف المدينة ثلاث رجفات فيخرج اليه كل منافق ومنافقة » أ . هـ[5] .

---

(١) الترقوة هي العظمة بين ثغرة النحر والعاتق .
(٢) أخرجه مسلم .
(٣) تفرد به أحمد .
(٤) تفرد به أحمد .
(٥) أخرجه أحمد وأخرج مسلم نحوه .

خروج المهدي :

ورد أن المهدي يُبايَعُ بين الركن والمقام . . وظاهر هذا أنه لم يبايع قبل وليس كذلك . .

فإنه روي من حديث ابن مسعود وغيره من الصحابة أنه يخرج في آخر الزمان من المغرب الأقصى يمشي النصر بين يديه أربعين ميلا راياته بيض وصفر فيها رقوم فيها اسم الله الأعظم مكتوب فلا تهزم له راية ، وقيام هذه الرايات وانبعاثها من ساحل البحر بموضع يقال له ما سنة من قِبَلِ المغرب فيعقد هذه الرايات مع قوم قد أخذ الله لهم ميثاق النصر والظفر .

﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ المُفْلِحُونَ ﴾[1] . .

الحديث بطوله وفيه : فيأتي الناس من كل جانب ومكان فيبايعونه يومئذ بمكة وهو بين الركن والمقام وهو كاره لهذه المبايعة الثانية بعد البيعة الأولى التي بايعه الناس بالمغرب ، ثم إن المهدي يقول : أيها الناس اخرجوا إلى قتال عدو الله وعدوكم فيجيبونه ولا يعصون له أمراً ، فيخرج المهدي ومن معه من المسلمين من مكة إلى الشام لمحاربة عروة بن محمد السفياني وكل من معه من كلب ثم يتبدد جيشه ثم يوجد عروة السفياني على أعلى شجرة على بحيرة طبرية والخائب من خاب يومئذ من قتال كلب ولو بكلمة أو بتكبيرة أو بصيحة .

فيروى عن حذيفة أنه قال : قلت يا رسول الله كيف يحل قتلهم وهم مسلمون موحدون فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « انما ايمانهم على ردة لأنهم خوارج ويقولون برأيهم أن الخمر حلال ومع ذلك أنهم يحاربون الله ، قال الله تعالى :

﴿ إنما جَزَاءُ الذينَ يُحارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ في الأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ في الدُّنْيَا وَلَهُمْ في الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[2] .

---

(١) المجادلة : ٢٢ . (٢) المائدة : ٣٣ .

وذكر الحديث . .

وخبر السفياني خرّجه عمرو بن عبيد في مسنده . . والله أعلم .

- وروي من حديث معاوية بن أبي سفيان في حديث فيه طول عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« ستفتح بعدي جزيرة تسمى بالأندلس فتغلب عليهم أهل الكفر فيأخذون من أموالهم وأكثر بلدهم ويسبون نساءهم وأولادهم ويهتكون الأستار ويخربون الديار ، ويرجع أكثر البلاد فيافي وقفاراً [1] وتنجلي أكثر الناس عن ديارهم وأموالهم فيأخذون أكثر الجزيرة ولا يبقى إلا أقلها ويكون في المغرب الهرج والخوف ويستولي عليهم الجوع والغلاء وتكثر الفتنة ويأكل الناس بعضهم بعضاً ، فعند ذلك يخرج رجل من المغرب الأقصى من أهل فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو المهدي القائم في آخر الزمان وهو أول أشراط الساعة » أ . هـ .

وجاء أن المهدي يملك جبل الديلم والقسطنطينية ، ويستفتح رومية وأنطاكية ، وكنيسة الذهب .

- فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو لم يبق من الدنيا الا يوم لَطوّله الله عز وجل حتى يملك رجب من أهل بيتي جبل الديلم والقسطنطينية » أ . هـ [2]

- وروي من حديث حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم وفيه بعد قوله :

﴿ ذَلِكَ لهم خِزْيٌ في الدُّنْيَا وَلهمْ في الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [3] . .

ثم إن المهدي ومن معه من المسلمين يأتون إلى مدينة انطاكية [4] وهي

(١) فيافي : صحاري - وقفارا : أراضي جدباء .

(٢) الحديث أخرجه ابن ماجه باسناد صحيح .

(٣) المائدة : ٣٣ .

(٤) احدى عواصم الدولة الرومانية .

مدينة عظيمة على البحر فيكبِّرون عليها ثلاث تكبيرات فيقع سورها من البحر بقدرة الله عز وجل فيقتلون الدجال ويسبون النساء والأطفال ويأخذون الأموال ثم يملك المهدي انطاكية ، ويبني فيها المساجد ، ويعمر عمارة أهل الاسلام ، ثم يسيرون إلى رومية ، وكنيسة الذهب فيفتحون القسطنطينية ورومية ويقتلون بها أربع مائة ألف مقاتل ، ويغتصبون بها سبعين ألف بكر ، ويستفتحون المدائن والحصون ويأخذون الأموال ، ويقتلون الرجال ويسبون النساء والأطفال ويأتون كنيسة الذهب ، فيجدون فيها الأموال التي كان المهدي أخذها أول مرة وهذه الأموال هي التي أودع فيها ملك الروم قيصر حين غزا بيت المقدس فوجد في بيت المقدس هذه الأموال فأخذها واحتملها على سبعين ألف عجلة إلى كنيسة الذهب بأسرها كاملة كما أخذها ما نقص منها شيئاً فيأخذ المهدي تلك الأموال فيردها إلى بيت المقدس ، قال حذيفة ، قلت : يا رسول الله لقد كان بيت المقدس عند الله عظيماً جسيم الخطر ، عظيم القدر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هو من أجل البيوت ابتناه الله لسليمان بن داود عليهما السلام من ذهب وفضة ودر وياقوت وزمرد وذلك أن سليمان بن داود سخّر الله له الجن فأتوه بالذهب والفضة من المعادن وأتوه بالجواهر والياقوت والزمرد من البحار يغوصون كما قال الله تعالى :

﴿ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾[1] . .

فلما أتوه بهذه الأصناف بناه منها فجعل فيه بلاطاً من ذهب وبلاطاً من فضة وأعمدة من ذهب وأعمدة من فضة وزينه بالدر والياقوت والزمرد وسخر الله تعالى له الجن حتى بنوه من هذه الأصناف .

قال حذيفة : فقلت يا رسول الله وكيف أخذت هذه الأشياء من بيت المقدس ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن بني اسرائيل عصوا وقتلوا الأنبياء سلط الله عليهم بخت نصر وهو من المجوس فكان ملكه سبع مائة سنة وهو قوله تعالى :

---

(١) ص : ٣٧ .

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاَهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولًا ﴾[1] . .

فدخلوا بيت المقدس وقتلوا الرجال وسبوا النساء والأطفال وأخذوا الأموال وجميع ما كان في بيت المقدس من هذه الأصناف واحتملوها على سبعين ألف عجلة حتى أودعوها أرض بابل وأقاموا يستخدمون بني اسرائيل ويستملكونهم بالخزي والعقاب والنكال مائة عام ثم إن الله عز وجل رحمهم فأوحى الله إلى ملك من ملوك فارس أن يسير إلى المجوس في أرض بابل ويستنقذ ما في أيديهم من بني اسرائيل من أيدي المجوس واستنقذ ذلك الحلى الذي كان في بيت المقدس ورده اليه كما كان أول مرة ، وقال لهم يا بني اسرائيل إن عدتم إلى المعاصي عدنا عليكم بالسبي والقتل وهو قوله تعالى :

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا ﴾[2] . .

يعني إن عدتم إلى المعاصي عدنا عليكم بالعقوبة فلما رجعت بنو اسرائيل إلى بيت المقدس عادوا إلى المعاصي فسلط الله عليهم ملك الروم قيصر وهو قوله تعالى :

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴾[3] . .

فغزاهم في البر والبحر فسبقهم وقتلهم وأخذ أموالهم ونساءهم وأخذ حلى جميع بيت المقدس واحتمله على سبعين عجلة حتى أودعه كنيسة الذهب فهو فيها إلى الآن حتى يأخذه المهدي ويرده إلى بيت المقدس ويكون المسلمون ظاهرين على أهل الشرك فعند ذلك يرسل الله عليهم ملك الروم وهو الخامس من آل هرقل » أ . هـ[4] .

---

(١) الاسراء : ٥ .

(٢) الاسراء : ٨ .

(٣) الاسراء : ٧ .

(٤) عن نهاية البداية والنهاية .

وخرج مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« سمعتم بمدينة جانب منها في البر ، وجانب منها في البحر قالوا نعم يا رسول الله قال : لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفاً من بني اسحاق ، فإذا جاءوها نزلوا فلم يقاتلوا بسلاح ولم يرموا بسهم قالوا لا إله إلا الله ، والله أكبر فيسقط أحد جانبها قال ثور: لا أعلمه إلا الذي في البحر ثم يقولون الثانية لا إله إلا الله والله أكبر ، فيسقط جانبها الآخر ثم يقولون الثالثة لا إله إلا الله والله أكبر فيفرج لهم فيدخلونها فيغنمون فبينما هو يقتسمون الغنائم إذ جاءهم الصريخ فقال : إن الدجال قد خرج فيتركون كل شيء ويرجعون » أ . هـ .

وروى الترمذي عن أنس قال : « فتح القسطنطينية مع قيام الساعة » أ . هـ[1] .

وعلق القرطبي في التذكرة على الحديث قائلا : « هو عثمان بن عفان ذكر القرطبي في التاريخ له ثم دخلت سنة سبع وعشرين ففيها كان فتح أفريقية على يد عبد الله بن أبي سرح وذلك أن عثمان رضي الله عنه لما ولى عمرو بن العاص على عمله بمصر كان لا يعزل أحداً إلا عن شكاية وكان عبد الله بن أبي سرح من جند عثمان فأمره عثمان رضي الله عنه على الجند ورماه بالرجال وسرحه إلى أفريقية وسرح معه عبد الله بن نافع بن قيس وعبد الله بن نافع بن الحصين الفهريني ، فلما فتح عبد الله أفريقية خرج عبد الله وعبد الله إلى الأندلس فأتياها من قبل البحر وكتب عثمان رضي الله عنه إلى من انتدب إلى الأندلس :

أما بعد . . فإن القسطنطينية انما تفتح من قبل الأندلس وانكم إن افتتحتموها كنتم شركاء في الأجر فيقال أنها فتحت في تلك الأزمان ، وستفتتح مرة أخرى ، كما في أحاديث الباب وقد قال بعض علمائنا أن حديث أبي هريرة

---

(١) رواه الترمذي موقوفا وقال : حديث غريب . قال القرطبي معقبا : والقسطنطينية مدينة الروم : وتفتح عند خروج الدجال . والقسطنطينية قد فتحت في زمن بعض اصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم .

يدل على أنها تفتح بالقتال وحديث ابن ماجه يدل على خلاف ذلك مع حديث أبي هريرة . . والله أعلم » .

* * *

ثم أوضح فقال : « لعل فتح المهدي يكون لها مرتين مرة بالقتال ، ومرة بالتكبير كما أنه يفتح كنيسة الذهب مرتين ، فإن المهدي إذا خرج بالمغرب على ما تقدم جاءت اليه أهل الأندلس فيقولون يا ولي الله انصر جزيرة الأندلس فقد تلفت وتلف أهلها وتغلّب عليها أهل الكفر والشرك من أبناء الروم فيبعث كتبه إلى جميع قبائل المغرب وهم قزولة وخذالة وغيرهم من القبائل من أهل المغرب أن انصروا دين الله وشريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، فيأتون اليه من كل مكان ويجيبونه ويقفون عند أمره ويكون على مقدمته صاحب الخرطوم وهو صاحب الناقة الغراء وهو صاحب المهدي وناصر دين الاسلام وولي الله حقاً فعند ذلك يبايعونه ثمانون ألف مقاتل بين فارس وراجل قد رضي الله عنهم . .

﴿ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ . .

فباعوا أنفسهم لله ، والله ذو الفضل العظيم ، فيعبرون البحر حتى ينتهو إلى حمص وهي أشبيلية[1] ، فيصعد المنبر في المسجد الجامع ويخطب خطبة بليغة فيأتي اليه أهل الأندلس فيبايعه جميع مَنْ بها من أهل الاسلام ثم يخرج بجميع المسلمين متوجهاً إلى بلاد الروم فيفتح فيها سبعين مدينة من مدائن الروم ويخرجها من أيدي العدو عنوة . الحديث .

وفيه ثم إن المهدي ومن معه يصلون إلى كنيسة الذهب فيجدون فيها أموالا فيأخذها المهدي فيقسمها بين الناس بالسوية ثم يجد فيها تابوت السكينة ، وفيها غفارة عيسى ، وعصا موسى عليهما السلام ، وهي العصا التي هبط بها آدم من الجنة حين أخرج منها وكان قيصر ملك الروم قد أخذها من بيت المقدس في جملة السبي حين سبى بيت المقدس واحتمل جميع ذلك إلى

---

(١) اشبيلية : احدى مدن الاندلس .

كنيسة الذهب فهو فيها إلى الآن حتى يأخذها المهدي ، فإذا أخذ المسلمون العصا تنازعوا عليها فكل منهم يريد أخذ العصا ، فإذا أراد الله تمام أهل الاسلام من الأندلس خذل الله رأيهم وسلب ذوي الألباب عقولهم فيقسمون العصا على أربعة أجزاء فيأخذ كل عسكر منهم جزءاً وهم يومئذ أربعة عساكر وإذا فعلوا ذلك رفع الله عنهم الظفر والنصر ووقع الخلاف في ذلك بينهم ، قال كعب الأحبار (١) : ويظهر عليهم أهل الشرك حتى يأتوا البحر فيبعث الله اليهم ملكاً في صورة ابل فيجوز بهم القنطرة التي بناها ذو القرنين لهذا المعنى خاصة فيأخذ الناس وراءه حتى يأتوا مدينة فارس والروم وراءهم فلا يزالون كذلك كلما ارتحل المسلمون مرحلة ارتحل المشركون كذلك حتى يأتوا إلى أرض مصر والروم وراءهم وفي حديث حذيفة « ويتملكون مصر إلى الفيوم ثم يرجعون » والله تعالى أعلم .

* * *

خلاصة القول في المهدي :

إنه رجل من الصالحين .. من نسل سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم يظهره الله ليحارب المسيح الدجال .. فيهزمه .. ويهزم .. وتدور الحرب بينهما .. الا أن يبعث الله عيسى بن مريم فيقتل المسيح الدجال .. ويقيم دولة الاسلام على الأرض .. ويكون المهدي بمثابة وزير له ..

* * *

المسيح الدجال :

- عن أبي سعيد الخدري قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً حديثاً طويلاً عن الدجال فكان فيما حدثنا قال :

---

(١) كعب الأحبار : كعب بن مانع الحميري أبو اسحاق المعروف بكعب الاحبار ثقة من الثانية مخضرم : كان من أهل اليمن فسكن الشام مات في خلافة عثمان وقد زاد على المائة .

« يأتي وهو محرَّم عليه أن يدخل نقاب المدينة فينتهي إلى بعض السباخ [1] التي تلي المدينة فيخرج اليه يومئذ رجل هو خير الناس أو من خير الناس فيقول له : أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثه فيقول الدجال : أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته أتشكون في الأمر ؟ فيقولون لا قال : فيقتله ثم يحييه فيقول حين يحييه : والله ما كنت فيك قط أشد بصيرة مني الآن : قال فيريد الدجال أن يقتله فلا يسلط عليه »[2] .

ـ وعن عمرو بن حريب أن أبا بكر الصديق أفاق من مرض له فخرج إلى الناس فاعتذر بشيء وقال : ما أردنا إلا الخير : ثم قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن الدجال يخرج في أرض بالمشرق يقال لها خراسْان يتبعه أقوام كأن وجوههم المجان المطرقة »[3] . .

ـ وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يخرج الدجال فيتوجه قبل رجل من المؤمنين فتلقاه المسالح [4] مسالح الدجال [5] فيقولون له أين تعمد [6] ؟ فيقول أعمد إلى هذا الذي خرج قال : فيقولون له أوما تؤمن بربنا ؟ فيقول : ما بربنا خفاء : فيقولون اقتلوه فيقول بعضهم لبعض : أليس قد نهاكم ربكم أن تقتلوا أحداً دونه ؟ قال : فينطلقون إلى الدجال فإذا رآه المؤمن قال: يا أيها الناس هذا الدجال الذي ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيأمر الدجال به فيشج فيقول:خذوه وشجوه فيوسع ظهره وبطنه ضرباً قال : أما تؤمن بي ؟ قال فيقول : أنت المسيح الكذاب : قال: فيؤمر به فينشر بالمنشار من مفرقه حتى يفرق بين رجليه قال: ثم يمشي

---

(١) السباخ : موضع يلي المدينة من سبخ أي ملح .

(٢) الحديث صحيح أورده أصحاب السنن .

(٣) الحديث اخرجه أصحاب السنن وهو صحيح .

(٤) المسالح : القوم ذو سلاح .

(٥) مسالح الدجال : جنوده المسلحون معه .

(٦) أين تقصد ؟

المصري فذكره فقوله : « ولا مهدي إلا عيسى » يعارض أحاديث هذا الباب فقيل : إن هذا الحديث لا يصح لأنه انفرد بروايته محمد بن خالد الجندي . قال الحاكم أبو عبد الله الحافظ : الجندي هذا مجهول واختلف عليه في اسناده قتادة يرويه عن أبان بن صالح عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلاً مع ضعف أبان وتارة يرويه عن أبان بن صالح عن الحسن عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم بطوله فهو منفرد به مجهول عن أبان وهو متروك عن الحسن منقطع والأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في التنصيص على خروج المهدي من عترته من ولد فاطمة ثابتة من هذا الحديث فالحكم لها دونه .

قلت : ونور ضريحه وذكر أبو الحسن علي بن المفضل المقدسي شيخ أشياخنا محمد بن خالد الجندي روى عن ابان بن صالح عن الحسن البصري وروى فيه الإمام ابن ادريس الشافعي رضي الله عنه وهو راوي حديث : « لا مهدي إلا عيسى بن مريم » وهو مجهول وقد وثقه يحيى بن معين . . روى له ابن ماجة .

قال أبو الحسن محمد بن الحسين بن ابراهيم بن عاصم الأبري السجزى قدتواترت الأخبارواستفاضت بكثرة رواتها عن المصطفى صلى الله عليه وسلم يعني المهدي أنه من أهل بيته وأنه سيملك سبع سنين وأنه يملأ الأرض عدلا يخرج مع عيسى عليه السلام فيساعده على قتل الدجال بباب لد بأرض فلسطين وأنه يؤم هذه الأمة وعيسى صلوات الله عليه يصلي خلفه في طول من قصته وامره .

قلت : ويحتمل أن يكون قوله عليه الصلاة والسلام : « ولا مهدي إلا عيسى » أي لا مهدي كاملا معصوماً إلا عيسى وعلى هذا تجتمع الأحاديث ويرتفع التعارض » أ . هـ .

* * *

[illegible] (٨٨٨) (٣)
[illegible] (٨)
[illegible] (٨)
[illegible] (١)

[illegible]

[illegible]

[illegible] (٣) [illegible]

[illegible]

[illegible] (٨) [illegible]

[illegible]

[illegible] (٨) [illegible]

[illegible]

* * *

[illegible] (١) [illegible]

[illegible]

كذلك . . فهناك ارتباط بين نزول عيسى عليه السلام والدجال . . لأنه عليه السلام سيقتل الدجال . . كما سيأتي وقد ذكر القرآن نزول عيسى عليه السلام فقال :

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ، وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا • بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا • وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾[1] .

قال العلامة ابن كثير في النهاية : « وقد قررنا في التفسير أن الضمير في قوله قبل موته عائد على عيسى أي سينزل إلى الأرض ويؤمن به أهل الكتاب الذين اختلفوا فيه اختلافاً متباينا فمن مدعى الالهية كالنصارى ومن قائل فيه قولا عظيما وهو أنه ولد ريبة وهم اليهود فإذا نزل قبل يوم القيامة تحقق كل من الفريقين كذب نفسه فيما يدعيه فيه من الافتراء » . . .

وعلى هذا يكون ذكر نزول المسيح عيسى بن مريم اشارة إلى ذكر المسيح الدجال شيخ الضلال وهو ضد مسيح الهدى ومن عادة العرب أنها تكتفي بذكر أحد الضدين عن ذكر الآخر .

كذلك لم يذكر بصريح اسمه في القرآن احتقاراً له حيث يدعى الالوهية ، وهو ليس ينافي حالة جلال الرب وعظمته وكبريائه وتنزيهه عن النقص فكان أمره عند الرب أحقر من أن يذكر وأصغر وأدحر من أن يحكى عن أمر دعواه ويحذر ، ولكن انتصر الرسل بجناب الرب عز وجل فكشفوا لأممهم عن أمره وحذروهم ما معه من الفتن المضلة والخوارق المضمحلة فاكتفى باخبار الأنبياء . . وتواتر ذلك عن سيد ولد آدم امام الاتقياء عن أن يذكر أمره الحقير بالنسبة إلى جلال الله في القرآن العظيم ، ووكل بيان أمره إلى كل نبي كريم فإن قلت : فقد ذكر فرعون في القرآن وقد ادعى ما ادعاه من الكذب والبهتان حيث قال :

---

(١) النساء : ١٥٧ - ١٥٩ .

﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴾[1] .

وقال :

﴿ يَا أَيُّهَا الملأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾[2] . .

والجواب : أن أمر فرعون قد انقضى وتبين كذبه لكل مؤمن وعاقل ، وهذا أمر سيأتي وكائن فيها يستقبل فتنة واختباراً للعباد فترك ذكره في القرآن احتقاراً له وامتحانا به إذ الأمر في كذبه أظهر من أن ينبه عليه ويحذر منه وقد يترك الشيء لوضوحه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في مرض موته وقد عزم على أن يكتب كتاباً بخلافة الصديق من بعده ثم ترك ذلك وقال :

« يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر » . .

فترك نصه عليه لوضوح جلالته وظهور كبر قدره عند الصحابة ، وعلم عليه الصلاة والسلام منهم أنهم لا يعدلون أحداً بعده وكذلك وقع الأمر ولهذا يذكر هذا الحديث في دلائل النبوة . . وهذا المقام الذي نحن فيه من هذا القبيل وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم قد يكون ظهوره كافياً للتنصيص عليه، وأن الأمر أظهر وأوضح وأجلى من أن يحتاج معه زيادة على ما هو في القلوب مستقر فالدجال واضح الذم ظاهر النقص بالنسبة إلى المقام الذي يدعيه وهو الربوبية ، فترك الله ذكره والنص عليه لما يعلم تعالى من عباده المؤمنين أن مثل هذا لا يهدهم ولا يزيدهم إلا ايماناً وتسليماً لله ورسوله وتصديقا بالحق ورداً للباطل ، ولهذا يقول ذلك المؤمن الذي يسلط عليه الدجال فيقتله ثم يحييه : والله ما ازددت فيك الا بصيرة : أنت الأعور الكذاب الذي حدثنا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم شفاها ، وقد أخذ بظاهره ابراهيم بن محمد بن سفيان الفقيه الصحيح عن مسلم ، فحكى عن بعضهم أنه الخضر وحكاه القاضي عياض عن معمر في جامعه .

---

(١) النازعات : ٢٤ .

(٢) القصص : ٣٨ .

وقد قال أحمد في مسنده وأبو داود في سننه والترمذي في جامعه باسنادهم إلى أبي عبيدة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« لعله يدركه من رآني وسمع كلامي » أ . هـ .

وهذا مما قد يتقوى به بعض من يقول بهذا ، ولكن في اسناده غرابة ، ولعل هذا كان قبل أن يبين له صلى الله عليه وسلم من أمر الدجال ما بين في ثاني الحال . . والله تعالى أعلم[1] أ . هـ

* * *

العصمة من فتنة الدجال :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعيذ من فتنة المسيح الدجال فيقول :

« اللهم إنا نعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن فتنة القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال » أ . هـ .

ـ وعن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

«من حفظ عشر آيات من سورة الكهف عصمه الله من فتنة الدجال » أ . هـ أخرجه أبو داود .

ومما يعصم من فتنته لعنه الله : . سكن المدينة ومكة . . فقد شرفهما الله تعالى بذلك .

ـ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

« على أنقاب المدينة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال » أ . هـ أخرجه البخاري ومسلم .

ـ وعن أبي بكر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

---

(١) النهاية في الفتن والملاحم (١٦٩/١) طبعة دار التراث الاسلامي .

« لا يدخل المدينة رعب المسيح الدجال ، لها يومئذ سبعة أبواب على كل باب ملكان » أ . هـ أخرجه البخاري .

وقد ثبت في الصحيح « أنه لا يدخل مكة ولا المدينة تمنعه الملائكة » .

وذلك كما قال ابن كثير لأن هاتين البقعتين حرمان آمنان منه ، وانما إذا نزل عند سبخة المدينة فترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات اما حساً أو معنى على القولين فيخرج منها كل منافق ومنافقة ، ويومئذ تنقى المدينة خبثها ويسطع[1] طيبها ، كما تقدم في الحديث . . والله أعلم .

* * *

خلاصة القول في المسيح الدجال :

المسيح الدجال . . سمي بذلك لمسح احدى عينيه . . وسمى المسيح . . لمساحته وقبحه . . وهو فتنة الناس قرب قيام الساعة . . وبه يعرف كل انسان مكانته عند الله . . ومدى قوة ايمانه . .

ـ وعن أبيه حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عنه ابن أبي بكرة عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يمكث أبو الدجال ثلاثين عاماً لا يولد لهما غلام ثم يولد لهما بعد الثلاثين غلام أعور أضرر شيء وأقله نفعاً تنام عيناه ولا ينام قلبه »[2] .

ثم نَعَتَ أبويه فقال :

« أبوه رجل مضطرب اللحم طويل الأنف كأن أنفه منقار وأمه امرأة عظيمة الثديين ثم بلغنا أن مولوداً من اليهود ولد بالمدينة قال : فانطلقت والزبير ابن العوام حتى دخلنا على أبويه فوجدنا فيهما نَعْتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وإذا هو منجدل[3] في الشمس في قطيفة يهمهم فسألنا أبويه فقالا مكثنا

---

(١) يسطع الطيب : يفوح وتنتشر رائحته الذكية .
(٢) أخرجه أحمد ، كذا أخرجه الترمذي من طريق آخر .
(٣) منجدل : منطرح على الجدالة ، والجدالة الأرض .

ثلاثين عاماً لا يولد لنا ثم ولد لنا غلام أعور أضرز شيء ، وأقله نفعاً ، فلما خرجنا مررنا فقال :

« عرفت ما كنتما فيه : قلنا وسمعت ؟ قال : نعم : انه تنام عيناي ولا ينام قلبي » فإذا هو ابن صياد

* * *

قال ابن كثير في النهاية : « وقد كان ابن صياد من يهود المدينة ولقبه عبد الله ويقال صاف ، وقد جاء هذا وهذا ، وقد يكون أصل اسمه صاف ثم سمي لما أسلم بابن عبد الله ، وقد كان ابنه عمارة بن عبد الله من سادات التابعين ، وروي عنه مالك وغيره ، والصحيح أن الدجال غير ابن صياد ، وأن ابن صياد كان دجالاً من الدجاجلة ، ثم تاب بعد ذلك فأظهر الإسلام والله أعلم بضميره وسريرته.

وأما الدجال الأكبر فهو المذكور في حديث فاطمة بنت قيس الذي روته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تميم الداري وفيه قصة الجساسة ثم يؤذن له في آخر الزمان بعد فتح المسلمين مدينة الروم المسماة بقسطنطينية فيكون بدء ظهوره من أصبهان من جارة منها يقال لها اليهوديةوينصره من أهلها سبعون ألف يهودي عليهم الأسلحة والتيجان وهي الطيالسة الخضراء وكذلك ينصره سبعون ألفاً من التتار وخَلْق من أهل خراسان فيظهر أولاً في صورة ملك من الملوك الجبابرة ثم يدعي النبوة ثم يدعي الربوبية فيتبعه على ذلك الجهلة من بني آدم والطغاة من الرعاع والعوام ، ويخالفه ويرد عليه من هدى الله من عباده الصالحين وحزب الله المتقين ، يأخذ البلاد بلداً بلداً وحصناً حصناً واقليماً اقليماً وكورة كورة[1] ، ولا يبقى بلد في البلاد الاوطئه بخيله وَرَجْلِهِ غير مكة والمدينة ، ومدة مقامه في الأرض أربعون يوماً ، يوم كسنة ، ويوم كشهر ونصف شهر ، وقد خلق الله تعالى على يديه خوارق كثيرة يضل بها من يشاء من خلقه ويثبت معها المؤمنون فيزدادون بها إيماناً مع ايمانهم ، وهدى إلى هداهم ،

---

(١) الكورة المدينة والصقع والمنطقة .

ويكون نزول عيسى بن مريم مسيح الهدى في أيام المسيح الدجال مسيح الضلالة ، على المنارة الشرقية بدمشق فيجتمع عليه المؤمنون ويلتف به عباد الله المتقون ، فيسير بهم المسيح عيسى بن مريم قاصداً نحو الدجال ، وقد توجه نحو بيت المقدس فيدركهم عند عقبة أفيق فيهرب منه الدجال فيلحقه عند مدينة باب لد ، فيقتله بحربته وهو داخل اليها ويقول إن لي فيك ضربة لن تفوتني ، وإذا واجهه الدجال ينماع[1] كما يذوب الملح في الماء ، فيتداركه فيقتله بالحربة بباب لد ، فتكون وفاته هناك لعنه الله كما دلت على ذلك الأحاديث الصحاح من غير وجه كما تقدم[2] .

* * *

نزول المسيح عليه السلام :

تقدم الكلام عن نزول المسيح عند المنارة البيضاء وقتله للدجال . . وبيان الاشارة القرآنية في ذلك . .

وقد قال تعالى :

﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾[3] . . .

أي موت عيسى عليه السلام .

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً يكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها » ؟ ٠هـ[4] .

---

(١) فينماع : يذوب ويضمحل .
(٢) النهاية في الفتن والملاحم (١ / ١٧٤) ط دار التراث الاسلامي .
(٣) النساء : ١٥٩ .
(٤) أخرجه الشيخان .

وعن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لا يزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة فينزل عيسى بن مريم فيقول أميرهم تعالَ صَلِّ لنا فيقول : ألا إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة » ؟ ٠هـ[1] .

ـ وعن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ينزل عيسى بن مريم إلى الأرض فيتزوج ويولد له ويمكث خمساً وأربعين سنة ، ثم يموت فيدفن معي في قبر ، فأقوم أنا وعيسى بن مريم في قبر واحد بين أبي بكر وعمر » ؟ ٠هـ[2] .

قال السفاريني « قد اجتمعت الأمة على نزوله ولم يخالف فيه أحد من أهل الشريعة ، وإنما أنكر ذلك الفلاسفة والملاحدة ممن لا يعتد بخلافه ، وقد انعقد اجماع الأمة على أنه ينزل ويحكم بهذه الشريعة المحمدية ، وليس ينزل بشريعة مستقلة عند نزوله من السماء ، وإن كانت النبوة قائمة به وهو متصف بها » ؟ ٠هـ[3] . .

فعيسى عليه السلام قد بلّغ رسالته إلى قومه . . وأدى أمانته . . ونزوله هذه المرة كعبد صالح يحكم بشرع الإسلام لا بنهج المسيحية . . ذلك أن المسيحية إنما كانت تناسب امكانيات العصر الذي نزلت فيه . . أما الإسلام فهو دين الشمولية والعمومية والمناسب للأزمان والدهور حتى يرث الله الأرض وَمَنْ عليها . .

* * *

وقد ذكر البخاري في صفات عيسى عليه السلام أنه أحمر أجعد عريض الصدر من آدم الرجال سبط الشعر ، ينطف أي يقطر له لمة قدر جلها ، مربوع الخَلْقِ ، سبط الرأس كأنما خرج من ويماس .

---

(١) أخرجه مسلم .

(٢) أخرجه ابن الجوزي في الوفاء .

(٣) راجع نهاية البداية والنهاية لابن كثير ففيها تفصيل وبيان .

وقد سبق أنه يدق الصليب أي يكسره ويقتل الخنزير والقردة ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام ويوحد الدين فلا يعبد إلا الله ويترك الصدقة أي الزكاة لعدم من يقبلها، ولا يرغب في اقتناء المال للعلم بقرب الساعة ، ويكون مقرراً للشريعة الإسلامية ، لا رسولاً إلى هذه الأمة .

وتظهر الكنوز في زمنه ، وترفع الشحناء والتباغض ، وينزع الله سم كل ذي سم حتى تلعب الأولاد بالحيات والعقارب فلا تضرهم ، ويملأ الأرض سِلْماً وينعدم القتال وتنبت الأرض نبتها كعهد آدم حتى يجتمع النفر على القطف من العنب ، وكذا الرمانة ، وكل ذلك مستقي من الأخبار والآثار المستفيضة المشهورة .

وينزل عند المنارة البيضاء شرق دمشق كما تقدم .. واضعاً كفيه على أجنحة ملكين ، إذا طأطأ رأسه قطر ، وإذا رفع رأسه تحدر منه جمان كاللؤلؤ ، فلا يحل لكافر يجد ريحه إلا مات ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه . .

وذكر في الاذاعة : أن نزوله سيكون لست ساعات مضين من النهار حتى يأتي مسجد دمشق ، ويقعد على المنبر ، فيدخل المسلمون وكذا النصارى واليهود كلهم يرجونه حتى لو ألقى شيء لم يصب إلا رأس إنسان من كثرتهم ، ويأتي مؤذن المسلمين ، وصاحب بوق اليهود وناقوس النصارى فيقترعون ، فلا يخرج إلا سهم المسلمين .

وحينئذ يؤذن مؤذنهم ، ويخرج اليهود والنصارى من المسجد ويصلي بالمسلمين صلاة العصر ، ثم يخرج بمن معه من أهل دمشق في طلب الدجال ، فيقتله بباب لد عند بيت المقدس ، ولُدّ بوزن مُدّ : وهي بلد[1] مشهور بينه وبين رملة فلسطين مقدار فرسخ إلى جهة الشمال متصل شجرها بشجرها ، فيقتله هناك .

---

(١) لد : بالضم والتشديد .. هو جمع : الد ، والألد الشديد الخصومة .. قرية قرب بيت المقدس من نواحي فلسطين ببابها يدرك عيسى الدجال فيقتله .. كذا جاء في « معجم البلدان » .

قال السفاريني : ويكون قد علم أحكام هذه الشريعة بأمر الله تعالى، وهو في السماء قبل أن ينزل . .

* * *

مسألة :

في الحديث المرفوع : « وتسلب قريش ملكها » ؟ ا هـ

قال السخاوي في القناعة ، وابن حجر المكي في القول المختصر : معنى ذلك لا يبقى لقريش اختصاص بشيء دون مراجعته ، فلا يعارض ذلك خبر « لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان » قال السفاريني : فإن قلت : كيف يصح هذا الخبر مع مشاهدتنا انفصال قريش عن الملك منذ أزمان ؟ . .

وأجاب عنها في الاذاعة فقال : « فالجواب استحقاقها لهذا الأمر ، وإن ظلمها ظالم ، وأما عيسى فيظهر كمال العدل ، فلا يأخذ حقهم ، وربما أن يكون بقاء الأمر في قريش ولو مراجعة ، ولا شك أن قريشاً يراجعون على أن ملوك زماننا يزعمون انما يمتلكون بالنيابة عن قريش ؟ ويعملون صورة نيابة عن نصيب السادة الأشراف على أن لبني هاشم استقلالاً بالأمر في محلات كالحجاز واليمن والمغرب وغيرها .

ثم إنه لا يخفى أنه يقال أن في أيام عيسى يكون المهدي مع كون عيسى رسولاً من أولي العزم معصوماً ، والمهدي رجل مجتهد .

نعم يكون المهدي من خواص السيد عيسى ، بل ووزيره المقرب لديه يراجعه في الأمور وتصدر عنه الشورى ، وبالله التوفيق » ؟ ا هـ[1] . .

وختاماً فقد ثبت عن أنس رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أدرك عيسى منكم فليقرئه مني السلام » ؟ ا هـ[2] .

* * *

---

(١) الاذاعة (١٦٢) .
(٢) أخرجه البخاري .

خروج يأجوج ومأجوج :

قال تعالى :

﴿ يا ذا القرنين أن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض ﴾[1] . .

وقال :

﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج ، وهم من كل حدب ينسلون ﴾[2] .

وقد أن خروج يأجوج ومأجوج من العلامات العشر لقرب الساعة ، وخروج يأجوج ومأجوج في أيام عيسى عليه السلام بعد قتله الدجال فيهلكهم الله أجمعين ليلة واحدة ببركة دعائه عليهم قال تعالى :

﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين ﴾[3] . .

* * *

وقد جاءت حكايته مع ذي القرنين في القرآن فقال تعالى :

﴿ ثم أتبع سبباً حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً قالوا يا ذا القرنين أن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً ، قال ما مكّني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً آتوني زُبرَ الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال آتوني افرغ عليه قطراً فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله

دَكَّاء وَكَانَ وَعْدُ رَبِي حَقّاً وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمئذٍ يموجُ في بَعْضٍ وَنُفِخَ في الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعَاً ﴾[1] . .

قال ابن كثير في النهاية « وقد ذكرنا في التفسير في قصة ذي القرنين وخبر بنائه للسد من حديد ونحاس بين جبلين فصار ردماً واحداً ، وقال : هذا رحمة من ربي أن يحجز به بين هؤلاء القوم المفسدين في الأرض وبين الناس ، فإذا جاء وعد ربي أي الوقت الذي قدر انهدامه فيه جعله دكاً أي مساوياً للأرض وكان وعد ربي حقاً أي وهذا شيء لا بد من كونه ، وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ، يعني بذلك يوم الانهدام يخرجون على الناس فيمرحون فيهم وينسلون ، أي يسرعون لشيء ما من كل حدب ثم يكون النفخ في الصور للفزع قريباً من ذلك الوقت كما قال في الآية الأخرى :

﴿ حَتَّى إذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ وَاقْتَرَبَ الوَعْدُ الحقُّ فَإذَا هِيَ شَاخِصَةٌ . . ﴾[2] . .

* * *

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا وعقد تسعين » ؟ ٠هـ .

وعن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« تفتح يأجوج ومأجوج فيخرجون كما قال الله تعالى :

﴿ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ .

فيفشى[3] الناس وينحازون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم ، ويضمون إليهم مواشيهم ، فيضربون ويشربون مياه الأرض حتى أن بعضهم ليمر بذلك

---

(١) الكهف : ٩٢ ـ ٩٩ .
(٢) الانبياء : ٩٦ ، ٩٧ .
(٣) أي ينطلقوا خائفين .

النهر فيقول : قد كان ها هنا ماء مرة ، حتى إذا لم يبق من الناس أحد إلا أخذ في حصن أو مدينة قال قائلهم هؤلاء أهل الأرض ، قد فرغنا منهم ، بقي أهل السماء : قال: ثم يهز أحدهم حربته ثم يرمي بها إلى السماء فترجع إليهم مخضبة دماء للبلاء والفتنة فبينما هم على ذلك إذ بعث الله عليهم داء في أعناقهم كنغف الجراد الذي يخرج في أعناقه ، فيصبحون موتى لا يُسمع لهم حسٌّ ، فيقول المسلمون : ألا رجل يشري لنا نفسه فينظر ما فعل هذا العدو؟ قال فينجرد رجل منهم محتسباً نفسه ، وقد أوطنها على أنه مقتول فينزل فيجدهم موتى بعضهم على بعض ، فينادي : يا معشر المسلمين ألا أبشروا ، إن الله قد كفاكم عدوكم ، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم ويسرحون مواشيهم فما يكون لها مرعى إلا لحومهم فتشكر [١] عنهم كأحسن ما شكرت عن شيء من النبات أصابته »[٢] ؟ ا.هـ .

- وفي حديث مدبر بن عبادة عن ابن مسعود في اجتماع الأنبياء يعني محمد وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام :

« وتذاكرهم أمر الساعة وردهم أمرهم إلى عيسى وقوله :

« أما حينها فلا يعلم به إلا الله ، وفيما عهد إلى ربي أن الدجال خارج ومعه قضيبان فإذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص قال : فيهلكه الله إذا رآني حتى أن الحجر والشجر ليقول : يا مسلم إن تحتي كافراً فتعال فاقتله ؟ قال : فيهلكهم الله ، ويرجع الناس إلى أوطانهم ، قال : فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيطؤون بلادهم ، لا يمرون على شيء إلا أهلكوه ، ولا يمرون على ماء إلا شربوه قال : ثم يرجع الناس يشكونهم فأدعو الله عليهم فيهلكهم الله ويميتهم حتى تمتلىء الأرض من نتن ريحهم ، وينزل الله المطر فيجرف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر ، ففيما عهد إلى ربي أن ذاك إذا

---

(١) أي تسمن من شكر على وزن فرح .
(٢) أخرجه أحمد وهذا لفظه وكذلك أخرجه ابن ماجة باسناد جيد .

كان كذلك فإن الساعة كالحامل المتم لا يدري أهلها متى تفجأهم بولادتها ليلاً أو نهاراً » ١٠٢هـ .

قال ابن كثير في النهاية : « يأجوج ومأجوج طائفتان من الترك من ذرية آدم عليه السلام كما ثبت في الصحيح : يقول الله تعالى يوم القيامة .

يا آدم فيقول : لبيك وسعديك فينادي بصوت ابعث بعث النار فيقول كم ؟ فيقول من كل ألف تسعمائة وتسع وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة ، فيومئذ يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها ، فيقال : أبشروا ، فإن في يأجوج ومأجوج كل فداء ، وفي رواية فيقال : إن فيكم أمتين ما كانتا في شيء إلا كثرتاه ، يأجوج ومأجوج » ١٠١هـ .

وهم يشبهون الناس كأبناء جنسهم من الأتراك المخرومة عيونهم ، الزلف أنوفهم [1] الصهب شعورهم على أشكالهم وألوانهم ، ومن زعم أن منهم الطويل الذي كالنخلة السحوق أو أطول ، ومنهم القصير الذي هو كالشيء الحقير ، ومنهم من له أذنان يتمطى باحداهما ويتوطى بالأخرى ، فقد تكلف ما لا علم له به ، وقال ما لا دليل عليه ، وقد ورد في حديث : « إن أحدهم لا يموت حتى يرى من نسله ألف انسان ، والله أعلم بصحته » .

ـ عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم ، ولو أرسلوا لأفسدوا على الناس معايشهم ، ولن يموت منهم رجل إلا ترك ألفاً فصاعداً ، وإن من ورائهم ثلاث أمم ، تأويل ومارسي ومنسك »[2] .

وعن كعب الأحبار في تفسير قوله تعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ ..

إن أول ظهور ذي السويقين في أيام عيسى بن مريم عليه السلام ، وذلك

---

(١) زلف : من القرابة .. أي قريبة أنوفهم يعني صغيرة .
(٢) أخرجه الطبراني وهو حديث غريب .

بعد هلاك يأجوج ومأجوج، فيبعث اليهم عيسى عليه السلام طليعة ما بين السبعمائة إلى الثمانمائة فبينما هم يسيرون إليه إذ بعث الله ريحاً يمانية طيبة فيقبض بها روح كل مؤمن، ثم يبقى عجاج[1]، من الناس يتسامذون كما تتسامذ البهائم ثم قال كعب: وتكون الساعة قريباً حينئذ: قال ابن كثير: وقد تقدم في الحديث الصحيح أن عيسى عليه السلام يحجج بعد نزوله إلى الأرض» ؟ ٠ هـ[2].

* * *

الدابة التي تكلم الناس :

قال تعالى :

﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ ﴾[3] . .

أي تكلم المؤمن والكافر . .

وقيل: تخرج الدابة من مدينة قوم لوط، وقيل من أودية تهامة خارج مكة، وقيل من مكة وهو المشهور . .

قال في الاذاعة: «ويجمع بين هذه الأقوال بما جاء في الأحاديث المرفوعة والموقوفة كما قال الحافظ السخاوي وغيره من أنها تخرج ثلاث خرجات :

الأولى: من أقصى البادية، ولا يدخل ذكرها القرية، يعني مكة، ثم يمكث زماناً طويلاً . . ثم تخرج مرة أخرى دون تلك أي من بادية قريبة من تلك البادية فيعلو ذكرها في أهل البادية، ويدخل ذكرها القرية، يعني مكة.

الثالثة: خروجها العام من مكة . . فَتَسِمُ المؤمنَ فيبيض وجهه ويُكتبُ

---

(١) أي رعاعهم .
(٢) النهاية بتصرف (٢٠١ ، ٢٠٢/ج١)
(٣) النمل : ٨٢

بين عينيه مؤمن وَتَسِمُ الكافرَ ويُكْتبُ بين عينيه : كافر ، فَيسْودّ وجهه وتطوف الأرضَ كلها .

* * *

طلوع الشمس من مغربها :

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً : طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة الأرض » ؟ ٠هـ[1] . .

ـ عن صفوان بن عسال المرادي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن بالمغرب باباً مفتوحاً للتوبة مدة سبعين سنة لا يغلق حتى تطلع الشمس من نحوه » ؟ ٠هـ[2] .

وذكر أبو اسحاق الثعلبي وغيره من المفسرين في حديث فيه طول عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ما معناه أن الشمس تحبس على الناس حتى تكثر المعاصي في الأرض ويذهب المعروف فلا يأمر به أحد ويفشو المنكر فلا ينهي عنه أحد مقدار ليلة تحت العرش كلما سجدت واستأذنت ربها عز وجل من أين تطلع فلا يمر اليها جواب حتى يجلسا مقدار ثلاث ليال للشمس وليلتين للقمر فلا يعرف ما طول تلك الليلة إلا المتهجدون في الأرض وهم يومئذ عصابة قليلة في كل بلدة من بلاد المسلمين فإذا تم لهما مقدار ثلاث ليال أرسل الله تعالى اليهما جبريل عليه السلام فيقول : إن الرب سبحانه وتعالى يأمركما أن ترجعا إلى مغاربكما فتطلعا منه وأنه لا ضوء لكَمَا عندنا ولا نور فيطلعان من مغاربهما أسودين لا ضوء للشمس ولا نور مثلهما في كسوفهما قبل ذلك قوله تعالى :

﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالقَمَرُ ﴾[3] . .

---

(١) أخرجه مسلم .
(٢) أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .
(٣) القيامة : ٩

وقوله :

﴿ إذا الشمس كورت ﴾[1] ..

فيرتفعان كذلك مثل البعيرين والفرسين فإذا ما بلغ الشمس والقمر سرة السماء وهي نصفها جاءهما جبريل فأخذ بقرونهما وردهما إلى المغرب فلا يقربهما من مغاربهما ولكن يقربهما من باب التوبة ثم يرد المصراعين ثم يلتئم بينهما فيصير كأنه لم يكن بينهما صدع فإذا أغلق باب التوبة لم يقبل لعبد بعد ذلك توبة ولم تنفعه حسنة يعملها من كان قبل ذلك محسناً فإنه يجرى عليه ما كان عليه قبل ذلك اليوم فذلك قوله تبارك وتعالى :

﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيراً ﴾[2] ..

ثم أن الشمس والقمر يكسبان بعد ذلك الضوء ، والنور ثم يطلعان على الناس ويغربان كما كانا قبل ذلك يطلعان ويغربان ، وذكر الميانشي ، وقال عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم ويبقى الناس بعد طلوع الشمس من مغربها عشرين ومائة سنة .

* * *

قال القرطبي في التذكرة : « قال العلماء : وانما لا ينفع نفساً ايمانها عند طلوعها من مغربها لأنه خلص إلى قلوبهم من الفزع ما تخمد معه كل شهوة من شهوات النفس وتغتر كل قوة من قوى البدن فيصير الناس كلهم لايقانهم بدنو القيامة في حال من حضره الموت في انقطاع الدواعي إلى أنواع المعاصي عنهم وبطلانها من أبدانهم فمن تاب في مثل هذه الحال لم تقبل توبته كما لا تقبل توبة من حضره الموت .

قال صلى الله عليه وسلم : « أن الله يقبل توبة العبد ما لم يغر غر » أ .

---

(١) التكوير : ١ .

(٢) الأنعام : ١٥٨ .

هـ[1] أي تبلغ روحه رأس حلقه وذلك وقت المعاينة الذي يرى فيه مقعده من الجنة ومقعده من النار فالمشاهد لطلوع الشمس من مغربها مثله .

وعلى هذا ينبغي أن تكون توبة كل من شاهد ذلك أو كان كالمشاهد له مردودة ما عاش لأن علمه بالله تعالى ونبيه صلى الله عليه وسلم وبوعده قد صار ضرورة فإن امتدت أيام الدنيا إلى أن ينسى الناس من هذا الأمر العظيم ما كان ولا يتحدثون عنه قليلا فيصير الخبر عنه خاصاً وينقطع التواتر عنه فمن أسلم في ذلك الوقت أو تاب قبل منه . . والله أعلم .

الحكمة في طلوع الشمس من مغربها :

وقد قيل : أن الحكمة في طلوع الشمس من مغربها أن ابراهيم عليه السلام قال للنمرود :

﴿ فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر ﴾[2] . .

وإن الملحدين والمنجمين عن آخرهم ينكرون ذلك ويقولون هو غير كائن فيطلعها الله تعالى يوماً من المغرب ليرى المنكرين لذلك قدرته من أن الشمس في قدرته إن شاء أطلعها من المشرق ، وإن شاء أطلعها من المغرب وعلى هذا يحتمل أن يكون رد التوبة والايمان على من آمن وتاب من المنكرين وكذلك المكذبين لخبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فأما المصدق . فإنه تقبل توبته وينفعه ايمانه قبل ذلك . . والله أعلم .

وروي عن عمران بن معين أنه قال : انما لم تقبل وقت الطلوع حتى تكون صيحة فيهلك فيها كثير من الناس فمن أسلم أو تاب في ذلك الوقت ثم هلك لم تقبل توبته ومن تاب بعد ذلك قبلت توبته . . ذكره الليث السمرقندي .

---

(١) الحديث أخرجه احمد والترمذي والحاكم والبيهقي عن ابن عمر قال السيوطي في الجامع الصغير (حسن) ٦٩) دار القلم .

(٢) البقرة : ٢٥٨ .

تلخيص نهاية الدنيا :

قال القرطبي : « واختلفت الروايات في أول الآيات : فروي أن طلوع الشمس من مغربها أولها على ما وقع في حديث مسلم . . وقيل : خروج الدجال وهذا القول أولى القولين وأصح لقوله عليه الصلاة والسلام : « إن الدجال خارج فيكم لا محالة » الحديث .

فلو كانت الشمس طلعت قبل ذلك من مغربها لم ينفع اليهود ايمانهم أيام عيسى عليه السلام ولو لم ينفعهم لما صار الدين واحداً باسلام من أسلم منهم .

وقد تقدم القول بيناً في هذا وأن أول الآيات الخسوفات فإذا نزل عيسى عليه السلام وقتل الدجال خرج حاجاً إلى مكة فإذا قضى حجه انصرف إلى زيارة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فإذا وصل إلى قبر الرسول صلى الله عليه وسلم أرسل الله عند ذلك ريحاً عنبرية فتقبض روح عيسى عليه السلام ومن معه من المؤمنين فيموت عيسى عليه السلام ويدفن مع النبي صلى الله عليه وسلم في روضته ثم تبقى الناس حيارى سكارى فيرجع أكثر أهل الاسلام إلى الكفر والضلالة ويستولي أهل الكفر على مَنْ بقي من أهل الاسلام فعند ذلك تطلع الشمس من مغربها وعند ذلك يرفع القرآن من صدور الناس من المصاحف ، ثم يأتي الحبشة إلى بيت الله فينقضونه حجراً حجراً ويرمون بالحجارة في البحر ثم تخرج حينئذ دابة الأرض تكلمهم ثم يأتي دخان يملأ ما بين السماء والأرض ، فأما المؤمن فيصيبه مثل الزكام ، وأما الكافر والفاجر فيدخل في أنوفهم فيثقب مسامعهم ويضيق أنفاسهم ثم يبعث الله ريحاً من الجنوب من قبل اليمن مسها من الحرير وريحها ريح المسك فتقبض روح المؤمن والمؤمنة وتبقى شرار الناس ويكون الرجال لا يشبعون من النساء ، والنساء لا يشبعن من الرجال ، ثم يبعث الله الرياح فتلقيهم في البحر هكذا ذكر بعض العلماء الترتيب في الشروط، وفيه بعض اختلاف وقد تقدمت الاشارة اليه .

وقيل : إذا أراد الله انقراض الدنيا وتمام لياليها وقربت النقمة خرجت نار من قعر عدن لتسوق الناس إلى المحشر تبيت معهم وتقيل معهم حتى يجتمع

الخلق بالمحشر الانس والجن والدواب والوحوش والسباع والطير والهوام وخشاش الأرض وكل مَنْ له روح ، فبينما الناس قيام في أسواقهم يتبايعون وهم مشتغلون بالبيع والشراء إذا هم بهزة عظيمة من السماء يُصْعَقُ منها نصف الخلق فلا يقومون من صعقهم مدة ثلاثة أيام ، والنصف الآخر من الخلق تذهل عقولهم فيبقون مدهوشين قياماً على أرجلهم وهو قوله تعالى :

﴿ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴾[1] ..

فبينما هم كذلك إذا هزة أخرى أعظم من الأولى غليظة فظيعة كالرعد القاصف فلا يبقى على وجه الأرض أحد الا مات كما قال ربنا جل وعلا :

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ ﴾[2] .

فتبقى الدنيا بلا آدمي ولا جنى ولا شيطان ويموت جميع مَنْ في الأرض من الهوام والوحوش والدواب وكل شيء له روح وهو الوقت المعلوم الذي كان بين الله تعالى وبين ابليس الملعون »[3] أ . هـ .

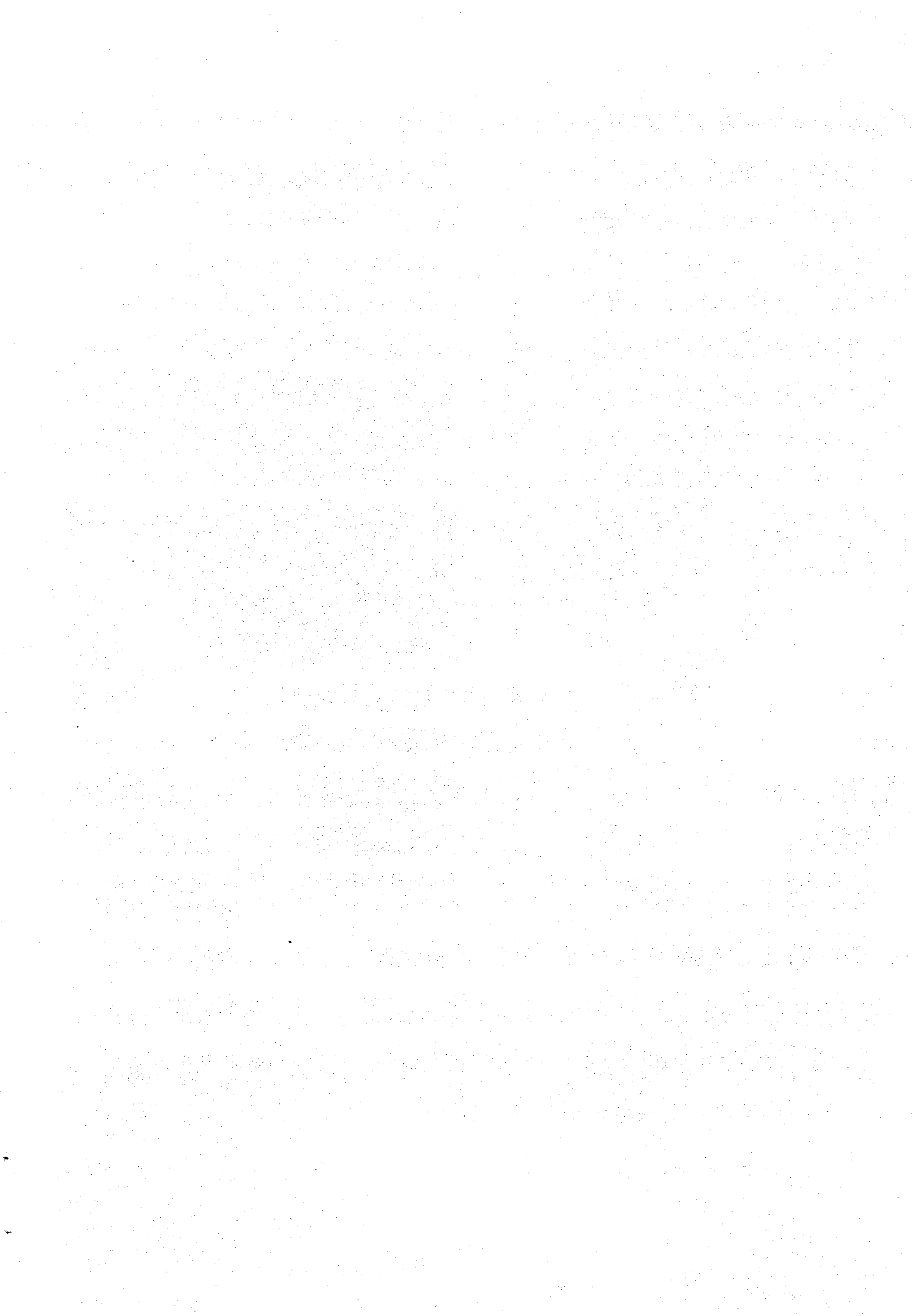
* * *

---

(١) ص : ١٥ .

(٢) الزمر : ٦٨ .

(٣) التذكرة (٨٢٨) ط الكليات الازهرية .



الفصل الثاني

القيامة وأهوالها

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في طائفة من أصحابه قال:

« إن الله تعالى لما فرغ من خلق السماوات والأرض ، خلق الصور ، فأعطاه اسرافيل ، فهو واضعه على فيه ، شاخصاً إلى العرش ببصره ، ينتظر حتى يؤمر؟ قال: قلت: يا رسول الله ما الصور؟ قال: قرن: قال: كيف هو؟ قال: عظيم: قال: والذي بعثني بالحق أن أعظم دائرة فيه لعرض السماوات والأرض ، ينفخ فيه ثلاث نفخات ، الأولى نفخة الفزع ، والثانية نفخة الصعق ، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين: فيفزع أهل السماوات والأرض ، إلا من شاء الله ، ويأمره تعالى فيمدها ويطيلها ولا يفتر ، وهي التي يقول الله فيها:

﴿ وَمَا يَنظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴾[1] ..

فتسير الجبال سير السحاب ، فتكون سراباً ، وترتج الأرض رجاً ، فتكون كالسفينة في البحر ، تضربها الأمواج ، تكفأ بأهلها كالقنديل المعلق بالعرش ، ترجف الأرواح ، ألا وهو الذي يقول الله تعالى فيه:

---

(١) ص: ١٥ .

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ.تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ.قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾(١) . .

فتميد الأرض بأهلها ، وتذهل المراضع ، وتضع كل الحوامل ، وتشيب الوِلْدان ، ويطير الناس هاربين من الفزع ، فتلقاهم الملائكة فتضرب وجوههم فيرجعون ، ثم يولون مدبرين ، ما لهم من الله من عاصم ، ينادي بعضهم بعضا ، فبينما هم على ذلك ، إذ تصدعت الأرض بصدعين ، من قطر إلى قطر ، فرأوا أمراً عظيماً ، لم يروا مثله ، وأخذهم لذلك من الكرب والهول ما الله به عليم نظروا في السماء فإذا هي كالمهل ، ثم انشقت السماء ، فانتثرت نجومها ، وخسفت شمسها ، وقمرها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« الأموات لا يعلمون بشيء من ذلك » . .

قال أبو هريرة : من استثناه الله حين يقول :

﴿ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ﴾(٢) . .

قال : أولئك الشهداء ، وانما يصل الفزع إلى الأحياء ، وهم أحياء عند ربهم يرزقون ، فوقاهم الله فزع ذلك اليوم ، وآمنهم منه ، وهو عذاب الله ، يبعثه على شرار خلقه وهو الذي يقول الله فيه .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ.يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ ﴾(٣) . .

فيمكثون في ذلك العذاب ما شاء الله ، إلا أنه يطول ، ثم يأمر الله اسرافيل فينفخ نفخة الصعق فيصعق ، أهل السماوات والأرض ، إلا من شاء الله ، فإذا هم خمدوا ، جاء ملك الموت إلى الجبار ، فيقول يا رب : مات أهل السماوات والأرض إلا مَنْ شئت : فيقول الله ، وهو أعلم بمن بقي ؟ فمن

---

(١) النازعات : ٦ - ٨ .

(٢) النمل : ٨٧ .

(٣) الحج : ١ ، ٢ .

بقي ؟ فيقول : يا رب : بقيتَ أنت الحي الذي لا تموت ، وبقيتْ حملةُ عرشك ، وبقي جبريل وميكائيل ، وبقيتُ أنا ، فيقول الله : لِيمُتْ جبريل وميكائيل ، فينطق اللهُ العرشَ ، فيقول : يا رب يموت جبريل وميكائيل ؟ فيقول : اسكت : فإني كتبت الموت على كل من كان تحت عرشي : فيموتان ، ثم يأتي ملك الموت إلى الجبار عز وجل ، فيقول : يا رب : قد مات جبريل وميكائيل ، وبقيت أنا وحملة العرش فيقول الله : فليمت حملة عرشي ، فيموتون ، ويأمر الله العرش فيقبض الصور من اسرافيل ثم يأتي ملك الموت إلى الجبار ، فيقول : يا رب قد مات حملة عرشك ، فيقول : وهو أعلم بمن بقي : فمن بقي ؟ فيقول يا رب بقيت أنت الحي الذي لا تموت وبقيت أنا ، فيقول الله : أنت خلق من خلقي ، خلقتك لما رأيت ، فمت ، فيموت ، فاذا لم يبق إلا الله الواحد القهار الأحد ، الفرد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، كان آخراً كما كان أولا ، طوى السماوات والأرض ، كطي السجل للكتاب ، ثم دحاها ثم لفها ثلاث مرات ، وقال : أنا الجبار : ثلاثاً ثم هتف بصوته : لمن الملك اليوم ؟ ثلاث مرات ، فلا يجيبه أحد ، فيقول لنفسه : لله الواحد القهار : ويبدل الله الأرض غير الأرض والسماوات ، فيبسطها ويسطحها ، ويمدها من الأديم العكاظي ، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ، ثم يزجر الله الخلق زجرة ، فإذا هم في مثل ما كانوا فيه في الأولى ، من كان في بطنها كان في بطنها ، ومن كان على ظهرها كان على ظهرها ، ثم ينزل الله عليكم من ماء تحت العرش ، ثم يأمر الله السماء أن تمطر فتمطر أربعين يوماً ، حتى يكون الماء فوقهم اثني عشر ذراعاً ، ثم يأمر الله الأجساد أن تنبت ، فتنبت كنبات البقل ، حتى إذا تكاملت أجسادهم ، فكانت كما كانت . . قال الله : ليحيى جبريل ومكائيل : فيحيان ، ثم يدعو الله بالأرواح ، فيؤتى بها تتوهج أرواح المسلمين نوراً ، والأخرى ظلمة ، فيقبضها جيما ، ثم يلقيها في الصور ، ثم يأمر الله اسرافيل أن ينفخ نفخة البعث فينفخ نفخة البعث ، فتخرج الأرواح كأنها النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض ، فيقول الله : وعزتي وجلالي : ليرجعن كل روح إلى جسده ، فتدخل الأرواح في الأرض إلى الأجساد ، فتدخل في الخياشيم ، ثم تمشي الأجساد مشي السم في اللديغ ، ثم تنشق الأرض

عنكم ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ، فتخرجون منها سراعاً إلى ربكم تنسلون :

﴿ مُهْطِعِينَ إلى الدَّاعِ يَقُولُ الكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾[1] . .

حفاة عراة ، غرلا ، ثم تقفون موقفاً واحداً ، مقدار سبعين عاما لا ينظر ربكم ، ولا يقضي بينكم ، فتبكون حتى تنقطع الدموع ، ثم تدمعون دماء وتعرقون حتى يبلغ ذلك منكم أن يلجمكم ، أو يبلغ الأذقان ، فتضجون ، وتقولون : من يشفع لنا إلى ربنا ليقضي بيننا ؟ فيقولون : من أحق بذلك من أبيكم آدم ؟ خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وكلمه قليلا ، فيأتون آدم فيطلبون اليه ذلك ، فيأبى ، فيقول :

ما أنا بصاحب ذلك ، ثم يسعون للأنبياء نبياً نبياً ، كلما جاءوا نبياً أبى عليهم .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« حتى تأتوني ، فأنطلق ، حتى آتى الفحص ، فأخر ساجداً ، وقال أبو هريرة : يا رسول الله : ما الفحص ؟ قال : موضع قدام العرش : حتى يبعث الله إليَّ مَلَكاً : فيأخذ بعضدي ، فيرفعني ، فيقول لي : يا محمد : فأقول : نعم : لبيك يا رب : فيقول ما شأنك ؟ وهو أعلم - فأقول : يا رب وعدتني الشفاعة ، فشفِّعني في خلقك ، فأقضي بينهم ، فيقول شفعتك ، أنا آتيكم ، فأقضي بينكم » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« فارجع فأقف مع الناس ، فبينما نحن وقوف ، إذ سمعنا حساً من السماء شديداً ، فينزل أهل السماء الدنيا مثل من في الأرض من الجن والانس ، حتى إذا دنوا من الأرض ، أشرقت الأرض بنورهم ، وأخذوا مصافهم ، وقلنا لهم . أفيكم ربنا ؟ قالوا : لا وهو آت ، ثم ينزلون على قدر ذلك من التضعيف حتى ينزل الجبار تبارك وتعالى في ظلل من الغمام والملائكة ويحمل عرشه يومئذ

---

(١) القمر : ٨ .

ثمانية ، وهم اليوم أربعة ، أقدامهم على تخوم الأرض السفلى ، والأرض والسماوات إلى حجرهم والعرش على مناكبهم ، لهم زجل من تسبيحهم ، يقولون : سبحان ذي العزة والجبروت ، سبحان ذي الملك والملكوت سبحان الحي الذي لا يموت ، سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت ، فيضع الله كرسيه حيث شاء من أرض ، ثم يهتف بصوته ، فيقول : يا معشر الجن والانس ، اني قد أنصت لكم من يوم خلقتكم إلى يومكم هذا ، أسمع قولكم ، وأرى أعمالكم ، فانصتوا إليَّ ، فإنما هي أعمالكم وصحفكم ، تقرأ عليكم ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ، ثم يأمر الله جهنم فيخرج منها عنق ساطع مظلم ، ثم يقول :

﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾[1] . .

﴿ ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان أنه لكم عدو مبين ، وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ، ولقد أضل منكم جبلا كثيراً أفلم تكونوا تعقلون هذه جهنم التي كنتم توعدون اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ﴾[2] . .

فيميز الله الناس وينادي الأمم ، داعياً كل أمة إلى كتابها ، والأمم جاثية من الهول ، قال الله تعالى :

﴿ وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون ﴾[3] . .

فيقضي الله بين خلقه الا الثقلين ، الانس والجن ، فيقضي بين الوحوش والبهائم ، حتى أنه ليقيد الجماء[4] من ذات القرون ، فاذا فرغ الله من ذلك ، فلم تبق تبعة عند واحدة لأخرى ، قال الله لها : كوني تراباً : فعند ذلك يقول الكافر: يا ليتني كنت تراباً ثم يقضي الله بين العباد، فيكون أول ما يقضي فيه الدماء ، فيأتي كل قتيل في سبيل الله ، ويأمر الله من قتل فيحمل رأسه تشجب

---

(١) يس : ٥٩ .

(٢) يس : ٦٠ - ٦٤ .

(٣) الجاثية : ٢٨ .

(٤) الجماء : التي ليست لها قرون .

أوداجه ، فيقول : يا رب فيم قتلني هذا ؟ فيقول الله تعالى . وهو أعلم :فيم قتلته ؟ فيقول : قتلته يا رب لتكون العزة لك : فيقول الله : صدقت ، فيجعل الله وجهه مثل نور السماوات : ثم تسبقه الملائكة إلى الجنة ، ثم يأتي كل من كان يقتل على غير ذلك ويأمر من قتل فيحمل رأسه تشجب أوداجه ، فيقول يا رب فيم قتلني هذا ؟ فيقول الله . . وهو أعلم : فيم قتلته ؟ فيقول يا رب قتلته لتكون العزة لي . فيقول الله : تعست : ثم ما تبقى نفس قتلها قاتل الا قتل بها ، ولا مظلمة إلا أخذ بها ، وكان في مشيئة الله إن شاء عذَّبه، وإن شاء رحمه ، ثم يقضي الله بين مَنْ بقي مِنْ خلقه ، حتى لا تبقى مظلمة لأحد عند أحد الا أخذها الله للمظلوم من الظالم ، حتى أنه ليكلف شائب اللبن بالماء أن يخلص اللبن من الماء ، فاذا فرغ الله من ذلك ، نادى منادٍ يُسمع الخلائقَ كلهم ، فقال : ليلحق كل قوم بآلهتهم وما كانوا يعبدون من دون الله ، فلا يبقى أحد عبد من دون الله شيئاً الا مثلت له الهيئة بين يديه ، فيجعل يومئذ ملك من الملائكة على صورة عزير ، ويجعل ملك من الملائكة على صورة عيسى ، فيتبع هذا اليهود ، ويتبع هذا النصارى ثم قادتهم آلهتهم إلى النار فهذا الذي يقول الله تعالى :

﴿ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلهةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[1] . .

فاذا لم يبق إلا المؤمنون ، فيهم المنافقون ، جاءهم الله فيما شاء من هيئة فقال :

« يا أيها الناس ، ذهب الناس فالحقوا بآلهتكم ، وما كنتم تعبدون ، فيقولون والله ما لنا إلا الله ، ما كنا نعبد غيره ، فينصرف عنهم - وهو الله - فيكشف عن ساقه ، ويتجلى لهم من عظمته ما يعرفون به أنه ربهم ، فيخرون فيمكث ما شاء الله أن يمكث ، ثم يأتيهم فيقول : يا أيها الناس ، ذهب الناس سجداً على وجوههم ويخر كل منافق على قفاه ، ويجعل الله أصلابهم كصياصي[2] البقر ، ثم يأذن الله لهم فيرفعون رؤوسهم ، ويضرب الله

---

(١) الأنبياء : ٩٩ .
(٢) كصياصي : أي كقرون البقر .

بالصراط بين ظهراني جهنم ، كفد الشعر ، أو كعقد الشعر ، وكحد السيف ، عليه كلاليب وخطاطيف ، وحسك كحسك السعدان[1] ، ودونه جسر وحض مزلة فيمرون كطرف البصر ، أو كلمح البرق أو كمر الريح ، أو كجياد الخيل ، أو كجياد الركاب ، أو كجياد الرجال ، فناجٍ سالم ، وناجٍ مخدوش ، ومكدوح على وجهه في جهنم ، فاذا أفضى أهل الجنة إلى الجنة ، قالوا : من يشفع لنا إلى ربنا فيدخلنا الجنة ؟ فيقولون : مَنْ أحق بذلك من أبيكم آدم ؟ إنه خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وكلمه قليلاً، فيأتون آدم، فيطلبون ذلك إليه، فيذكر ذنباً ، ويقول : ما أنا بصاحب ذلك ، ولكن عليكم بنوح ، فإنه أول رسله إلى خلقه ، فيؤتى نوح ، فيطلبون ذلك اليه فيذكر شيئاً ويقول : ما أنا بصاحبكم ، عليكم بموسى ، فيطلبون ذلك اليه فيذكر ذنباً ، ويقول لست بصاحب ذلك ، ولكن عليكم بروح الله وكلمته عيسى بن مريم ، فيطلبون ذلك اليه ، فيقول ما أنا بصاحب ذلك ، ولكن عليكم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

« فيأتوني ، ولي عند ربي ثلاث شفاعات وُعدتهن ، فأنطلق فآخذ بحلقة الباب ، ثم أستفتح فيفتح لي ، فأحيي ويرحب لي ، فإذا دخلت فنظرت إلى ربي عز وجل خررت له ساجداً ، فيأذن الله لي من حمده ومجده بشيء ما أذن به لأحد من خلقه ، ثم يقول لي الله : ارفع رأسك يا محمد : واشفع ، وسل تعط ، فإذا رفعت رأسي قال الله ، وهو أعلم : ما شأنك ؟ فأقول : يا رب ، وعدتني الشفاعة فشفعني في أهل الجنة ، يدخلون الجنة ، فيقول الله عز وجل : قد شفعتك ، وأذنت لهم في دخول الجنة ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« والذي بعثني بالحق ما أنتم في الدنيا باعرف بأزواجكم ومساكنكم من أهل الجنة بأزواجهم ومساكنهم » .

---

(١) السعدان : نبات ذو شوك وسيأتي بيانه بالتفصيل .

فيدخل كل رجل منهم على اثنتين وسبعين زوجة كما ينشئهن الله ، واثنتين آدميتين ، لهما فضل على من شاء الله بعبادتهما الله في الدنيا ، يدخل على الأولى منها في غرفة من ياقوتة ، على سرير من ذهب ، مكلل باللؤلؤ ، له سبعون درجة من سندس واستبرق ، ويضع يده بين كتفيها ، ثم ينظر من صدرها ما وراء ثيابها من جلود ولحمها ، وأنه لينظر إلى لحم ساقها ، كما ينظر أحدكم إلى السلك في قصبة الياقوتة ، كبده لها مرآة وكبدها له مرآة ، فبينما هو عندها ، لا يملها ولا تمله إذ نودي : إنا قد عرفنا أنك لا تمل ، ولا تمل ، إلا أن لك أزواجاً غيرها ، فيخرج ، فيأتيهن واحدة واحدة ، كلما جاء واحدة قالت : والله ما في الجنة أحسن منك ، وما في الجنة شيء أحب إلي منك قال : وإذا وقع أهل النار في النار ، وقع فيها خلق ربك أو بقيتهم أعمالهم ، فمنهم من تأخذه إلى قدميه لا يجاوز ذلك منهم ، ومنهم من تأخذه إلى حقويه ، ومنهم من تأخذ جسده كله ، إلا وجهه قد حرم صوره عليها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقول :

يا رب شفعني فيمن وقع في النار من أمتي ، فيقول الله عز وجل : أخرجوا من عرفتم ، فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم أحد ، ثم يأذن الله لي في الشفاعة فلا يبقى نبي ولا شهيد إلا شفع ، فيقول الله : أخرجوا مَنْ وجدتم في قلبه زنة الدنيا ايماناً ، فيخرج أولئك ، حتىلايبقى منهم أحد ، ثم يشفع الله فيقول أخرجوا من وجدتم في قلبه ايماناً ثلثي دينار ، ثم يقول : وثلث دينار ، ثم يقول : قيراطاً ، ثم يقول : حبة من خردل ، فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم أحد ، وحتى لا يبقى في النار من عمل لله خيراً قط ، وحتى لا يبقى أحد له شفاعة إلا شفع ، حتى أن ابليس ليتطاول لما يرى من رحمة الله رجاء أن يشفع له ، ثم يقول الله : بقيت أنا وأنا أرحم الراحمين ، فيدخل يده في جهنم فيخرج منها مالا يحصيه غيره ، كأنهم حب فيبثهم الله على نهر يقال له نهر الحيوان ، فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل ، مما يلي الشمس أخضر ، ومما يلي الظل منها أصفر ، فينبتون حتى يكونوا أمثال الدر ، مكتوباً في رقابهم الجهنميون عتقاء الرحمن عز وجل يعرفهم أهل الجنة بذلك الكتاب ، ما عملوا

لله خيراً قط ، فيلقون في الجنة » أ . هـ[1]

وصدق القائل حينما وصف يوم القيامة :

مَثِّلْ لنفسك أيها المغرورُ يَوْمَ القيامة والسماءُ تَمورُ
إذْ كُوِّرَتْ شمسُ النهارِ وأُدنيَتْ حَتَّى على رؤوس[2] العباد تَسيرُ
إذا الموؤدةُ[3] سُئلت عن شأنها وتبدلتْ بعدَ الضياءِ كدور
وإذا النجومُ تساقطتْ وتناثرتْ وأُريتَهَا مِثْلَ السحابِ تسيرُ
وإذا الجبالُ تعلَّقتْ بأصولها خَلَتْ الديارُ فَمَا بِهَا مَعْمُور
وإذا العِشارُ تعطَّلَتْ وتخرَّبتْ ونقولُ لِلأمْلاكِ أينَ تسيرُ؟
وإذا الوحوشُ لَدَى القيامةِ حُشرتْ مِنْ حُور عِينٍ زانهُنَّ شُعُور
وإذا ثِقَاتُ المسلمين تَزوَّجوا وبأيِّ ذَنْبٍ قتْلُهَا مَيْسُور؟
وإذا الجليلُ طَوَى السماءَ بيمينهِ طَيَّ السِّجلِ كتابه المنشُور
وإذا الصحائفُ عند ذاكَ تساقطتْ تبدو لنا يَوْمَ القِصاصِ أمور
هـذا بِلا ريبٍ يخافُ جنايةً هُتِكَتْ إذاً لِلْمُذْنِبين سُتُور
وإذا الصحائفُ نُشِرَتْ فتطايرتْ ورأيتَ أفلاكَ السَّماء تدورُ
وإذا السماء تكشَّطتْ عن أصلها فلها على أهلِ الذنوب زَفيرُ
وإذا الجحيمُ تسعَّرتْ نيرانُها لِفتىً على طُولِ البَلاء صَبُور
وإذا الجنَانُ تزخرفَتْ وتطيَّبَتْ يخشى القِصاصَ وقلبُهُ مَذْعُورُ
وإذا الجنينُ مُعَلَّقٌ مع أُمّهِ كيف المصرُّ على الذنوبِ دُهُور

* * *

من أهوال القيامة

قال تعالى :

﴿ إذَا زُلزِلَتْ الأرضُ زِلزَالَهَا.وَأَخرَجَتِ الأرْضُ أَثْقَالَهَا . وَقَالَ الإنْسَانُ مَا لَهَا ﴾[4] . .

---

(۱) أخرجه أصحاب السنن وهو صحيح مشهور .

(۲) جمع رأس : وكتبها هكذا للضرورة الشعرية .

(۳) المؤدة : من دفنوها حية من بناتهم ، خوفا من العار .

(٤) الزلزلة : ۱ ، ۲ ، ۳ .

وقال :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ◌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾[1] . .

وهذه نفخة الفزع أول مبادىء القيامة . . لذا كان اسم يوم القيامة صادقاً على ذلك كله .

كما ثبت عن أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوباً بينهما فلا يتبايعانه ، ولا يطويانه ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل يلبن لقمته فلا يطعمها ، ولتقومن الساعة وهو يليط حوض فلا يسقى فيه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها » أ . هـ[2] .

وهذا إنما يتجه على ما قبل نفخة الفزع بأنها الساعة لما كانت أول مبادئها .

وقد ذكر في حديث ابن رافع في حديث الصور المتقدم ، أن السماء تنشق فيما بين نفختي الفزع والصعق ، وأن نجومها تتناثر ، وتخسف شمسها وقمرها والظاهر ـ والله أعلم ـ أن هذا إنما يكون بعد نفخة الصعق .

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ . . وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ◌ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ◌ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾[3] . .

وسيأتي تقرير أن هذا كله كائن ، بعد نفخة الصعق ، وأما زلزال الأرض ، وانشقاقها بسبب تلك الزلزلة ، وفرار الناس إلى أقطارها ،

---

(1) الحج : ١ ، ٢ .
(2) أخرجه أصحاب السنن . .
(3) ابراهيم : ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ .

وأرجائها ، فمناسب يكون بعد نفخة الفزع وقبل الصعق ، قال تعالى :

﴿ يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنْسِ إنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنفُذُونَ إلّا بِسُلْطَانٍ . فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبان.يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ.فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[1] . .

حشر الناس أصنافاً ثلاثة :

عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف ، صنف مشاة ، وصنف رُكْبان وصنف على وجوههم ، قال يا رسول الله وكيف يمشون على وجوههم قال :

« إن الذي أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم ، أما أنهم يقفون بوجههم كل حدب[2] وشوك » أ . هـ[3] .

يقول العلامة ابن كثير بعد أن أورد كثيراً من الأحاديث في هذه المسألة :

« فهذه السياقات تدل على أن هذا الحشر هو حشر الموجودين في آخر الدنيا ، من أقطار محلة البشر ، وهي أرض الشام ، وأنهم يكونون على أصناف ثلاثة ، فقسم يمشون طاعمين كاسين راكبين ، وقسم يمشون تارة ، ويركبون أخرى ، وهم يتعاقبون على البعير الواحد ، كما تقدم في الصحيحين اثنان على بعير ، وثلاثة على بعير ، كما جاء مُفسَّراً في الحديث الآخر ، وتحشر بقيتهم في النار ، وهي التي تخرج من قعر عدن ، فتحيط بالناس ، من ورائهم ، تسوقهم من كل جانب ، إلى أرض المحشر ، ومن تخلّف منهم أكلته النار ، وهذا كله بما يدل على أن هذا في آخر الدنيا ، حيث الأكل والشرب ، والركوب على الظهر المستوي وغيره ، وحيث يهلك المتخلفون منهم بالنار ، ولو كان هذا بعد نفخة البعث ، لم يبق موت ولا ظهر يسري ، ولا أكل ولا شرب ، ولا لبس في

---

(١) الرحمن . ٣٣ - ٣٦ .

(٢) حدب : أي المكان إذا ارتفع عن الأرض كذا قال في (المصباح المنير) .

(٣) حديث صحيح . . أورده أصحاب المسانيد .

العرصات[1] والعجب كل العجب أن الحافظ أبا بكر البيهقي بعد روايته لأكثر هذه الأحاديث ، حل هذا الركوب على أنه يوم القيامة مصححاً ذلك ، وضعف ما قلناه ، واستدل على ما قاله بقوله تعالى :

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ المتقِينَ إلىٰ الرَّحْمٰنِ وَفْداً ٭ وَنَسُوقُ المجْرِمِينَ إلىٰ جَهَنَّمَ وِرْداً ﴾[2] ؟ ١٠هـ[3] . .

* * *

حشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا :

وَرَدَّ ابن كثير : وكيف يصح ما ادعاه في تفسير الآية بالحديث وفيه :

« إن منهم اثنين على بعير ، وثلاثة على بعير ، وعشرة على بعير ؟» وقد جاء التصريح بأن ذلك من قلة الظهر ؟ هذا لا يلتئم مع هذا ، والله أعلم ، تلك بجانب من الجنة يركبها المؤمنون من العرصات إلى الجنات ، على غير هذه الصفة . . (كما ستأتي) . .

فأما الحديث الأخر ، الوارد من طرق أخر ، عن جماعة من الصحابة ، منهم ابن عباس ، وابن مسعود ، وعائشة ، وغيرهم :

« وإنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا » . .

فذلك حشر غير هذا ، هذا يوم القيامة ، بعد نفخة البعث ، يقوم الناس من قبورهم حفاة عراة غرلا ، أي غير محتذين ، وكذلك يحشر الكافرون إلى جهنم وِرداً أي عِطاشاً وقوله :

﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَىٰ وُجوهِهِمْ عُمْياً وُبُكْماً وَصُمّاً مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً ﴾[4] . .

---

(١) العرصات : أي المكان الواسع ومفردها : عرصة .

(٢) مريم : ٨٥ ، ٨٦ .

(٣) عن نهاية البداية والنهاية .

(٤) الاسراء : ٩٧ .

فذلك حين يؤمر بهم إلى النار ، من مقام الحشر . .

وقد ذكر في حديث الصور أن الأموات لا يشعرون بشيء مما يقع ، مما ذكر ، بسبب نفخة الفزع ، وإن الذين استثنى الله فيها ، إنما هم الشهداء ، لأنهم أحياء عند ربهم يرزقون ، فهم لا يشعرون بها ، ولا يفزعون منها ، وكذلك لا يصعقون بسبب نفخة الصعق .

وقد اختلف المفسرون في المستثنين منها على أقوال ، أحدها كما جاء مصرحاً به ، أنهم الشهداء ، وقيل : بل هم جبريل ، وميكائيل ، واسرافيل ، وملك الموت ، قيل : وحملة العرش أيضاً : قيل : وغير ذلك ، فالله أعلم .

* * *

وقد ذكر في هذا الحديث ، أعني حديث الصور ، أنه يطول على أهل الدنيا مدة ما بين الفزع ، ونفخة الصعق ، وهم يشاهدون تلك الأهوال ، والأمور العظام ، فيموت بسبب ذلك جميع الموجودين ، من أهل السماوات ومن في الأرض ، من الأنس والجن ، والملائكة ، إلا من شاء الله ، فقيل : هم حملة العرش ، وجبريل ، وميكائيل ، واسرافيل ، وقيل : هم الشهداء ، وقيل غير ذلك قال تعالى :

(ونُفِخَ فى الصُّور فصعق منْ فى السَموات ومنْ فى الأرض إلا من شاء الله ، ثمَ نُفِخَ فِيهِ أُخرى فإذا هُمْ قِيامٌ ينْظُرُون)(١)

* * *

نفخة البعث

قال تعالى :

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً . وَفُتِحَتْ السَّماءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً . وَسُيِّرَتْ الجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً ﴾(٢) . .

---

(١) الزمر : ٦٨ .
(٢) النبأ : ١٨ ـ ٢٠ .

وقال :

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ.قَالُوا : يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ المُرْسَلُونَ.إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ.فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1] ..

وذكر في حديث الصور بعد نفخة الصعق ، وقيام الخلائق كلها ، وبقاء الحي الذي لا يموت ، الذي كان قبل كل شيء ، وهو الآخر بعد كل شيء ، وأنه يبدل السماوات ، فيما بين النفختين ، ثم يأمر بانزال الماء الذي تخلق منه الأجساد في قبورها ، وتتركب في أحداثها ، كما كانت في حياتها في هذه الدنيا ، من غير أرواح ثم يقول الله تعالى :

« ليحيى حملة العرش : فيحيون ، ويأمر اسرافيل فيأخذ الصور ، فيضعه على فيه ، ثم يقول : ليحيى جبريل وميكائيل ، فيحيان .. الخ » الحديث سبق .

* * *

قال عكرمة : ان الذين يغرقون في البحر تقتسم لحومهم الحيتان فلا يبقى منهم شيء إلا العظام فتلقيها الأمواج إلى الساحل فتمكث حيناً ثم تصير حائلة نخرة ، ثم تمر بها الابل فتأكلها ، ثم تسير الإبل فتعثر ، ثم يجيء قوم فينزلون فيأخذون ذلك البعر فيوقدونه ، ثم تخمد تلك النار فيجيء الريح فيلقي ذلك الرماد على الأرض فإذا جاءت النفخة :

﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾[2] .

يخرج أولئك وأهل القبور سواء :

---

(١) يس : ٥١ - ٥٤ .
(٢) الزمر : ٦٨ .

﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾[1] . .

أي نفخة واحدة :

﴿ فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾[2] . .

قال علماؤنا : « فالنفخ في الصور إنما هو سبب لخروج أهل القبور وغيرهم ، فيعيد الله الرفات من أبدان الأموات ، ويجتمع ما تفرق منها في البحار وبطون السباع وغيرها ، حتى تصير كهيئاتها الأولى ، ثم يجعل فيها الأرواح فيقوم الناس كلهم أحياء حتى السقط . .

وروي عن علي بن معبد أيضاً عن أبي هريرة قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ونحن في طائفة من أصحابه » وساق الحديث بطوله إلى قوله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه :

﴿ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾[3] . .

ثم « تبدل الأرض غير الأرض والسماوات » فيبسطها بسطاً ثم يمدها مد الأديم العكاظي :

﴿ لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً ﴾[4] . .

ثم يزجر الله الخلق زجرة واحدة ، فإذا هم في هذه المبدلة في مثل ما كانوا فيه من الأولى : من كان في بطنها كان في بطنها ومن كان على ظهرها كان على ظهرها . ثم ينزل الله عليكم ماء من تحت العرش يقال له : ماء الحياة فتمطر السماء عليكم أربعين سنة حتى يكون الماء من فوقكم اثني عشر ذراعاً . ثم يأمر

---

(١) يس : ٥٣ .
(٢) السابقة .
(٣) غافر : ١٦ .
(٤) طه : ١٠٧ .

الله عز وجل الأجساد فتنبت كنبات الطواثيت[1] . وكنبات البقل حتى إذا تكاملت أجسادكم فكانت كما كانت يقول الله عز وجل : ليحي حملة العرش فيحيون . . وذكر الحديث الذي سبق أن أوردناه . .

* * *

قال القرطبي في التذكرة : « والصور : بالصاد قرن ينفخ فيه النفخة الأولى للفناء ، وهي نفخة الصعق ويكون معها نقر لقوله تعالى :

﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴾[2] . .

أي في الصور ، فإذا نفخ فيه للاصعاق جمع بين النقر والنفخ لتكون الصيحة أشد وأعظم ، ثم يمكث الناس أربعين عاماً ، ثم ينزل الله ماء كمني الرجال . . فتكون منه الأجساد بقدرة الله تعالى . .

قال : وليس الصور جمع صورة كما زعم بعضهم أي ينفخ في صورة الموتى بدليل الأحاديث المذكورة والتنزيل يدل على ذلك . قال الله تعالى :

﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ ﴾[3] . .

ولم يقل : فيها ، فعلم أنه ليس جمع صورة . قال الكلبي : لا أدري ما الصور؟ ويقال : هو جمع صورة مثل بسرة وبسر أي ينفخ في صورة الموتى : الأرواح وقرأ الحسن :

﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ﴾[4] . .

قلت : وإلى هذا التأويل في أن الصور بمعنى الصور جمع صورة ذهب أبو عبيدة معمر بن المثنى وهو مردود بما ذكرنا وأيضاً ينفخ في الصور للبعث مرتين بل ينفخ مرة واحدة ، واسرافيل عليه السلام ينفخ في الصور الذي هو القرن والله

---

(١) الطواثيت : نبات يشبه البقل .

(٢) المدثر : ٨ .

(٣) الزمر : ٦٨ .

(٤) الأنعام : ٧٣ .

سبحانه يحيى الصور فينفخ فيها الروح كما قال تعالى :

﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾[1] . .

قال ابن زيد : يخلق الله الناس في الأرض الخلق الآخر ثم يأمر السماء فتمطر عليهم أربعين يوماً فينبتون فيها حتى تنشق عن رؤوسهم كما تنشق عن رأس الكمأة . فمثلها يومئذ مثل الماخض فتنظر أن يأتيها أمر الله فتطرحهم على ظهرها . فلما كانت تلك النفخة طرحتهم . قال علماؤنا :

والأمم مجمعون على أن الذي ينفخ في الصور اسرافيل عليه السلام . .

قلت : وقد جاء حديث يدل على أن الذي ينفخ في الصور غير اسرافيل . . خرّجه أبو نعيم الحافظ عن عبد الله بن الحارث قال :

كنت عند عائشة وعندها كعب الأحبار فذكر كعب اسرافيل فقالت عائشة : يا كعب أخبرني عن اسرافيل ؟ فقال كعب عندكم العلم قالت : أجل فأخبرني . فقال : « له أربعة أجنحة جناحان في الهواء ، وجناح قد تسربل[2] ، وجناح على كاهله ، والعرش على كاهله ، والقلم على أذنه ، فإذا نزل الوحي كتب القلم ثم درست الملائكة ، وملك الصور جاثٍ على احدى ركبتيه ، وقد نصب الأخرى ، ملتقم الصور ، محنياً ظهره ، شاخصاً ببصره ، ينظر إلى اسرافيل ، وقد أمر إذا رأى اسرافيل قد ضم جناحه أن ينفخ في الصور » . . قالت عائشة : هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول » ؟ ه‍ . غريب من حديث كعب لم يروه عنه إلا عبد الله بن الحارث ثم قال القرطبي فاصلاً : وما خرجه أبو عيسى الترمذي وغيره يدل على أن صاحب الصور اسرافيل عليه السلام ينفخ فيه وحده . وحديث ابن ماجه يدل على أن معه غيره .

* * *

---

(١) الأنبياء : ٩١ .

(٢) تسربل : أي لبسه كالسربال .

وقد اختلف في عدد النفخات : فقيل ثلاث : نفخة الفزع لقوله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾[1] . .

ونفخة الصعق ، ونفخة البعث ، لقوله تعالى :

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾[2] . .

وهذا اختيار ابن العربي وغيره .

وقيل : هما نفختان . ونفخة الفزع هي نفخة الصعق ، لأن الأمرين لازمان لها أي فزعوا فزعاً ماتوا منه ، والسنة الثابتة على أنهما نفختان لا ثلاث وهو الصحيح إن شاء الله .

* * *

صفة البعث

قال تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ، حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا : سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ . كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[3] . .

- وعن أبي رزين العقيلي قال : قلت يا رسول الله : كيف يعيد الله الخلق ؟ وما آية ذلك في خلقه ؟ قال : « أما مررت بوادي قومك جدباً ، ثم مررت به يهتز خضراً ؟ قال : نعم . قال :

« فتلك آية الله في خلقه » ١ . هـ[4] .

---

(١) النمل : ٨٧ .

(٢) الزمر : ٦٨ .

(٣) الأعراف : ٥٧ .

(٤) أخرجه أصحاب السنن باسناد لا بأس به .

يبعث كل عبد على مامات عليه :

ـ عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« يبعث كل عبد على ما مات عليه » ا ٠ هـ[1] . .

ـ وعن عبد اللهبن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« إذا أراد الله بقوم عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم ، ثم بعثوا على نياتهم » ا ٠ هـ[2] . .

ـ وعن ابن عباس أن رجلاً كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم محرماً فرفضته[3] ناقته فمات فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اغسلوه بماء وسدر ، وكفنوه في ثوبه ، ولا تمسوه بطيب، ولا تخمروا رأسه ، فإنه يبعث يوم القيامة ملبياً » ا ٠ هـ . وفي رواية « ملبداً »[4] .

* * *

أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ؟

ـ عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كنت قائماً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء حبر من أحبار اليهود فقال : السلام عليكم يا محمد . . الحديث . . وفيه . . فقال اليهودي : أين يكون الناس :

﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ﴾[5] . .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) اخرجه مسلم .

(٢) اخرجه البخاري .

(٣) أي ضربته برجلها .

(٤) أخرجه مسلم واللفظ له . . كذا اخرجه البخاري .

(٥) ابراهيم : ٤٨ .

« هم في الظلمة دون الجسر » ؟ . هـ[1] .

وعن مجاهد قال : قال ابن عباس : أتدري ما سعة جهنم ؟ قلت : لا . قال : أجل والله ما تدري . حدثتني عائشة أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله عز وجل :

﴿ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾[2] ..

قال : قلت : فأين الناس يا رسول الله ؟ قال : « على جسر جهنم » ؟ . هـ[3] .

قال القرطبي معلقاً : « هذه الأحاديث نص في أن الأرض والسماوات تبدل وتزال ويخلق الله أرضاً أخرى يكون عليها الناس بعد كونهم على الجسر وهو الصراط لا كما قال كثير من الناس أن تبدل الأرض عبارة عن تغيير صفاتها ، وتسوية آكامها[4] ، ونسف جبالها ومد أرضها » ؟ . هـ[5] ..

* * *

قال ابن عباس وابن مسعود: تبدل الأرض أرضاً بيضاء كالفضة لم يسفك عليها دم حرام ولم يعمل عليها خطيئة . وقال ابن مسعود أيضاً : تبدل الأرض ناراً ، والجنة من ورائها يرى أكوابها وكواعبها . وقال علي رضي الله عنه : تبدل الأرض فضة ، والسماء ذهباً .

وقال سعيد بن جبير ومحمد بن كعب : تبدل الأرض خبزة بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه .

قال القرطبي معلقاً على هذا القول وهذا المعنى الذي قاله سعيد بن جبير

---

(١) أخرجه مسلم .. وهو عند مسلم وابن ماجه عن عائشة بلفظ آخر .

(٢) الزمر : ٦٧ .

(٣) أخرجه الترمذي : وقال : حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه .

(٤) أكام : المكان المرتفع عن الأرض .

(٥) التذكرة (٢٣٤) .

ومحمد بن كعب مروي في الصحيح . وإليه ذهب ابن برجان في كتاب الارشاد له . . وأن المؤمن يطعم يومئذ من بين رجليه ويشرب من الحوض فهذه أقوال الصحابة والتابعين والأدلة على ما ذكرنا .

وأما تبديل السماء فقيل تكوير شمسها وقمرها وتناثر نجومها . قاله ابن عباس ، وقيل : اختلاف أحوالها فتارة كالمهل ، وتارة كالدخان حكاه ابن الانباري ، وقال كعب : تصير السماء دخاناً ، وتسير البحار نيراناً ، وقيل تبديلها : أن تطوى كطي السجل للكتاب ، وذكر أبو الحسن شبيب بن ابراهيم ابن حيدره في كتاب الافصاح له : أنه لا تعارض بين هذه الآثار ، وأن الأرض والسماوات تبدل كرتين احداهما هذه الأولى ، وأنه سبحانه يغير صفاتها قبل نفخة الصعق فتنتثر أولا كواكبها ، وتكسف شمسها وقمرها وتصير كالمهل ، ثم تكشط عن رؤوسهم ، ثم تسير الجبال ثم تموج الأرض ، ثم تصير البحار نيراناً ، ثم تنشق الأرض من قطر إلى أقطار فتصير الهيئة غير الهيئة ، والبنية غير البنية ثم إذا نفخ في الصور نفخة الصعق طويت السماء ودحيت الأرض ، وبدلت السماء سماء أخرى ، وهو قوله تعالى :

﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾[1] . .

وبدلت الأرض : تمد مد الأديم العكاظي . وأعيدت كما كانت فيها القبور . . والبشر على ظهرها وفي بطنها ، وتبدل أيضاً تبديلا ثانياً . وذلك إذا وقفوا في المحشر فتبدل لهم الأرض التي يقال لها (الساهرة) يحاسبون عليها وهي أرض عفراء وهي البيضاء من فضة لم يسفك عليها دم حرام قط ، ولا جرى عليها ظلم قط وحينئذ يقوم الناس على الصراط ، وهو لا يسع جميع الخلائق وإن كان قد روي أن مسافته ألف سنة صعوداً ، وألف سنة هبوطاً ، وألف سنة استواء ، ولكن الخلق أكثر من ذلك ، فيقوم من فضل على الصراط ، من نار يغرق فيها البشر ، فإذا حوسب الناس عليها أعني الأرض المسماة بالساهرة ، وهي كهالة جامدة وهي الأرض التي قال عبد الله إنها أرض على متن جهنم

---

(١) الزمر : ٦٩ .

وجاوزوا الصراط وجعل أهل الجنان من وراء الصراط ، وأهل النيران في النار وقام الناس على حياض الأنبياء يشربون بدلت الأرض كقرصة النقي فأكلوا من تحت أرجلهم ، وعند دخولهم الجنة كانت خبزة واحدة أي قرصاً واحداً يأكل منه جميع الخلق فمن دخل الجنة وادامهم زيادة كبد ثور في الجنة ، زيادة كبد النون (الحوت) .

* * *

طول يوم القيامة :

يوم عصيب : قالوا ألف سنة . . وقالوا خمسمائة . . وقالوا غير ذلك . . والله أعلم بحاله . . .

فهو يوم الفصل والقضاء . . يوم المكابدة والعناء . . . حتى يتمنى الناس أن ينقضي هذا اليوم ولو بذهابهم إلى النار . .

فهل من متفكر فيه . . ومتأمل له . . ؟

* * *

- عن أبي هريرة قال : « يوم القيامة على المؤمنين كقدر ما بين الظهر والعصر » أ . هـ[1] .

- وعن عبد الله بن عمرو قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية :

﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[2] .

فقال : « كيف بكم إذا جمعكم الله كما يجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم » ؟ أ . هـ[3] .

---

(١) أخرجه أصحاب السنن .
(٢) المطففين : ٦ .
(٣) أخرجه أصحاب السنن باسناد جيد .

أهوال الموقف

. عن بعض السلف أنه نام فرأى القيامة قد قامت وكأنه في الموقف عطشان وصبيان صغار يسقون الناس ، قال فناديتهم ناولوني شربة فقال لي واحد منهم ألك فينا ولد فقلت لا فقال فلا إذاً ولهذا فضل التزويج .

وهناك من القوم ما قدموا على رؤوسهم ظل يمنعهم من الحر وهي الصدقة الطيبة لا يزالون كذلك ألف عام حتى إذا سمعوا نقر الناقور . . الذي توجل له القلوب ، وتخشع الأبصار يعظم نقره وتشتاف الرؤوس من المؤمنين والكافرين يظنون أن ذلك عذاب يزداد بهم في هول يوم القيامة فإذا بالعرش تحمله ثمانية ملائكة قدم الملك فيهم مسيرة ألف سنة، وأفواج الملائكة وأنواع الغمام بأصوات التسبيح لهم هرج عظيم لا تطيقه العقول حتى يستقر العرش في تلك الأرض البيضاء التي خلقها الله تعالى لهذا الشأن خاصة فتطرق الرؤوس وتخشى وتشفق البرايا وترعب الأنبياء وتخاف العلماء وتفزع الأولياء والشهداء من عذاب الله سبحانه الذي لا يطيقه شيء إذ غشاهم نور حتى غلب على نور الشمس التي كانوا في حرها فلا يزالون يموج بعضهم في بعض ألف عام والجليل سبحانه لا يكلمهم كلمة واحدة فحينئذ يذهب الناس إلى آدم فيقولون يا أبا البشر الأمر علينا شديد . . وأما الكافر فيقول يا رب أرضى ولو إلى النار من شدة ما يرى من الهول يقولون أنت الذي خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته ونفخ فيك من روحه اشفع لنا في فصل القضاء . . وستأتي أحاديث الشفاعة . .

* * *

وقال المحاسبي في (كتاب التوهم) : يحشر الله الأمم من الانس والجن عراة أذلاء قد نزع الملك من ملوك الأرض ولزمهم الصف بعد عتوهم والذلة بعد تجبرهم على عباد الله في أرضه .

ثم أقبلت الوحوش من أماكنها منكسة رؤوسها بعد توحشها من الخلائق وانفرادها ذليلة من هول يوم النشور من غير ريبة ولا خطيئة أصابتها حتى وقفت من وراء الخلق بالذلة والانكسار لذلك الجبار ، وأقبلت الشياطين بعد تمردها

وعتوها خاضعة ذليلة للعرض على الملك الديان ، حتى إذا تكاملت عدة أهل الأرض من انسها وجنها وشياطينها ووحوشها وسباعها وأنعامها وهوامها تناثرت نجوم السماء من فوقهم وطمست الشمس والقمر فأظلما عليهم ومارت سماء الدنيا من فوقهم فدارت من فوقهم بعظمها فوق رؤوسهم وجميع ذلك بعينك وعين أهل الموقف ينظرون إلى هوله ثم انشقت فوق رؤوسهم وهي خمسمائة عام ، فياهول صوت انشقاقها في سمعهم وتمزقت وتفطرت لهول يوم القيامة من عظم يوم الطامة ثم ذابت حتى صارت مثل الفضة المذابة كما قال الجبار تبارك وتعالى . .

﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾[1] . .

وقال :

﴿ يَوْمَ تَكُونَ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ، وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾[2] .

أي كالصوف المنفوش وهو أضعف الصوف وهبطت الملائكة من حافاتها إلى الأرض بالتقديس لربها فتوهم انحدارهم من السماء لعظم أجسامهم وكثرة أخطارهم وهول أصواتهم وشدة فرقهم من خوف ربهم ، فتوهم فزعك حينئذ وفزع الخلائق لنزولهم مخافة أن يكونوا قد أمروا بهم فأخذوا مصافهم محدقين بالخلائق منكسي رؤوسهم لعظيم هول يومهم قد تسربلوا أجنحتهم ، ونكسوا رؤوسهم بالذلة والخضوع لربهم، وكذلك ملائكة كل سماء إلى السماء السابعة قد أضعف أهل كل سماء على أهل السماء الذين قبلهم في العدة وعظم الأجسام والأصوات حتى إذا وافى الموقف أهل السماوات السبع والأرضين السبع كسيت الشمس حر عشر سنين ثم أدنيت من الخلائق قاب قوسين أو قوس فلا ظل ذلك اليوم الا ظل عرش الرحمن فمن بين مستظل بظل العرش وبين مضح بحر الشمس قد صهرته واشتد كربه وأقلقته وقد ازدحمت الأمم وتضايقت ودفع بعضها بعضاً . . واختلفت الأقدام ، وانقطعت الأعناق من العطش قد اجتمع

---

(١) الرحمن : ٣٧ .

(٢) المعارج : ٨ ، ٩ .

عليهم في مقامهم حر الشمس مع وهج أنفاسهم ، وتزاحم أجسامهم ففاض العرق منهم على وجه الأرض ثم على أقدامهم ثم على قدر مراتبهم ومنازلهم عند ربهم من السعادة والشقاء فمنهم من يبلغ العرق منكبيه وحقويه ، ومنهم إلى شحمة أذنيه ، ومنهم من قد ألجمه العرق فكاد أن يغيب فيه » أ . هـ .

وعلق القرطبي في التذكرة على كلام المحاسبي فقال : « ذكر المحاسبي وغيره أن انفطار السماء وانشقاقها بعد جمع الناس في الموقف . . والحق أن ذلك يكون قبل ذلك وهو ظاهر القرآن والله أعلم » أ . هـ[1] .

* * *

النجاة من أهوال القيامة

ـ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيء إلا أنه كان يخالط الناس وكان موسراً فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر قال : قال الله عز وجل أنا أحق بذلك منك تجاوزوا عن عبدي » أ . هـ[2] . .

ـ وعن أبي قتادة رضي الله عنه أنه طلب غريما له فتوارى عنه ثم وجده فقال : أني معسر قال : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من وسلم يقول : « من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه » أ . هـ[3] . .

* * *

الذات البشرية ذات وزن وقيمة . .

وبمقدار هذه القيمة تكون نجاتها يوم القيامة . .

---

(١) التذكرة (٢٨٤) .

(٢) أخرجه مسلم .

(٣) أخرجه مسلم .

فمن الناس من يعطي ويمنح الخير للناس جميعاً . .

ومنهم من يقتر ويكنز ويؤثر ذاته ونفسه . . ويتملق مصلحته دون مصالح الآخرين .

ومن الناس من يحب الانزواء من شيء لا يعود عليه . .

ومنهم من يعشق العمل والخروج في سبيل سعادة الآخرين . .

والحياة لا تقوم الا بهؤلاء المعطاءين الجوادين . .

ولذا فإن النجاة تكون على حسب الذات ومكوناتها . .

والمعطاء دائماً كما هو سعادة لغيره . . فهو سعادة لنفسه . . فكفى أنه سينجو من غضب الله يوم العرض عليه . . وطوبى للنبلاء !! .

ـ وعن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ونحن في مسجد المدينة فقال : إني رأيت البارحة عجباً رأيت رجلا من أمتي جاءه ملك الموت ليقبض روحه فجاءه بره بوالديه فرد منه ورأيت رجلا من أمتي قد بسط عذاب القبر فجاءه وضوؤه فاستنقذه من ذلك ، ورأيت رجلا من أمتي قد احتوشته الشياطين فجاءه ذكر الله فخلص من بينهم ، ورأيت رجلا من أمتي قد احتوشته ملائكة العذاب فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم ، ورأيت رجلا من أمتي يلهث عطشاً كلما ورد حوضاً منع منه فجاءه صيامه فسقاه وأرواه ورأيت رجلا من أمتي والنبيون قعود حلقا حلقا كلما دنا لحلقة طردوه فجاءه اغتساله من الجنابة فأخذ بيده ، وأقعده بجنبي ورأيت رجلا من أمتي من بين يديه ظلمة ، ومن خلفه ظلمة ، وعن يمينه ظلمة ، ومن فوقه ظلمة ، ومن تحته ظلمة فهو متحير فيها فجاءته حجته وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه في النور ، ورأيت رجلا من أمتي يكلم المؤمنين فلا يكلمونه فجاءته صلة الرحم فقالت : يا معشر المؤمنين كلموه فكلموه ورأيت رجلا من أمتي يتقي شرر النار ووهجها بيده عن وجهه فجاءته صدقته فصارت ستراً على وجهه وظلا على رأسه ، ورأيت رجلا من أمتي قد أخذته

الزبانية من كل مكان فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذه من أيديهم ، وأدخلاه مع ملائكة الرحمة ورأيت رجلا من أمتي جاثيا على ركبتيه بينه وبين الله حجاب فجاءه حسن خلقه فأخذه بيده فأدخله على الله ، ورأيت رجلا من أمتي قد هوت صحيفته من قبل شماله فجاءه خوفه من الله تعالى فأخذ صحيفته فجعلها في يمينه ، ورأيت رجلا من أمتي قد خف ميزانه فجاءته وجله من الله فاستنقذه من ذلك ومضى ، ورأيت رجلا من أمتي هوى في النار فجاءه دموعه التي بكى من خشية الله في الدنيا فاستخرجته من النار ورأيت رجلا من أمتي قائماً على الصراط يرعد كما ترعد السعفة فجاءه حسن ظنه بالله فسكن رعده ومضى ورأيت رجلا من أمتي على الصراط يزحف أحيانا فجاءته صلاته علي فأخذت بيده وأقامته ومضى على الصراط ، ورأيت رجلا من أمتي انتهى إلى أبواب الجنة فغلقت الأبواب دونه فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة » أ. هـ[1].

* * *

شفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « أتى النبي صلى الله عليه وسلم يوما بلحم فرفع اليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منها نهشة فقال : أنا سيد الناس يوم القيامة .. وهل تدرون بم ذاك يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون ، فيقول بعض الناس لبعض : ألا ترون ما أنتم فيه ألا ترون ما قد بلغكم ألا تنظرون إلى من يشفع لكم إلى ربكم فيقول بعض الناس لبعض : ائتوا آدم فيأتون آدم فيقولون : يا آدم أنت أبونا أبو البشر خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ، ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول آدم :

---

(١) أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول .

إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وأنه نهاني عن الشجرة فعصيته ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلى نوح ، فيأتون نوحاً فيقولون : يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض وسماك الله عبداً شكورا ، اشفع لنا إلى ربنا ، ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا ، فيقول لهم نوح ، إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، واني قد كانت لي دعوة دعوت بها على قومي . نفسي نفسي ، اذهبوا إلى ابراهيم فيأتون ابراهيم فيقولون : يا ابراهيم أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا فيقول لهم ابراهيم إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب مثله ولن يغضب بعده مثله ، وذكر كذباته ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلى موسى ، فيأتون موسى فيقولون يا موسى : أنت رسول الله فضّلك الله برسالته وبتكليمه على الناس اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ، ألا ترىٰ ما قد بلغنا . فيقول لهم موسى : ان ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإني قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها ، نفسي نفسيّ ، اذهبوا إلى عيسى فيأتون عيسى فيقولون : يا عيسى أنت رسول الله وكلمتَ الناس في المهد وكلمة منه ألقاها إلى مريم وروح منه فاشفع لنا إلى ربك ، الا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا فيقول لهم عيسى إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولم يغضب بعده مثله ، ولم يذكر ذنباً . نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم فيأتون فيقولون : يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء والمرسلين ، وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ، الا ترى ما قد بلغنا ، فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي ، ثم يفتح الله علي ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه لأحد غيري من قبلي ثم قال : يا محمد ارفع رأسك ، سل تعط واشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأقول يا رب أمتي أمتي ، فيقال يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه في الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب والذي نفس محمد بيده إن ما بين المصراعين من مصارع الجنة

لكما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبصرى » أ . هـ وفي البخاري « كما بين مكة وحمير »[1] .

* * *

ذكر أبو حامد أن الناس في الموقف على طبقات مختلفة ، وأنواع متباينة بحسب جرائمهم كمانع الزكاة والغال والغادر ، وآخرون قد عظمت فروجهم وهي تسيل صديداً يتأذى بنتنها جيرانهم ، وآخرون قد صلبوا على جذوع النيران ، وآخرون قد خرجت ألسنتهم على صدورهم أقبح ما يكون وهؤلاء المذكورون هم الزناة واللوطية والكاذبون ، وآخرون قد عظمت بطونهم كالجبال الرواسي وهم آكلوا الربا وكل ذي ذنب قد بدا سوء ذنبه . . ذكره في كتاب « كشف علوم الآخرة » .

* * *

قال القرطبي : « هذه الشفاعة العامة التي خص بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من بين سائر الأنبياء هي المراد بقوله عليه السلام « لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته واني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي » أ . هـ رواه الائمة البخاري ومسلم وغيرهما ، وهذه الشفاعة العامة لأهل الموقف انما هي ليعجل حسابهم ويراحوا من هول الموقف وهي الخاصة به صلى الله عليه وسلم وقوله أقول يا رب أمتي أمتي : اهتمام بأمر أمته واظهار محبته فيهم وشفقته عليهم ، وقوله فيقال يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليه يدل على أنه شفع فيما طلب من تعجيل حساب أهل الموقف فإنه لما أمر بادخال من لا حساب عليه من أمته فقد شرع في حساب من عليه حساب من أمته وغيرهم . وكان طلبه هذه الشفاعة من الناس بالهام من الله تعالى لهم حتى يظهر في ذلك اليوم مقام نبيه صلى الله عليه وسلم المحمود الذي وعده وكذلك قال كل نبي : لست لها حتى انتهى الأمر إلى محمد صلى الله عليه وسلم فقال إنها لها » أ . هـ[2] .

---

(١) أخرجه مسلم وهذا لفظه . . وأخرجه البخاري وغيره بلفظ قريب من هذا اللفظ .

(٢) التذكرة (٢٩٦) .

الشفاعة هي المقام المحمود :

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « إن الناس يضيرون جثياً كل أمة تتبع نبيها تقول أشفع يا فلان حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود » أ . هـ[1] .

قال القرطبي : « قوله فيفزع الناس ثلاث فزعات انما ذلك . . والله أعلم حين يؤتى بالنار تجر بأزمتها وذلك قبل العرض والحساب على الملك الديان فإذا نظرت إلى الخلائق فارت وثارت وشهقت إلى الخلائق وزفرت نحوهم وتوثبت عليهم غضباً لغضب ربهم فتتساقط الخلائق حينئذ على ركبهم جثاة حولها قد أسبلوا الدموع من أعينهم ونادى الظالمون بالويل والثبور . ثم تزفر الثانية فيزداد الرعب والخوف في القلوب . ثم تزفر الثالثة فتتساقط الخلائق لوجوههم ويشخصون بأبصارهم وهم ينظرون من طرف خفي خوفا أن تبلغهم أو يأخذهم حريقها أجارنا الله منها .

واختلف الناس في المقام المحمود على خمسة أقوال :

الأول : أنه الشفاعة العامة للناس يوم القيامة . . قاله حذيفة بن اليمان وابن عمر رضي الله عنهم .

الثاني : أنه اعطاؤه عليه السلام لواء الحمد يوم القيامة قلت : وهذا القول لا تنافي بينه وبين الأول فإنه يكون بيده لواء الحمد ويشفع .

روى الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا وأنا خطيبهم إذا وفدوا وأنا مبشرهم إذا أيسوا ، لواء الحمد بيدي ، فأنا أكرم ولد آدم علّ ربي ولا فخر » أ . هـ .

الثالث : ما حكاه الطبري عن فرقة منها مجاهد : أنها قالت : المقام

---

(١) أخرجه البخاري .

المحمود هو أن يجلس الله محمدا صلى الله عليه وسلم معه على كرسيه وروت في ذلك حديثا قلت وهذا قول مرغوب عنه . . وإن صح الحديث فيتأول على أنه يجلسه مع أنبيائه وملائكته قال ابن عبد البر في كتاب التمهيد : ومجاهد وإن كان أحد الأئمة بتأويل القرآن فإن له قولين مهجورين عند أهل العلم أحدهما هذا ، والثاني في تأويل قوله تعالى :

﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾[1] .

قال تنتظر الثواب وليس من المنتظر .

الرابع : اخراجه طائفة من النار . . روى مسلم عن يزيد الفقير قال : كنت قد شغفني رأي من رأى الخوارج فخرجنا في عصابة ذوي عدد نريد الحج ثم نخرج على الناس فمررنا على المدينة فإذا جابر بن عبد الله رضي الله عنه يحدث الناس أو القوم إلى سارية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : وإذا هو قد ذكر الجهنميين قال : فقلت له يا صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هذا الذي تحدثون والله تعالى يقول :

﴿ ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته ﴾[2] . .

ويقول :

﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها اعيدوا فيها ﴾[3] . .

فما هذا الذي تقولون فقال : أتقرأ القرآن فقلت نعم فقال فهل سمعت بمقام محمد صلى الله عليه وسلم يعني الذي يبعثه الله عز وجل فيه قلت نعم قال فإنه مقام محمد صلى الله عليه وسلم الذي يخرج الله به من يخرج . .

وذكر الحديث . .

الخامس : ما روى أن مقامه المحمود شفاعته رابع أربعة وسيأتي .

---

(١) القيامة : ٢٢ ، ٢٣ .
(٢) آل عمران : ١٩٢ .
(٣) السجدة : ٢٠ .

فإذا ثبت أن مقامه المحمود هو أمر الشفاعة الذي يتدافعه الأنبياء عليهم السلام حتى ينتهي الأمر إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فيشفع هذه الشفاعة العامة لأهل الموقف مؤمنهم وكافرهم ليراحوا من هول موقفهم فاعلم أن العلماء اختلفوا في شفاعاته وكم هي فقال النقاش:لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث شفاعات العامة وشفاعة في السبق إلى الجنة وشفاعة في أهل الكبائر . .

وقال ابن عطية في تفسيره : والمشهور أنهما شفاعتان فقط العامة . . وشفاعة في اخراج المذنبين من النار ، وهذه الشفاعة الثانية لا يتدافعها الأنبياء بل يشفعون ويشفع العلماء .

قال القاضي عياض : شفاعات نبينا صلى الله عليه وسلم خمس شفاعات الأولى العامة . والثانية : ادخال قوم الجنة بغير حساب ، والثالثة : في قوم من أمته استوجبوا النار بذنوبهم فيشفع فيهم نبينا صلى الله عليه وسلم ومن شاء أن يشفع ويدخلون الجنة وهذه الشفاعة هي التي أنكرتها المبتدعة الخوارج والمعتزلة فمنعتها على أصولهم الفاسدة وهي الاستحقاق العقلي المبني على التحسين والتقبيح . الرابعة : فيمن دخل النار من المذنبين فيخرج بشفاعة نبينا وغيره من الأنبياء والملائكة واخوانهم من المؤمنين . .

الخامسة : في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها وترفيعها . . قال القاضي عياض : وهذه الشفاعة لا تنكرها المعتزلة ولا تنكر شفاعة الحشر الأول . .

قال القرطبي : « وشفاعة سادسة لعمه أبي طالب في التخفيف . . كما رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر عنده عمه أبو طالب فقال : لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من نار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه . . فإن قيل فقد قال الله تعالى : « فما تنفعهم شفاعة الشافعين » قيل له لا تنفع في الخروج من النار كعصاة الموحدين الذين يخرجون منها ويدخلون الجنة .

* * *

واختلف العلماء هل وقع من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين بعد النبوة صغائر من الذنوب يؤاخذون بها ويعاتبون عليها ويشفعون على أنفسهم منها أم لا بعد اتفاقهم على أنهم معصومون من الكبائر ومن الصغائر التي تزري بفاعلها وتحط منزلته وتسقط مروءته إجماعاً عند القاضي أبي بكر . .

قال جمهور من الفقهاء من أصحاب مالك وأبي حنيفة والشافعي انهم معصومون من الصغائر كلها كعصمتهم من الكبائر لأنا أمرنا باتباعهم في أفعالهم وآثارهم وسيرهم أمراً مطلقاً من غير التزام قرينة فلو جوزنا عليهم الصغائر لم يمكن الاقتداء بهم اذ ليس كل فعل من أفعالهم يتميز مقصده من القربة أو الإباحة أو الخطر أو المعصية ولا يصح أن يؤمر المرء بامتثال أمر لعله معصية لا سيما على من يرى تقديم الفعل على القول إذا تعارضا من الأصوليين .

قال الأستاذ أبو اسحاق الاسفرايني : واختلفوا في الصغائر والذي عليه الأكثرون أن ذلك غير جائز عليهم ومال بعضهم إلى تجويزها ولا أصل لهذه المقالة .

وقال بعض المتأخرين ممن ذهب إلى القول الأول : والذي ينبغي أن يقال : إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم ونسبها اليهم وعاتبهم عليها وأخبروا بها عن نفوسهم وتنصلوا منها واستغفروا منها وتابوا وكل ذلك ورد في مواضع كثيرة لا تقبل التأويل جملتها وإن قبل ذلك آحادها وكل ذلك مما لا يزري بمناقبهم وإنما تلك الأمور التي وقعت على جهة الندور وعلى جهة الخطأ والنسيان أو تأويل دعا إلى ذلك فهي بالنسبة إلى غيرهم حسنات وفي حقهم سيئات بالنسبة إلى مناصبهم وعلو أقدارهم إذ قد يؤاخذ الوزير بما يثاب عليه السائس فأشفقوا من ذلك في موقف القيامة مع علمهم بالأمن والأمان والسلام وهذا هو الحق .

ولقد أحسن الجنيد رضي الله عنه حيث قال : حسنات الأبرار سيئات المقربين فهم صلوات الله عليهم وسلامه وإن كانوا قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم فلم يخل ذلك بمناصبهم ولا قدح في رتبهم بل قد تلافاهم واجتباهم

وهداهم ومدحهم وزكاهم واصطفاهم صلوات الله عليهم وسلامه .

* * *

سؤال العبد :

قال تعالى :

﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾(١) .

عن أبي برزة الاسلمي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه ؟ وعن جسده فيما أبلاه ؟ وعن عمله ما عمل فيه ؟ وعن ماله من أين اكتسبه ؟ وفيما أنفقه ؟ » ؟ ٠هـ(٢) .

حوض النبي صلى الله عليه وسلم :

عن أنس قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى اغفاءة ثم رفع رأسه مبتسماً فقلنا : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : نزلت علي آنفاً سورة فقرأ :

« بسم الله الرحمن الرحيم إِنَّا أعطيناك الكوثر فصلِّ لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر » .

ثم قال : أتدرون ما الكوثر ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه نهر وعدنيه إليَّ عليه خير كثير ، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة أبنيته عدد النجوم ، فيختلع العبد منهم فأقول : يا رب انه من أمتي ، فيقال ما تدري ما أحدث بعدك » ؟ ٠هـ .(٣) .

ـ وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه

---

(١) الاسراء : ٣٦ .
(٢) أخرجه مسلم والترمذي وقال : حديث حسن صحيح .
(٣) أخرجه مسلم . .

وسلم : « حوض مسيرة شهر وزواياه سواء وماؤه أبيض من الورق وريحه أطيب من المسك ، كيزانه كنجوم السماء من ورد مشرب منه لم يظمأ بعده أبداً » ١ • هـ[1] .

وعن ثوبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إني لبقعر حوض أذود الناس لأهل اليمين أضرب بعصاي حتى يرفض عليهم فسئل عن عرضه فقال : من مقامي إلي عمان . وسئل عن شرابه فقال : أشد بياضاً من الثلج وأحلى من العسل ، يغت فيه ميزابان من الجنة[2] أحدهما من ذهب والآخر من ورق » ١ • هـ[3] .

* * *

ذهب بعض العلماء إلى أن حوض النبي صلى الله عليه وسلم بعد الصراط . . وقالوا : والصحيح أن للنبي صلى الله عليه وسلم حوضين أحدهما في الموقف قبل الصراط ، والثاني في الجنة وكلاهما يسمى كوثراً . .

قال القرطبي : « والمعنى يقتضيه فإن الناس يخرجون عطاشاً من قبورهم فيقدم قبل الصراط والميزان والله أعلم » . .

وقال الغزالي في كشف علوم الآخرة : « وحكى بعض السلف من أهل التصنيف أن الحوض يورد بعد الصراط وهو غلط من قائله » . .

ثم يعلق القرطبي قائلاً : « هو كما قال . . وقد روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

بينا أنا قائم على الحوض إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال : هلم فقلت إلى أين ؟ فقال إلى النار والله ، قلت ما شأنهم فقال : انهم قد ارتدوا على أدبارهم فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم ١ • هـ[4] .

---

(١) اخرجه البخاري . .
(٢) أي يمدانه دائماً . .
(٣) أخرجه مسلم وغيره . .
(٤) هم ؛ اللدمع والمطر .

فهذا الحديث مع صحته أول دليل على أن الحوض يكون في الموقف قبل الصراط لأن الصراط إنما هو جسر على جهنم ممدود ويجاز عليه فمن جازه سلم من النار[1] .

* * *

الكوثر :

ـ عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« الكوثر نهر في الجنة حافتاه من ذهب ومجراه الدر والياقوت تربته أطيب من المسك وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج » ؟ ٠ هـ[2] . .

ـ وعن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« بينا أنا أسير في الجنة إذ أنا بنهر في الجنة حافتاه قباب الدر المجوف ، قلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذي أعطاك ربك فإذا طينته مسك أذفر » ؟ ٠ هـ[3] . .

* * *

هل لكل نبي حوض ؟

عن سمرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن لكل نبي حوضاً وانهم يتباهون أيهم أكثر وراده وإني أرجو أن أكون أكثرهم وراداً» ؟ ٠ هـ[4] .

ولم أقف على غير هذا الحديث . . ولا على تفصيل وبيان لأحد الفقهاء . . والحديث كما قال الترمذي : حسن غريب . . ولا نستطيع أن نقطع

---

(١) التذكرة (٣٦٢)
(٢) أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن .
(٣) أخرجه البخاري . . وقال الترمذي : حسن صحيح .
(٤) أخرجه الترمذي وقال : حسن صحيح .

بأن لكل نبي حوضاً . . والله أعلم .

* * *

الميزان

قال الله تعالى :

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ﴾[1] . .

وقال :

﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ. فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ. وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ. فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾[2] . .

ـ وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن الله يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مثل مد البصر ثم يقول : « أتنكر من هذا شيئاً أظلمك كتبتي الحافظون فيقول : لا يا رب فيقول أفلك عذر فقال لا يا رب ، فيقول بل إن لك عندنا حسنة فإنه لا ظلم عليك اليوم فيخرج له بطاقة « أشهد أن لا إله إلا الله . . وأن محمداً عبده ورسوله » فيقول احضر وزنك فيقول : يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شيء » ؟ ا هـ[3] . .

قال القرطبي « الميزان حق ولا يكون في حق كل أحد بدليل قوله تعالى :

﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ ﴾[4] . .

---

(١) الأنبياء : ٤٧ .

(٢) القارعة : من ٦ : ٩ .

(٣) رواه الترمذي وقال حسن غريب . . وكذا أخرجه ابن ماجة في سننه .

(٤) الرحمن : ٤١ .

الآية ، وإنما يكون لمن بقي من أهل المحشر من خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً من المؤمنين ، وقد يكون للكافرين » . .

قال أبو حامد الغزالي « والسبعون الألف الذين يدخلون الجنة بلا حساب لا يرفع لهم ميزان ولا يأخذون صحفاً وإنما هي براءات مكتوبة لا إله إلا الله محمد رسول الله هذه براءة فلان ابن فلان قد غفر له وسعد سعادة لا يشقى بعدها فما مر عليه شيء أسر من ذلك المقام[1] . .

ـ وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« يؤتى بالشهيد يوم القيامة فينصب للحساب ويؤتى بالمتصدق فينصب للحساب ، ثم يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان فيصب عليهم الأجر صباً حتى إن أهل العافية ليتحنون في الموقف أن اجسامهم قرضت بالمقاريض من حسن ثواب الله تعالى لهم » ١ ٠ هـ[2] .

* * *

قال القرطبي . . فإن قيل أما وزن أعمال المؤمنين فظاهر وجهه فتقابل الحسنات بالسيئات فتوجد حقيقة الوزن والكافر لا يكون له حسنات فما الذي يقابل بكفره وسيئاته وأنىَّ يتحقق في أعماله الوزن . .

فالجواب : إن ذلك على وجهين أحدهما أن الكافر يحضر له ميزان فيوضع كفره أو كفره وسيئاته في احدى كفتيه ثم يقال له هل لك من طاعة تضعها في الكفة الأخرى فلا يجدها فيشال الميزان فترتفع الكفة الفارغة وتقع الكفة المشغولة فذلك خفة ميزانه وهذا ظاهرَ الآية لأن الله تعالى وصف الميزان بالخفة لا الموزون وإذا كان فارغاً فهو خفيف والوجه الآخر أن الكافر يكون منه صلة الأرحام ومواساة الناس وعتق المملوك ونحوهما مما لو كانت في المسلم لكانت قربة وطاعة. ممن كانت له مثل هذه الخيرات من الكفار فإنها تجمع وتوضع في ميزانه غير أن

---

(١) انظر دخول الجنة بغير حساب . . للمؤلف ط دار المسلم ففيه تفصيل كامل لهذه المسألة .

(٢) اخرجه ابو نعيم وذكره القاضي منذر بن سعيد البلوطي ، وهو غريب من حديث جار الجعفر وقتادة وتفرد به قتادة عن جابر عن ابن عباس عن مجاعة بن الزبير .

الكفر إذا قابلها بها رجح بها ولم يخل من أن يكون الجانب الذي فيه الخيرات من ميزانه خفيفاً ولو لم يكن له إلا خير واحد أو حسنة واحدة لأحضرت ووزنت كما ذكرنا .

* * *

ـ فإن قيل : لو احتسبت خيراته حتى يوزن لجوزي بها جزاء مثلها وليس له منها جزاء لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن عبد الله بن جدعان وقيل له : إنه كان يقري الضيف ويصل الرحم ويعين في النوائب فهل ينفعه ذلك ، فقال : إن أباك طلب أمراً فأدركه يعني الذكر فدل أن الخيرات من الكافر ليست بخيرات وأن وجودها وعدمها بمنزلة واحدة سواء .

والجواب أن الله تعالى قال :

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ﴾[1] . .

ولم يفصل بين نفس ونفس فخيرات الكافر توزن ويجزي بها إلا أن الله تعالى حرم عليها الجنة فجزاؤه أن يخفف عنه بدليل حديث أبي طالب فإنه قيل له يا رسول الله أن أبا طالب كان يحوطك وينصرك فهل تنفعه ذلك ، فقال : نعم ، وجدته في غمرات من النار فأخرجته إلى ضحضاح[2] ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار ، وما قاله عليه السلام في ابن جدعان وأبي عدي إنما هو في أنهما لا يدخلان الجنة ولا يتنعمان بشيء من نعيمها . . والله أعلم . .

* * *

وأصل كلمة ميزان موزان قلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها . .

قال ابن فورك : وقد انكرت المعتزلة الميزان بناء منهم على أن الأعراض يستحيل وزنها اذ لا تقوم بأنفسها ، ومن المتكلمين من يقول كذلك . . وروي ذلك عن ابن عباس أن الله تعالى يقلب الأعراض أجساماً فيزنها يوم القيامة . .

---

(١) الأنبياء : ٤٧ .

(٢) أي إلى السعة والتخفيف .

والصحيح أن الموازين تثقل بالكتب فيها الأعمال المكتوبة وبها تخف كما دل عليه الحديث الصحيح والكتاب العزيز . . قال الله تعالى :

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ.كِرَاماً كَاتِبِينَ ﴾[1] . .

وهذا نص . . قال ابن عمر : توزن صحائف الأعمال وإذا ثبت هذا فالصحف أجسام فيجعل الله تعالى رجحان احدى الكفتين على الأخرى دليلاً على كثرة أعماله بادخاله الجنة أو النار .

وروي عن مجاهد والضحاك والأعمش : إن الميزان هنا بمعنى العدل والقضاء وذكر الوزن والميزان ضرب مثل . . كما يقال هذا الكلام في وزن هذا وفي وزانه أي يعادله ويساويه وإن لم يكن هناك وزن .

وعلق القرطبي قائلاً على هذا القول : « وهذا القول مجاز وليس بشيء وإن كان شائعاً في اللغة للسنة الثابتة في الميزان الحقيقي ، ووصفه بلغتين ولسان وإن كل كفة منهما طباق السماوات والأرض . .

وقد جاء أن كفة الحسنات من نور ، والأخرى من ظلام والكفة النيرة للحسنات والكفة المظلمة للسيئات» ؟ ٠هـ[2] . .

* * *

أصحاب الأعراف

عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« توضع الموازين يوم القيامة فتوزن السيئات والحسنات ، فمن رجحت حسناته على سيئاته مثقال صؤابة[3] دخل الجنة ، ومن رجحت سيئاته على حسناته مثقال صؤابة دخل النار ، قيل يا رسول الله فمنْ استوت حسناته

---

(١) الانفطار : ١٠ ، ١١ .

(٢) التذكرة (٣٧٨) .

(٣) يراد به الشيء القليل الضئيل .

وسيئاته قال أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون » ؟ ٠ هـ[1] .

قال أبو حامد الغزالي في كشف علوم الآخرة : « إنه يؤتى برجل يوم القيامة فما يجد له حسنة ترجح ميزانه وقد اعتدلت بالسوية فيقول الله تعالى رحمة منه : اذهب في الناس فالتمس من يعطيك حسنة أدخلك بها الجنة فيصبر[2] يجوس خلال العالمين فما يجد أحداً يكلمه في ذلك الأمر إلا يقول له خفت أن يخف ميزاني فأنا أحوج منك إليها فييأس فيقول له رجل ما الذي تطلب فيقول حسنة واحدة . . فلقد مررت بقوم لهم منها الألف فبخلوا عليّ فيقول له الرجل : لقد لقيت الله تعالى فما وجدت في صحيفتي إلا حسنة واحدة ، وما أظنها تغني عني شيئاً خذها هبة مني إليك فينطلق فرحاً مسروراً فيقول الله له ما بالك وهو أعلم فيقول : رب اتفق من أمري كيت وكيت ، ثم ينادي سبحانه بصاحبه الذي وهبه الحسنة فيقول له سبحانه كرمي أوسع من كرمك خذ بيد أخيك وانطلقا إلى الجنة .

وكذا تستوي كفة الميزان لرجل فيقول الله تعالى له : « لست من أهل الجنة ولا من أهل النار فيأتي الملك بصحيفته فيضعها في كفة الميزان فيها مكتوب أف فترجح على الحسنات لأنها كلمة عقوق ترجح بها جبال الدنيا فيؤمر به إلى النار ، قال فيطلب الرجل أن يرده الله تعالى فيقول ردوه فيقول له : أيها العبد العاق لأي شيء تطلب الرد إليّ فيقول آلهي رأيت أني سائر إلى النار وإذ لا بد لي منها وكنت عاقاً لأبي وهو سائر إلى النار مثلي فضعف عليَّ به عذاب ، وأنقذه منها قال : فيضحك الله تعالى ويقول : عققته في الدنيا وبررته في الآخرة . . خذ بيد أبيك وانطلقا إلى الجنة . .

* * *

وأما أصحاب الأعراف فيقال انهم مساكين أهل الجنة . .

ذكر هناد بن السري قال : حدثنا وكيع عن سفيان عن مجاهد عن حبيب عن عبد الله بن الحارث قال : « أصحاب الأعراف ينتهي بهم إلى نهر يقال انه

---

(١) ذكره خيثمة بن سليمان في مسنده .

(٢) أي يجري هنا وهناك .

الحياة حافتاه قصب الذهب ، قال أراه كال مكلل باللؤلؤ فيغتسلون منه اغتساله فيبدو في نحورهم شامة بيضاء ، ثم يعودون فيغتسلون فكلما اغتسلوا ازدادت بياضاً فيقال لهم تمنوا فيتمنون ما شاؤوا قال : فيقال لهم لكم ما تمنيتم وسبعين ضعفاً قالوا فهم مساكين أهل الجنة . .

وفي رواية : فإذا دخلوا الجنة وفي نحورهم تلك الشامة البيضاء فيعرفون بها ، قال فهم يسمون في الجنة مساكين أهل الجنة .

* * *

قال القرطبي في التذكرة : واختلف العلماء في تعيينهم على أثني عشر قولاً . .

الأول : ما تقدم « وهو ما ذكرناه » . .

الثاني : قوم صالحون فقهاء علماء . . قاله مجاهد . .

الثالث : هم الشهداء . . ذكره المهدوي .

الرابع : هم فضلاء المؤمنين والشهداء فرغوا من شغل أنفسهم وتفرغوا لمطالعة أحوال الناس . . ذكره أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيري .

الخامس : هم المستشهدون في سبيل الله الذين خرجوا عصاة لأبائهم . . قاله شرحبيل بن سعد . . ذكره الطبري في ذلك حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه تعادل عقوقهم واستشهادهم .

السادس : هم العباس وحمزة وعلي بن أبي طالب وجعفر ذو الجناحين يعرفون محبيهم ببياض الوجوه ومبغضيهم بسواد الوجوه . . ذكره الثعلبي عن ابن عباس .

السابع : هم عدول القيامة الذين يشهدون على الناس وهم في كل أمة . . ذكره الزهراوي . . واختاره النحاس . .

الثامن : هم قوم أنبياء . . قاله الزجاج .

التاسع : هم قوم كانت لهم صغائر لم تكفر عنهم بالآلام والمصائب ، فوقفوا وليست لهم كبائر فيحبسون عن الجنة لينالهم بذلك غم فيقع في مقابلة صغائرهم . . حكاه ابن عطية القاضي أبو محمد في تفسيره . .

العاشر : ذكره ابن وهب عن ابن عباس قال : أصحاب الأعراف الذين ذكرهم الله في القرآن[1] أصحاب الذنوب العظام من أهل القبلة . . وذكره ابن المبارك قال : أخبرنا جويد عن الضحاك عن ابن عباس قال : أصحاب الأعراف رجال كانت لهم ذنوب عظام وكان جسيم أمرهم لله فأقيموا ذلك المقام إذا نظروا إلى أهل النار عرفوهم بسواد الوجوه ، وقالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين . . وإذا نظروا إلى أهل الجنة عرفوهم ببياض وجوههم .

قال ابن عباس : أدخل الله أصحاب الأعراف الجنة . . وفي رواية سعيد ابن جبير عن عبد الله بن مسعود وكانوا آخر أهل الجنة دخولاً الجنة . .

قال ابن عطية : وتمنى سالم مولى أبي حذيفة أن يكون من أصحاب الأعراف لأن مذهبه أنهم مذنبون .

الحادي عشر : أنهم أولاد الزنا . . ذكره أبو نصر القشيري عن ابن عباس .

الثاني عشر : أنهم ملائكة موكلون بهذا السور يميزون الكافرين من المؤمنين قبل ادخالهم الجنة والنار . . قاله أبو لجلز لاحق بن حميد فقيل له لا يقال للملائكة رجال فقال : إنهم ذكور وليسوا باناث فلا يبعد ايقاع الرجال عليهم كما وضع على الجن في قوله تعالى :

﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً ﴾ .

---

(1) يشير إلى الآية « وبينهما حجاب وعلى الاعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون » ٤٦ : الأعراف .

والأعراف : سور بين الجنة والنار .. قيل هو جبل أحد يوضع هناك .. روي عن النبي صلى الله عليه وسلم من طريق أنس وغيره ذكره أبو عمر بن عبدالبر وغيره[1] ..

* * *

رأي ابن كثير :

قال ابن كثير في تفسيره بعد أن عرض كل الآراء التي أوردناها في الاختلاف الحادث عن الأعراف : قوله تعالى :

﴿ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ ﴾ ..

قال فيقال حين يدخل أهل الجنة الجنة :

﴿ ادْخُلُوا الجنةَ لَا خَوْفٌ عَلَيكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ ..

وهذا صحيح إلى أبي لجلز لاحق بن حميد أحد التابعين وهو غريب من قوله وخلاف الظاهر من السياق .. وقول الجمهور مقدم على قوله بدلالة الآية على ما ذهبوا إليه ، وكذا قول مجاهد أنهم قوم صالحون علماء فقهاء فيه غرابة أيضاً والله أعلم ..

وقوله تعالى :

﴿ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ﴾ ..

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه وأهل النار بسواد الوجوه .. وكذا روى الضحاك عنه ..

وقال العوفي عن ابن عباس : أنزلهم الله تلك المنزلة ليعرفوا في الجنة والنار وليعرفوا أهل النار بسواد الوجوه ويتعوذوا بالله أن يجعلهم مع القوم الظالمين .. وهم في ذلك يحيون أهل الجنة بالسلام لم يدخلوها وهم يطمعون أن يدخلوها

---

(١) التذكرة (٣٨٧) .

وهم داخلوها إن شاء الله وكذا قال مجاهد والضحاك والسدي والحسن وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم .

وقال معمر عن الحسن أنه تلا هذه الآية :

﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ . .

قال والله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم إلا لكراهة يريدها بهم .

وقال قتادة : قد أنبأكم الله بمكانهم من الطمع . .

وقوله :

﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ . .

قال الضحاك عن ابن عباس أن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين . .

وقال السدي وإذا مروا بهم يعني أصحاب الأعراف بزمرة يذهب بها إلى النار قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين . . وقال عكرمة : تجدد وجوههم للنار فإذا رأوا أصحاب الجنة ذهب ذلك عنهم » ! . هـ .

روى بعد الصالحين رضي الله عنه قال : أخذتني ذات ليلة سِنَةٌ فنمت فرأيت في منامي كأن القيامة قد قامت وكأن الناس يحاسبون فقوم يمضي بهم إلى الجنة وقوم يمضي بهم إلى النار ، قال فأتيت إلى الجنة فناديت أهل الجنة بماذا نلتم سكن الجنة في محل الرضوان ؟ فقالوا بطاعة الرحمن ومخالفة الشيطان ثم اتيت إلى باب النار ، فناديت يا أهل النار بماذا نلتم النار ، قالوا بطاعة الشيطان ومخالفة الرحمن . . قال فنظرت فإذا أنا بقوم موقوفون بين الجنة والنار ، فقالوا لي لنا ذنوب جَلَّتْ وحسنات قَلَّتْ فالسيئات منعتنا من دخول الجنة والحسنات منعتنا دخول النار . . وأنشدوا :

نَحْنُ قَوْمٌ لَنَا ذُنُوبٌ كِبَارٌ   مَنَعَتْنَا مِنَ الوُصُولِ إِلَيْهِ

تَـرَكْـتَـنَـا مُـذَبْـذَبِـيـنَ حَـيَـارَى   أَمْـسَـكْـتَـنَـا مِـنَ الـقُـدُومِ الـيْـهِ

* * *

اتباع كل أمة ما كانت تعبد

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال أناس لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تضارون في القمر ليلة البدر قالوا لا يا رسول الله ، قال فهل تضارون في رؤ ية الشمس ليس دونها سحاب قالوا لا قال : فإنكم ترونه كذلك يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول : من كان يعبد شيئاً فليتبعه فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ، ويتبع من كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها فيأتيهم الله في صورة غير صورته التي يعرفون ، فيقول أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاء ربنا عرفناه فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون فيقول أنا ربكم فيقولون أنت ربنا فيتبعونه ، ويضرب الصراط بين ظهري جهنم ، فأكون أنا وأمتي أول من يجوز ولا يتكلم يومئذ الا الرسل ودعوى الرسل يومئذ اللهم سَلِّم سَلِّم ، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم السعدان ، قالوا نعم يا رسول الله قال : فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله تخطف الناس بأعمالهم فمنهم الموبق بعمله ومنهم المجازي حتى ينجى . . الحديث » أ . هـ[1]

- وذكر الفقيه أبو بكر بن برجان في كتاب الارشاد له بعد قوله : يلهم رؤوس المحشر لطلب من يشفع ويريحهم مما هم فيه وهم رؤساء أتباع الرسل فيكون ذلك ، ثم يؤمر آدم عليه السلام بأن يخرج بعث النار من ذريته وهم سبعة أصناف البعثان الأولان يلتقطهم عنق النار من بين الخلائق لقط الحمام حب

---

(١) أخرجه مسلم

السمسم وهم اهل الكفر بالله جحداً وعتواً ، وأهل الكفر بالله اعراضاً وجهلا ، ثم يقال لأهل الجمع :

أين ما كنتم تعبدون من دون الله لتتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فمن كان يعبد من دون الله شيئاً اتبعه حتى يقذف به في جهنم . .

قال الله عز وجل :

﴿ هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾[1] . .

وعلق القرطبي على الحديث الأول فقال :

« قوله : هل تضارون بضم التاء وفتحها وبتشديد الراء وتخفيفها ، وضم التاء وتشديد الراء أكثر وأصله تضارون أسكنت الراء الأولى وادغمت مع الثانية وماضيه ضورر على ما لم يسم فاعله ، ويجوز أن يكون مبنياً للفاعل بمعنى تضارون بكسر الراء الا أنها سكنت الراء وأدغمت وكله بن الضرر المشدد ، وأما التخفيف فهو من ضاره يضيره ويضوره مخففاً .

والمعنى أن أهل الجنة إذا إمتنّ الله عليهم برؤ يته سبحانه تجلى لهم ظاهراً بحيث لا يحجب بعضهم بعضاً ولا يضره ولا يزاحمه ولا يجادله كما يفعل عند رؤ يته تعالى كما تزدحمون عند رؤ ية الأهلة .

وروي تضامون بتخفيف الميم من الضيم الذي هو الذل أي لا يذل بعضكم بعضاً بالمزاحمة والمنافسة والمنازعة . .

قوله : فإنكم ترونه كذلك هذا تشبيه الرؤ ية وحالة الرائي لا المرئي لأن الله سبحانه لا يحاط به وليس كمثله شيء ولا يشبهه شيء . .

وقوله : فيأتيهم الله في صورة غير صورته التي يعرفون هذا موضع الامتحان ليميز المحق من المبطل وذلك أنه لما بقي المنافقون والمراؤ ون متلبسين

---

(١) يونس : ٣٠ .

بالمؤمنين والمخلصين زاعمين أنهم منهم وأنهم عملوا مثل أعمالهم وعرفوا الله مثل معرفتهم امتحنهم الله بأن أتاهم بصورة قالت للجميع أنا ربكم فأجاب المؤمنون بانكار ذلك والتعوذ منه لما قد سبق لهم من معرفتهم بالله عز وجل في دار الدنيا ، وأنه منزه عن صفات هذه الصور إذ سماتها سمات المحدثات .

ولهذا قال في حديث أبي سعيد الخدري فيقولون : نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئاً مرتين أو ثلاثاً حتى أن بعضهم ليكاد أن ينقلب .

قال شيخنا أبو العباس أحمد بن عمر في كتاب المفهم لشرح اختصار كتاب مسلم وهذا لمن لم يكن له رسوخ العلماء ولعلهم الذين اعتقدوا الحق وجزموا عليه من غير بصيرة ولذلك كان اعتقادهم قابلا للانقلاب . . والله أعلم .

قلت : ويحتمل أن يكونوا المنافقين والمرائين وهو أشبه والله أعلم لأن في الامتحان الثاني يتحقق لأن في حديث أبي سعيد بعد قوله « حتى أن بعضهم ليكاد أن ينقلب فيقول هل بينكم وبينه آية فتعرفوه بها ؟ فيقولون : نعم ، فيكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود ولا يبقى من كان يسجد تقاء ورياء الا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خر على قفاه ، ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول في الصورة التي رأوا فيها فيقول : أنا ربكم ؟ فيقولون : أنت ربنا . ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة .

فيتبعونه أي يتبعون أمره أو ملائكته ورسله الذين يسوقونهم إلى الجنة . . والله أعلم .

والدعوى : الدعاء قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ دعواهم فيها سبحانك اللهم ﴾ . .

أي دعاؤهم .

والكلاليب : جمع كلوب والسعدان : نبت كثير الشوك شوكة كالخطاطيف

والمجاحن ترعاه الابل فيطلب لبنها ، تقول العرب : مرعى ولا كالسعدان والموبق : المهلك أوبقه ذنبه : أهلكه ومنه الحديز : اجتنبوا السبع المهلكات . .

وقوله :

« فَيكْشَفُ عَنْ سَاقٍ » . .

كشف الساق عبارة عن عظم الأمر وشدته . . ذكره ابن المبارك . . قال أخبرنا أسامة بن زيد عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾(1) . .

قال يوم كرب وشدة أخبرنا ابن جريج عن مجاهد قال : شدة الأمر وجده . . قال مجاهد . . وقال ابن عباس في أشد ساعة في القيامة .

وقال أبو عبيدة : إذا اشتد الأمر أو الجواب قيل : كشف الأمر عن ساقه . والأصل فيه أن من وقع في شيء يحتاج إلى الجلدِ شمر عن ساقه فاستعير الساق والكشف عنها في موضع الشدة . . وكذا قال القتبي . قال : يوم يكشف عن ساق هذا من الاستعارة فسمى الشدة ساقاً لأن الرجل إذا وقع في الشدة شمر عن ساقه فاستعيرت في موضع شدة قال الشاعر :

وَكُنْتُ إذَا جَارِي دَعَا لمضُوفَةٍ أُشَمِّرُ حَتَّى يُنصفَ السَّاقَ مِئْزَرِي

* * *

ذلك لأن اتباع منهج كذا . . انما يطغى على النفس ويتملك على ضيائها فتصبح النفس والمنهج سيناً واحداً . . فتميل بطبعها إلى صاحبه . . لما أحدث فيها هذا المنهج من تغيير وارتباط به . .

ولا عجب أن يحدث ذلك يوم القيامة . . لعل الناس بعد سماعهم هذا . . يخضعون لمنهج الله . . ولا يشرقون . . ولا يغربون . .

* * *

---

(1) القلم : ٤٢ .

الجواز على الصراط

روي عن بعض أهل العلم أنه قال : لن يجوز أحد الصراط حتى يسأل في سبع قناطر . .

فأما القنطرة الأولى : فيسأل عن الايمان بالله، وهي شهادة أن لا إله إلا الله ، فإن جاء بها مخلصاً ، والاخلاص قول وعمل جاز ، ثم يسأل على القنطرة الثانية عن الصلاة ، فإن جاء بها تامة جاز ، ثم يسأل على القنطرة الثالثة عن صوم شهر رمضان ، فإن جاء به تاماً جاز ، ثم يسأل على القنطرة الرابعة عن الزكاة فإن جاء بها تامة جاز ، ثم يسأل في الخامسة عن الحج والعمرة فإن جاء بهما تامتين جاز ، ثم يسأل في القنطرة السادسة عن الغسل والوضوء فإن جاء بهما تامين جاز ، ثم يسأل في السابعة وليس في القناطر أصعب منها فيسأل ظلامات الناس .

* * *

قال الغزالي : « إنه إذا لم يبق في الموقف إلا المؤمنون والمسلمون والمحسنون والعارفون والصديقون والشهداء والصالحون والمرسلون ليس فيهم مرتاب ولا منافق ولا زنديق فيقول الله تعالى: يا أهل الموقف ، من ربكم ؟ فيقولون : الله . فيقول لهم : أتعرفونه ؟ فيقولون : نعم . فيتجلى لهم ملك عن يسار العرش ، لو جعلت البحار السبع في نقرة ابهامه لما ظهرت ، فيقول لهم بأمر الله : أنا ربكم . فيقولون : نعوذ بالله منك ، فيتجلى لهم ملك عن يمين العرش لو جعلت البحار الأربعة عشر في نقرة ابهامه لما ظهرت فيقول لهم أنا ربكم : فيقولون : نعوذ بالله منك ، فيتجلى لهم الرب سبحانه في صورة غير صورته التي كانوا يعرفونه ، وسمعوا وهو يضحك فيسجدون له جميعهم فيقول أهلا بكم ثم ينطلق بهم سبحانه إلى الجنة فيتبعونه فيمر بهم على الصراط . .

والناس أفواج : المرسلون ، ثم النبيون ، ثم الصديقون ، ثم الشهداء ، ثم المؤمنون ثم العارفون ، ثم المسلمون منهم المكبوب لوجهه ومنهم المحبوس في الأعراف ومنهم قوم قصروا عن تمام الايمان فمنهم من يجوز الصراط على مائة

عام وآخر يجوز على ألف ، ومع ذلك كله لن تحرق النار من رأى ربه عياناً لا يضام في رؤيته .

شعار المؤمنين على الصراط

ـ عن المغيرة بن شعبة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « شعار المؤمنين على الصراط : رب سلِّم سلِّم » أ . هـ[1] .

* * *

من لا يوقف على الصراط طرفة عين

ورد أنه من لا يحدث في الدين حدثاً لا يوقف على الصراط طرفة عين .

ـ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « علِّم الناس سنتي ، وإن كرهوا ذلك ، وإن أحببت أن لا توقف على الصراط طرفة عين حتى تدخل الجنة فلا تحدث في دين الله حدثاً برأيك »[2] أ . هـ .

* * *

ثلاثة مواطن لا يخطئها النبي صلى الله عليه وسلم

ـ عن أنس قال : سألت النبي صلى الله عليه وسلم أن يشفع لي يوم القيامة قال : أنا فعال إن شاء الله . . قال : فأين أطلبك ؟ قال أول ما تطلبني على الصراط ، قلت ، فإن لم ألقك ؟ قال : فاطلبني عند الميزان . قلت فإن لم أجدك عند الميزان ؟ قال : فاطلبني عند الحوض ، فإني لا أخطىء هذه الثلاثة مواطن[3] .

---

(١) أخرجه الترمذي وقال : حديث غريب . . وقد جاء بهذا المعنى عند مسلم .

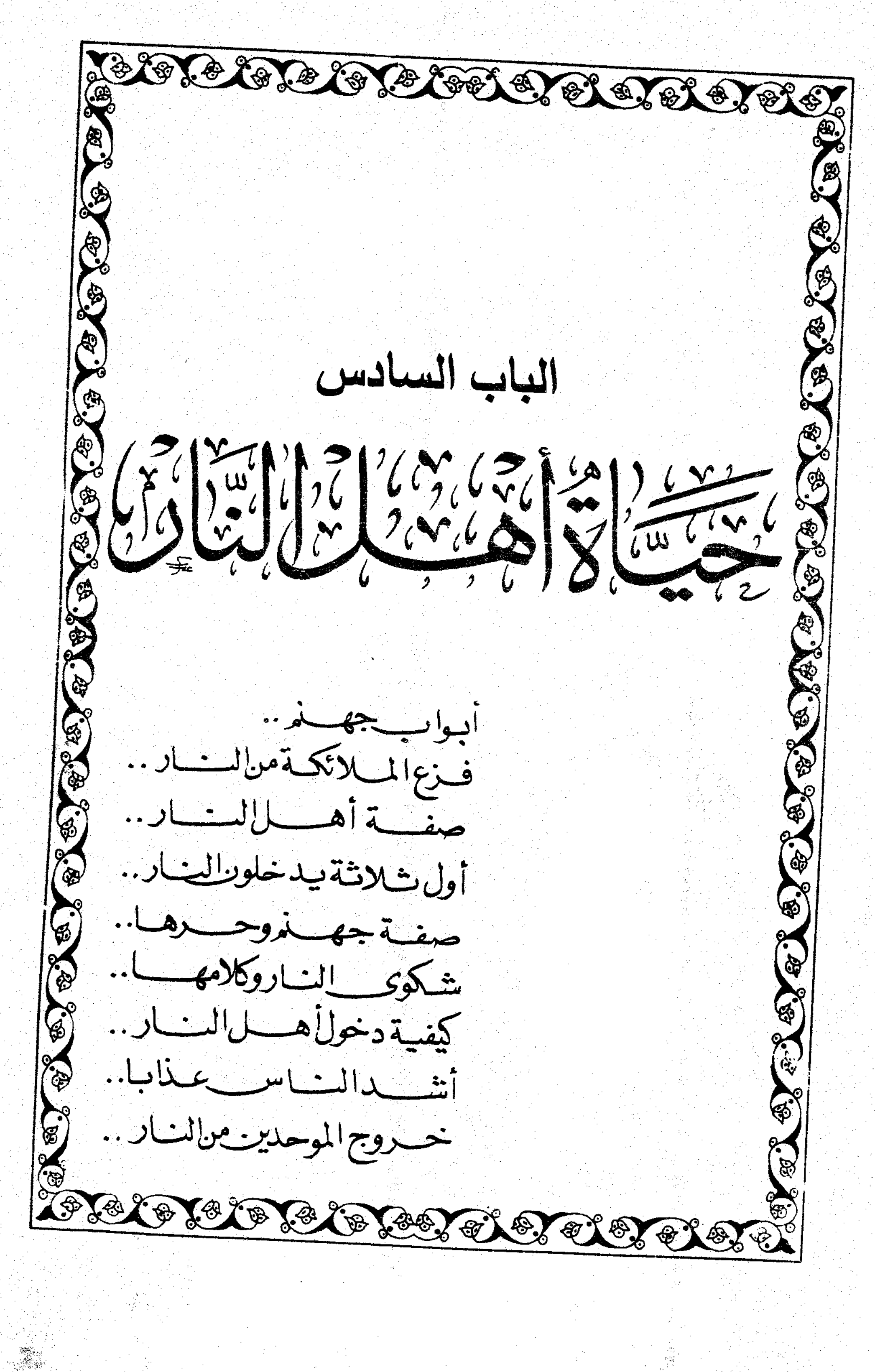
(٢) ذكره الوائلي وقال : هذا غريب والاسناد والمتن حسن .

(٣) أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن .

ذكر الصراط الثاني

قال القرطبي في التذكرة «اعلم وفقك الله أن في الآخرة صراطين أحدهما مجاز لأهل المحشر كلهم ثقيلهم وخفيفهم إلا من دخل الجنة بغير حساب أو من يلتقطه عنق النار فإذا خلص من خلص من هذا الصراط الأكبر الذي ذكرناه ولا يخلص منه إلا المؤمنون الذين علم الله منهم أن القصاص لا يستنفذ حسناتهم حبسوا على صراط آخر خاص لهم ولا يرجع إلى النار من هؤلاء أحد إن شاء الله لأنهم قد عبروا الصراط الأول المضروب على متن جهنم الذي يسقط فيها من أوبقه ذنبه وأربى على الحسنات بالقصاص جرمه» .

* * *



الباب السادس

حياة أهل النار

أبواب جهنم..

فزع الملائكة من النار..

صفة أهل النار..

أول ثلاثة يدخلون النار..

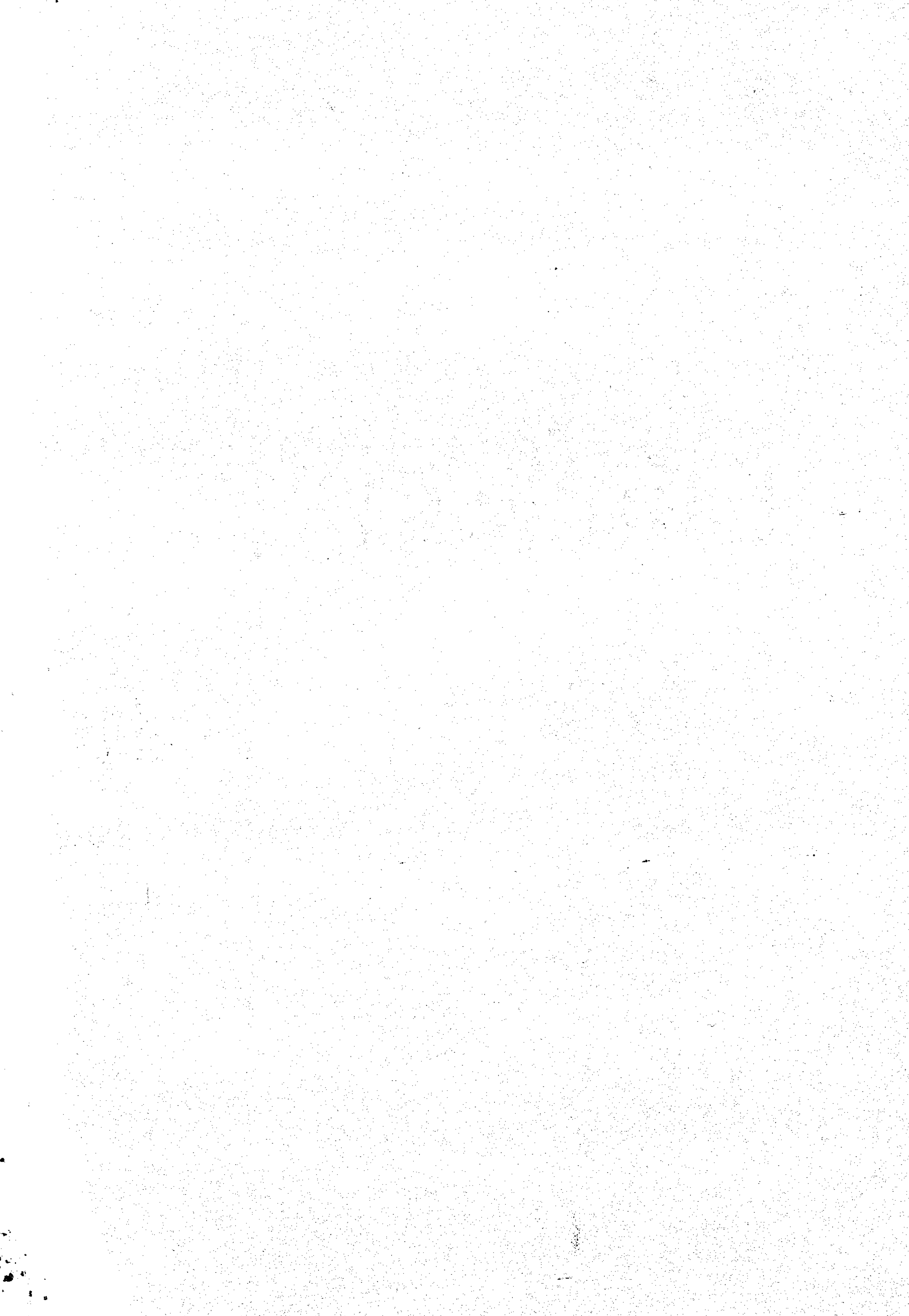
صفة جهنم وحرها..

شكوى النار وكلامها..

كيفية دخول أهل النار..

أشد الناس عذابا..

خروج الموحدين من النار..



حياة أهل النار

قال تعالى :

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَر.لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ.لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴾[1] .

ذكر ابن المبارك عن خالد بن أبي عمران بسنده إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« إن النار لتأكل أهلها حتى إذا اطلعت على أفئدتهم انتهت ثم تعود كما كانت ثم تستقبله أيضاً فتطلع على فؤاده وهو كذلك أبداً فذلك قوله تعالى :

﴿ نَارُ اللهِ الموقَدَةُ ﴾[2] . .

وقال :

﴿ وَإِذَا الجحِيمُ سُعِّرَتْ ﴾[3] . .

---

(١) المدثر : ٢٧ ـ ٢٩ .
(٢) الهمزة : ٦ .
(٣) التكوير : ١٢ .

وقال :

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾[1] .

وقال :

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾[2] .

فأوعد بها الكافرين وخوف الطغاة والمتمردين والعصاة من الموحدين لينزحوا عما نهاهم عنه فقال وقوله الحق :

﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾[3] ..

وقال :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾[4] ..

وقال :

﴿ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ﴾[5]

* * *

فزع الملائكة من النار

قال ميمون بن مهران : « لما خلق الله جهنم أمرها فزفرت زفرة فلم يبق في السماوات السبع ملك إلا خرَّ على وجهه فقال لهم الجبار جل جلاله ارفعوا رؤوسكم أما علمتم أني خلقتكم لطاعتي وعبادتي وخلقت جهنم لأهل معصيتي من خلقي فقالوا ربنا لا نأمنها حتى نرى أهلها فذلك قوله تعالى :

---

(١) الملك : ٦ .

(٢) النساء : ١٤٥ .

(٣) البقرة : ٢٤ .

(٤) النساء : ١٠ .

(٥) الزمر : ١٦ .

﴿ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾[1] ..

فالنار عذاب الله فلا ينبغي لأحد أن يعذب بها وقد جاء النهي عن ذلك فقال : لا تعذبوا بعذاب الله .. والله أعلم[2]

* * *

صفة أهل النار

١ ـ قال تعالى :

(إنّ الذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالمَلاَئِكَةِ والنَّاسِ أجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ)[3]
واستدل به على جواز لعن الكفار على العموم ..

٢ ـ وقال تعالى :

﴿ وَالذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إلى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[4] ..

٣ ـ وقال :

﴿ إنّ الذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴾[5] ..

٤ ـ وقال تعالى :

﴿ إنّ الذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ اليَتَامَى ظُلْماً إنما يَأْكُلُونَ في بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً ﴾[6] ..

---

(١) المؤمنون : ٥٧

(٢) التذكرة (٤٥٨) .

(٣) البقرة : ١٦١ .

(٤) البقرة : ٢٥٧ .

(٥) آل عمران : ١٠

(٦) النساء : ١٠ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يبعث يوم القيامة قوم من قبورهم تتأجج أفواههم ناراً . فقيل يا رسول الله من هم ؟ قال ألم تر أن الله يقول . . الآية »[1] .

- وعن أبي سعيد الخدري قال : حدثنا النبي صلى الله عليه وسلم عن ليلة أسرى به قال :

« نظرت فإذا بقوم لهم مشافر كمشافر الأبل وقد وكل بهم من يأخذ بمشافرهم ثم يجعل في أفواههم صخراً من نار فيقذف في أحدهم حتى يخرج من أسافلهم ولهم خواروصراخ فقلت يا جبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً . . الآية » ١ هـ[2] .

٥ - وقال تعالى :

﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذي كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ﴾[3] . .

أي جهة الإمام وجهة الخلف يعني أستاههم ، كنى عنها بالأدبار ، وقيل ظهورهم بمقامع من حديد وهذا نص في أن ملائكة الموت عند قبضتها لروح الكافر تضربه بما ذكر وتقول له ما ذكر ، وإن كنا محجوبين من رؤ ية ذلك وسماعه ، واختلفوا في وقت هذا الضرب ، فقيل يكون عند الموت تضربهم بسياط من نار ، وقيل هو يوم القيامة حين يسيرون بهم إلى النار . .

وقال ابن جريج : يريد ما أقبل من أجسادهم وأدبر .

* * *

---

(١) اخرجه ابن أبي شيبة وابو يعلي والطبراني وابن حبان في صحيحه وبان ابي حاتم .
(٢) اخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم .
(٣) الانفال : ٥٠ .

وقال تعالى :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ. خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾[1] . .

قال الزجاج : الزفير من شدة الأنين وهو المرتفع جداً . .

٧ ـ قال في يقظة أولي الاعتبار : « وزعم أهل اللغة من البصريين والكوفيين أن الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمير ، والشهيق آخره ، وقيل الزفير للحمار والشهيق للبغل ، وقيل الزفير الصوت الشديد والشهيق الصوت الضعيف ، وقيل الزفير اخراج النفس والشهيق ردها ، وقيل الزفير من الصدر والشهيق من الحلق .. وقيل الزفير ترديد النفس في الصدر من شدة الصدر حتى تنتفخ منه الأضلاع ، والشهيق النفس الطويل الممتد أو رد النفس إلى الصدر ، والمراد بهما الدلالة على شدة كربهم وغمهم وتشبيه حالهم بمن استولت الحرارة على قلبه وانحصر فيه روحه .

وقال الليث : الزفير أن يملأ الرجل صدره حال كونه في الغم الشديد من النفس ويخرجه ، والشهيق أن يخرج ذلك النفس ، وهو قريب من قولهم تنفس الصعداء .

واختلف أهل العلم في معنى هذا التوقيت والاستثناء اختلافاً شديداً ، لأنه قد علم بالأدلة القطعية تأبيد عذاب الكفار في النار وعدم انقطاعهم عنهم » ، ا • هـ[2] .

* * *

٨ ـ وقال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾[3] . .

أي اجتهدوا في إبطالها حيث قالوا : القرآن شعر أو سحر أو أساطير

---

(١) هود : ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٢) يقظة أولي الاعتبار (٦٩) .

(٣) الحج : ٥١ .

الأولين أو للتلاوة دون العمل ظانين ومقدرين أن يعجزوا الله ويفوتوه ، وقيل معاندين أو مراغمين ومشاقين ، فهم أصحاب النار الموقدة .

٩ ـ وقال تعالى :

﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾[1]

أي اسكتوا في جهنم سكوت هوان ولا تكلموا رأساً ، أو في اخراجكم من النار أو في رفع العذاب عنكم ، قال الحسن هو آخر كلام يتكلم به أهل النار وما بعد ذلك إلا الزفير والشهيق وعواء كعواء الكلاب .

١٠ ـ وقال تعالى :

﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا. إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾[2] . .

أي إذا رأتهم وهي بعيدة عنهم ، قيل بينها وبينهم مسيرة مائة عام وقيل خمسمائة عام ، وذلك إذا أتى بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام يشد بكل زمام سبعون ألف ملك لو تركت لأتت على كل بار وفاجر ، فترى تزفر زفرة ولا تبقى قطرة من دمع الا بدت ، ثم تزفر الثانية فتقلع القلوب من أماكنها وتبلغ القلوب الحناجر . .

وعن رجل من الصحابة قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم « من يقل عليَّ ما لم أقل أو ادعى إلى غير أبيه وانتمى إلى غير مواليه فليتبوأ بين عيني جهنم مقعداً » قيل يا رسول الله وهل لها من عينين ، قال نعم أما سمعتم الله يقول :

﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ ؟ ٠هـ[3] .

---

(١) المؤمنون : ١٠٨ .

(٢) الفرقان : ١١ ، ١٢ .

(٣) أخرجه عبد بن حميد وابن جرير من طريق خالد بن دريك ونحوه عند رزين في كتابه وصححه ابن العربي في قبسه . .

١١ ـ قال تعالى :

﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾[١] ..

أي صباحاً ومساء ، وعرضهم عليها اجراقهم بها .

ـ عن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، يقال له هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة »[٢] ..

واحتج بعض أهل العلم بهذه الآية على اثبات عذاب القبر أعاذنا الله تعالى منه بمنه وكرمه وقال القرطبي : « إن ارواحهم في جوف طير سود تغدو على جهنم وتروح كل يوم مرتين فذلك عرضها » ..

وذهب الجمهور إلى أن هذا العرض هو البرزخ .

* * *

١٢ ـ وقال تعالى :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾[٣] ..

أي يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا ويجتمعوا حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون في الدنيا من المعاصي ، وفي كيفية هذه الشهادة ثلاثة أقوال :

أولها : أن الله يخلق الفهم والقدرة والنطق فيها فتشهد كما يشهد الرجل على ما يعرفه .

ثانيها : أنه تعالى يخلق في تلك الأعضاء الأصوات والحروف الدالة على تلك المعاني .

---

(١) غافر : ٤٦ .

(٢) أخرجه الشيخان وغيرهما .

(٣) فصلت : ١٩ .

ثالثها : أن يظهر في تلك الأعضاء أحوال تدل على صدور تلك الأعمال من ذلك الانسان وتلك الأمارات تسمى شهادات . .

﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ؟ قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ. وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ. فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾[1] .

١٣ ـ وقال تعالى :

﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ. ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ. ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ . إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ. وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ. فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنَا حَمِيمٌ . وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ. لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾[2] . .

قال المفسرون: السلسلة حلق منتظمة كل حلقة منها في حلقة ، والله أعلم بأي ذراع هي ، وقيل بذراع الملك ، قال نوف الشامي : كل ذراع سبعون باعاً كل باع أبعد مما بينك وبين مكة ، وكان نوف في رحب الكوفة . .

قال مقاتل : لو أن حلقة منها وضعت على ذروة جبل لذاب كما يذوب الرصاص ، وقال ابن جريج لا يعرف قدرها إلا الله ، وهذا العدد حقيقة أو مبالغة . . قال سفيان بلغنا أنها تدخل في دبره حتى تخرج من فيه .

وقال سويد بن أبي نجيح : بلغني أن جميع أهل النار في تلك السلسلة ، والغسلين صديد أهل النار وما ينغسل من أبدانهم من القيح والصديد وقال أهل اللغة هو ما يجري من الجراح إذا ما غسلت وقال الضحاك والربيع بن أنس هو شجر يأكله أهل النار . . وقال قتادة : هو شر الطعام وقال ابن زيد لا يعلم ما هو ولا ما الزقوم إلا الله تعالى .

---

(١) فصلت : ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ .
(٢) الحاقة : ٣٠ ـ ٣٧ .

وقال ابن عباس: الغسلين الدم والماء.. والصديد الذي يسيل من لحومهم..

ـ وعن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لو أن دلواً من غسلين يهراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا»؟ ه‍[1]..

قال في «يقظة أولى الاعتبار» معلقاً: «والتوفيق بين ما هنا وبين قوله: «إلا من ضريع» وقوله «الزقوم» وقوله «ما يأكلون في بطونهم إلا النار» إنه يجوز أن يكون طعامهم جميع ذلك أو أن العذاب أنواع والمعذبين طبقات. فمنهم أكلة الغسلين، ومنهم أكلة الضريع ومنهم أكلة الزقوم ومنهم أكلة النار، لكل منهم جزء مقسوم[2].

* * *

١٤ ـ وقال تعالى:

﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً. لِلطَّاغِينَ مَآباً. لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً. لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً. إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً. جَزَاءً وِفَاقاً ﴾[3]..

أي جهنم موضع رصد يرصد فيه خزنة النار الكفار ليعذبوهم فيها أو هي في نفسها متطلعة لما يأتي اليها من الكفار، والأحقاب الدهور جمع حقب.

قال الواجدي: قال المفسرون انه بضع وثمانون سنة، السنة ثلثمائة وستون يوماً، اليوم ألف سنة من أيام الدنيا..

والمقصود بالآية التأبيد لا التقييد، قال الحسن: والله ما هي إلا أنه إذا مضى حقب دخل آخر كذلك إلى الأبد..

* * *

---

(١) أخرجه الحاكم وصححه.
(٢) يقظة أولى الاعتبار (٩٣).
(٣) النبأ: ٢١ ـ ٢٦.

١٥ ـ وقال تعالى :

﴿ إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية ﴾[١] . .

وظاهر الآية العموم وقيل هم الذين عاصروا الرسول صلى الله عليه وسلم والأول أولى ، وشر أفعل تفضيل ، وفي هذا تنبيه على أن وعيد علماء السوء أعظم من وعيد كل أحد . .

* * *

فهذه بعض صفات هؤلاء القوم . .

وهذه بعض صفات جهنم . . أعاذنا الله منها ومن أهلها . .

وهذه الصفات يستطيع الناس أن يغيروها كيف شاءوا أن أحسنوا التفكر والتأمل فتعلقوا أمور الحياة وموازينها . . وقارنوا بين الحق والباطل . . وسألوا الله أن يريهم الحق حقاً . . ويرزقهم اتباعه . . والباطل باطلاً ويرزقهم اجتنابه . . ويحاولوا جهدهم الاخلاص والعمل . . وبذلك يتخلصوا من غشاوة الشهوات . . ويتبعوا الحق فيفوزوا برضوان الله وجنته ويبعدوا بأنفسهم عن النار . .

أحاديث في صفة أهل النار

ـ عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أنبئكم بأهل النار ؟ كل سفيه جعظري » ١٠هـ[٢] . .

ـ وعن غنم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لا يدخل الجنة الجواظ والعتل الزنيم »[٣] ١٠هـ .

(١) البينة : ٦ .

(٢) رواه احمد . وفيه البراء بن عبد الله وهو ضعيف . . ولكن روى بمعناه عن عمرو بن العاص وهو صحيح .

(٣) رواه احمد واسناده حسن .

وعن علي بن رباح قال : بلغني عن سراقة بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يا سراقة الا أخبرك بأهل الجنة وأهل النار ؟ قال بلى يا رسول الله قال أما أهل النار . . فكل جعظري جواظ مستكبر ، وأما أهل الجنة فالضعفاء المغلوبون » أ ٠ هـ[1] .

ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« صنفان من أمتي لم أرهما قوم معهم سياط من نار كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا » أ ٠ هـ[2] .

قال في يقظة أولى الاعتبار : « والمعنى أنهن كاسيات بالثياب ، عاريات من الدين لانكشافهن وابداء محاسنهن ، وقيل كاسيات ثياباً رقاقاً يظهر ما تحتها وما خلفها فهن كاسيات في الظاهر عاريات في الحقيقة ، وقيل كاسيات في الدنيا بأنواع الزينة من الحرام ومما لا يجوز لبسه ، ومائلات معناه زائغة عن طاعة الله وطاعة الأزواج وما يلزمهن من صيانة الفروج والتستر عن الأجانب ، ومميلات معناه يعلمن غيرهن الدخول في مثل فعلهن ، وقيل مائلات متبخترات في مشيتهن ، مميلات يملن رؤوسهن للخيلاء والتبختر ، ومميلات لقلوب الرجال اليهن بما يبدين من زينتهن وطيب رائحتهن ، وقيل يمشطن الميلاء وهي مشطة البغايا، والمميلات اللواتي يمشطن غيرهن المشطة الميلاء يغطين رؤوسهن بالخمر والمقانع ويجعلن رؤوسهن شيئاً يسمى عندهن النازة ، لا عقص الشعر والذوائب المباح للنساء على حسب ما ثبت في الصحيح عن أم سلمة قالت يا رسول الله ان امرأة أشد ضفر رأسي . الحديث » أ ٠ هـ[3] .

---

(١) ورواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح غير صدقة بن سابق وهو ثقة . .

(٢) أخرجه مسلم .

(٣) يقظة اولى الاعتبار (١٠٩) .

أول ثلاثة يدخلون النار

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أول ثلاثة يدخلون النار : أمير متسلط ، وذو ثروة من مال لا يؤدي حقه ، وفقير فجور » ؟ ٠هـ[1] .

صفة جهنم وحرها

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة » ؟ ٠هـ[2] .

* * *

وقال ابن المبارك : أخبرنا سفيان عن سليمان عن أبي طبيان عن سلمان قال :

« النار سوداء لا يضيء لهبها ولا جمرها ثم قرأ :

﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا ﴾[3] .

* * *

- عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ولولا أنها أطفئت بالماء مرتين ما انتفعتم بها ، وأنها لتدعو الله أن لا يعيدها فيها » أ . هـ[4] .

- وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يؤتى بأنعم أهل الدنيا يوم القيامة من أهل النار فيصبغ في النار صبغة

---

(١) أخرجه ابو بكر بن أبي شيبة بطوله . .

(٢) أخرجه الترمذي . .

(٣) الحج : ٢٢ .

(٤) أخرجه ابن ماجة ، كذا أخرجه أبو سفيان بن عيينة عن أبي هريرة بلفظ آ. ر .

ثم يقال يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط هل مر بك نعيم قط فيقول لا والله يا رب ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ صبغة في الجنة فيقال له هل رأيت بؤساً قط هل مر بك شدة قط فيقول لا والله يا رب ما مر بي بؤس قط ولا رأيت شدة قط » أ . هـ[1] . .

وقال كعب الأحبار : والذي نفس كعب بيده ، لو كنت بالمشرق والنار بالمغرب ثم كشف عنها لخرج دماغك من منخريك من شدة حرها . يا قوم هل لكم بهذا قرار ؟ أم لكم على هذا صبر ؟ يا قوم طاعة الله أهون عليكم من هذا العذاب فأطيعوه .

* * *

شكوى النار وكلامها

ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« اشتكت النار إلى ربها فقالت : يا رب أكل بعضي بعضاً ، فجعل لها نفسين نفسا في الشتاء ونفسا في الصيف بأشد ما تجدون من البرد من زمهريرها ، وأشد ما تجدون من الحر من سمومها » أ . هـ[2] . .

ـ وعن أبي هريرة قال : « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ سمع وجبة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتدرون ما هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم : قال : هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفاً فهو يهوي في النار إلى الآن حتى انتهى إلى مقرها » أ . هـ[3] .

وقوله : اشتكت النار شكواها إلى ربها بأن أكل بعضها بعضاً ، محمول على الحقيقة لا على المجاز ، إذ لا احالة في ذلك . وليس من شرط الكلام عند

---

(1) أخرجه مسلم ، كذا أخرجه ابن ماجه من حديث محمد بن اسحاق .

(2) أخرجه الشيخان .

(3) أخرجه مسلم .

.أهل السنة في القيام بالجسم الا الحياة وأما البنية واللسان والبلة فليس من شرط وليس يحتاج في الشكوى إلى أكثر من وجود الكلام .

وأما الاحتجاج في قوله صلى الله عليه وسلم : « احتجت النار والجنة » فلا بد من العلم والتفطن للحجة .

وقيل إن ذلك مجاز عبر عنه بلسان الحال كما قال عنتره :

فَـازْوَرَّ مِـنْ وَقْـعِ القَـنَـا بِـلَبَـانِـهِ   وَشَـكَـا إِلَيَّ بِـعَـبْـرَةٍ وَتَحَمْحُـمِ

وقال آخر :

شَـكَـا إِلَيَّ جَمَـلِي طُـولَ الـسُّـرَى   صَـبْـرًا جَمِـيـلًا فَكِـلَانَـا مُبْـتَـلِي

والأول أصح إذ لا استحالة في ذلك ، وقد قال تعالى وهو أصدق القائلين .

﴿ إِنِ الحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الحَقَّ ﴾ . . الآية . .

قال ابن عباس : تدعو ـ أي النار ـ المنافق والكافر بلسان فصيح ثم تلتقطهم كما يلتقط الطائر الحب .

قال القرطبي معلقاً : « قول ابن عباس هذا قد جاء معناه مرفوعاً وهو يدل على أن المراد بالشكوى والحجة الحقيقية ذكر رزين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من كذب على متعمداً فليتبوأ بين عيني جهنم مقعداً قيل يا رسول الله ولها عينان قال : أما سمعتم الله يقول :

﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ . . الآية . .

يخرج عنق من النار له عينان يبصرانه ولسان فيقول : وكلت بمن جعل مع الله الهاً آخر فلهو أبصر بهم من الطير بحب السمسم فيلتقطه في رواية أخرى فيخرج عنق من النار فيلتقط الكفار لقط الطائر حب السمسم صححه أبو محمد بن العربي في قبسه وقال : يفصلهم عن الخلق بالمعرفة كما يفصل الطائر

حب السمسم من التربة » أ . هـ[1] .

* * *

مقامع أهل النار

قال الله تعالى :

﴿ولهم مقامع من حديد﴾[2] ..

وقال :

﴿ إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ﴾[3] ..

وقال :

﴿ في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً ﴾[4] ..

وقال :

﴿ إن لدينا أنكالاً وجحيماً ﴾[5] ..

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أن رضاضة مثل هذه ـ وأشار إلى مثل الجمجمة أرسلي من السماء إلى الأرض وهي مسيرة خمسمائة عام لبلغت قبل الليل ، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفاً الليل والنهار قبل أن تبلغ أصلها أو قعرها » أ . هـ[6] .

* * *

(١) التذكرة (٤٨١) .

(٢) الحج : ٢١ .

(٣) غافر : ٧١ ، ٧٢ .

(٤) الحاقة : ٣٢ .

(٥) المزمل : ١٢ .

(٦) أخرجه الترمذي وقال : حديث إسناده صحيح .

كيفية دخول أهل النار النار

ذكر ابن وهب قال : حدثنا عبد الرحمن بن زيد قال : تلقاهم جهنم يوم القيامة بشرر كالنجوم فيولون هاربين فيقول الجبار تبارك وتعالى : ردوهم عليها فيردونهم فذلك قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾[1] ..

أي مانع يمنعكم ويلقاهم وهجها قبل أن يدخلوها فتندر أعينهم فيدخلوها عمياً مغلولين في الأغلال أيديهم وأرجلهم ورقابهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خزنة جهنم ما بين منكبي أحدهم كما بين المشرق والمغرب .

قال ابن زيد : ولهم مقامع من حديد يقمعون بها هؤلاء فاذا قال خذوه فيأخذوه كذا وكذا ألف ملك فلا يضعون أيديهم على شيء من عظامه إلا صار تحت أيديهم رفات العظام واللحم يصير رفاتاً قال فتجمع أيديهم وأرجلهم ورقابهم في الأغلال فيلقون في النار مصفودين فليس لهم شيء يتقون به إلا الوجوه فهم عمي قد ذهبت أبصارهم ثم قرأ :

﴿ أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾[2] ..

فإذا ألقوا فيها يكادون يبلغون قعرها يلقاهم لهبها فيردهم إلى أعلاها حتى إذا كادوا يخرجون تلقتهم الملائكة بمقامع من حديد فيضربونهم بها فجاء أمر غلب اللهو فهووا كما هم أسفل السافلين هكذا دأبهم وقرأ :

﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾[3] ..

كما قال تعالى :

﴿ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ.تَصْلَىٰ نَاراً حَامِيَةً ﴾[4] ..

---

(١) غافر : ٣٣ .
(٢) الزمر : ٢٤ .
(٣) الحج : ٢٢ .
(٤) الغاشية : ٣ ، ٤ .

أشد الناس عذاباً

- عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون أ . هـ[1] . .

- وعنه أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل قتل نبياً أو قتله نبي والمصور يصور التماثيل » أ . هـ[2] . .

- وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن من أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه » أ . هـ[3] .

* * *

- عن جابر بن عبدالله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أناساً من أمتي يدخلون النار بذنوبهم فيكونون في النار ما شاء الله أن يكونوا ، ثم يعيرهم أهل الشرك ، فيقولون : ما نرى ما كنتم تخافوننا فيه من تصديقكم وإيمانكم نفعكم ، فلا يبقى موحداً إلا أخرجه الله من النار ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾[4] . .

* * *

- عن سعيد بن جبير قال : إن في النار لرجلا - أظنه في شعب من شعابها - ينادي مقدار ألف عام : يا حنان يا منان ، فيقول رب العزة لجبريل : يا جبريل أخرج عبدي من النار ، فيأتيها فيجدها مطبقة فيرجع فيقول : يا رب

---

(١) أخرجه مسلم .

(٢) ذكره قاسم بن أصبغ .

(٣) أخرجه ابن عبد البر وابن ماجه وابن وهب .

(٤) الحجر : ٢ .

إنها عليهم موصدة ، فيقول : يا جبريل ، ارجع ففكها فأخرج عبدي من النار ، فيفكها فيخرج مثل الخيال فيطرحه على ساحل الجنة ينبت الله له شعراً ولحماً ودماً » ا . هـ[1] .

يقول القرطبي معلقا : ثم إن الله إذا أراد أن يخرج الموحدين منها قذف في قلوب أهل الأديان فقالوا لهم : كنا وأنتم وآباؤنا جميعاً في الدنيا فآمنتم وكفرنا وصدقتم وكذبنا ، وأقررتم وجحدنا . فما أغنى ذلك عنكم نحن وأنتم اليوم فيها سواء ، تعذبون كما نعذب ، وتخلدون كما نخلد ، فيغضب الله عند ذلك غضباً شديداً لم يغضب مثله من شيء فيما مضى ، ولا يغضب من شيء فيما بقى ، فيخرج أهل التوحيد منها إلى عين بين الجنة والنار والصراط يقال لها : نهر الحياة ، فيرش عليهم من الماء فينبتون كما تنبت الجنة في حميل السيل[2] ، فما يلي الظل منها أخضر ، وما يلي الشمس منها أصفر ، ثم يدخلون الجنة فيكتب على جباههم : هؤلاء عتقاء الله من النار ، إلا رجلا واحداً يمكث فيها ألف سنة ، ثم ينادي : يا حنان يا منان ، فيبعث الله اليه ملكاً فيخوض في النار في طلبه سبعين عاماً فلم يقدر عليه ، فيقول الله تعالى : انطلق فهو في وادي كذا تحت صخرة فأخرجه ، فيذهب فيخرجه منها فيدخله الجنة .

ثم إن الجهنميين يطالبون من الله تعالى أن يمحو عنهم ذلك الاسم ، فيبعث الله ملكاً فيمحوه عن جباههم .

ثم إنه يقال لأهل الجنة ومن دخلها من الجهنميين : اطلعوا إلى أهل النار فيطلعون اليهم فيرى الرجل أباه ويرى جاره وصديقه ، ويرى العبد مولاه ، ثم إن الله تعالى يبعث اليهم الملائكة بأطباق من نار ، ومسامير من نار ، وعمد من نار ، فتطبق عليهم بتلك الأطباق ، وتشد بتلك المسامير ، وتمد بتلك العمد فلا يبقى فيها خلل يدخل فيه روح ولا يخرج منه غم وينساهم الرحمن على عرشه ، ويتشاغل أهل الجنة بنعيمهم ، ولا يستغيثون بعدها أبداً ، وينقطع الكلام ،

(١) ذكره أبو نعيم .
(٢) أي في توافر الماء . .

فيكون كلامهم زفيراً وشهيقاً فذلك قوله تعالى :

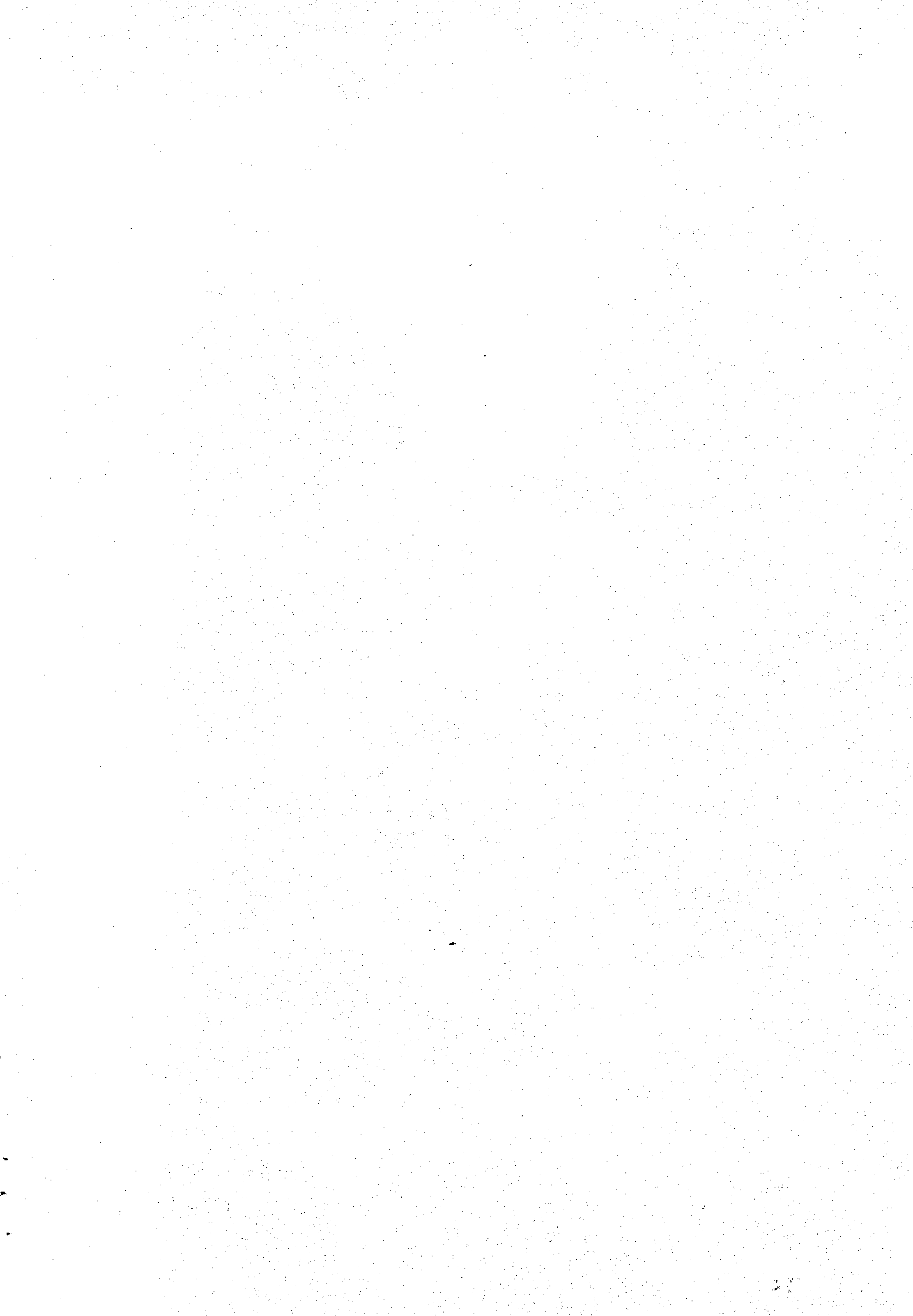
﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾ . .

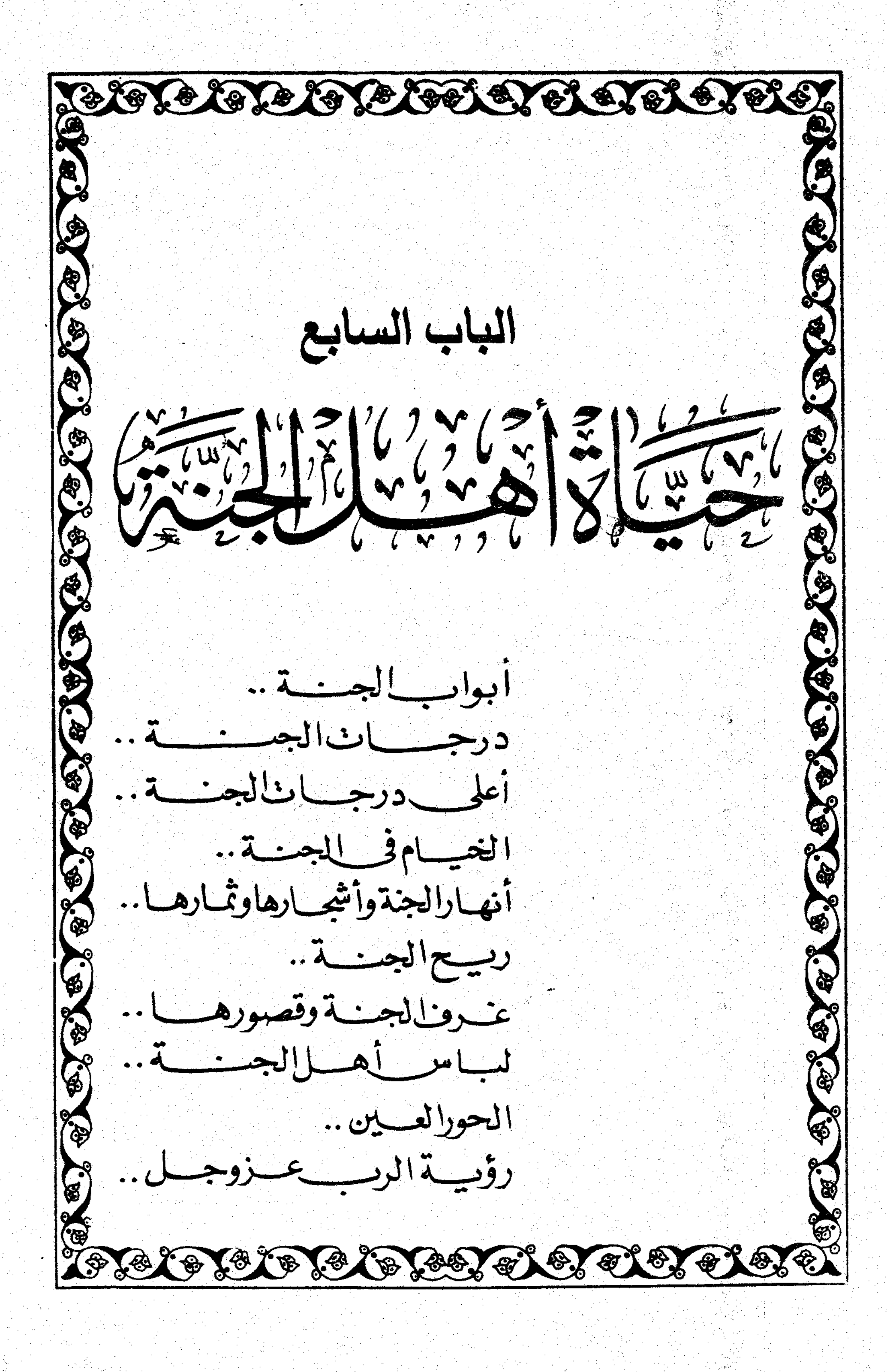
وقال ابن مسعود : في عمد أي بعمد ، وكذا في مصحفه أنها عليهم مؤصدة بعمد »[1] .

* * *

---

(١) التذكرة (٥١٨) .

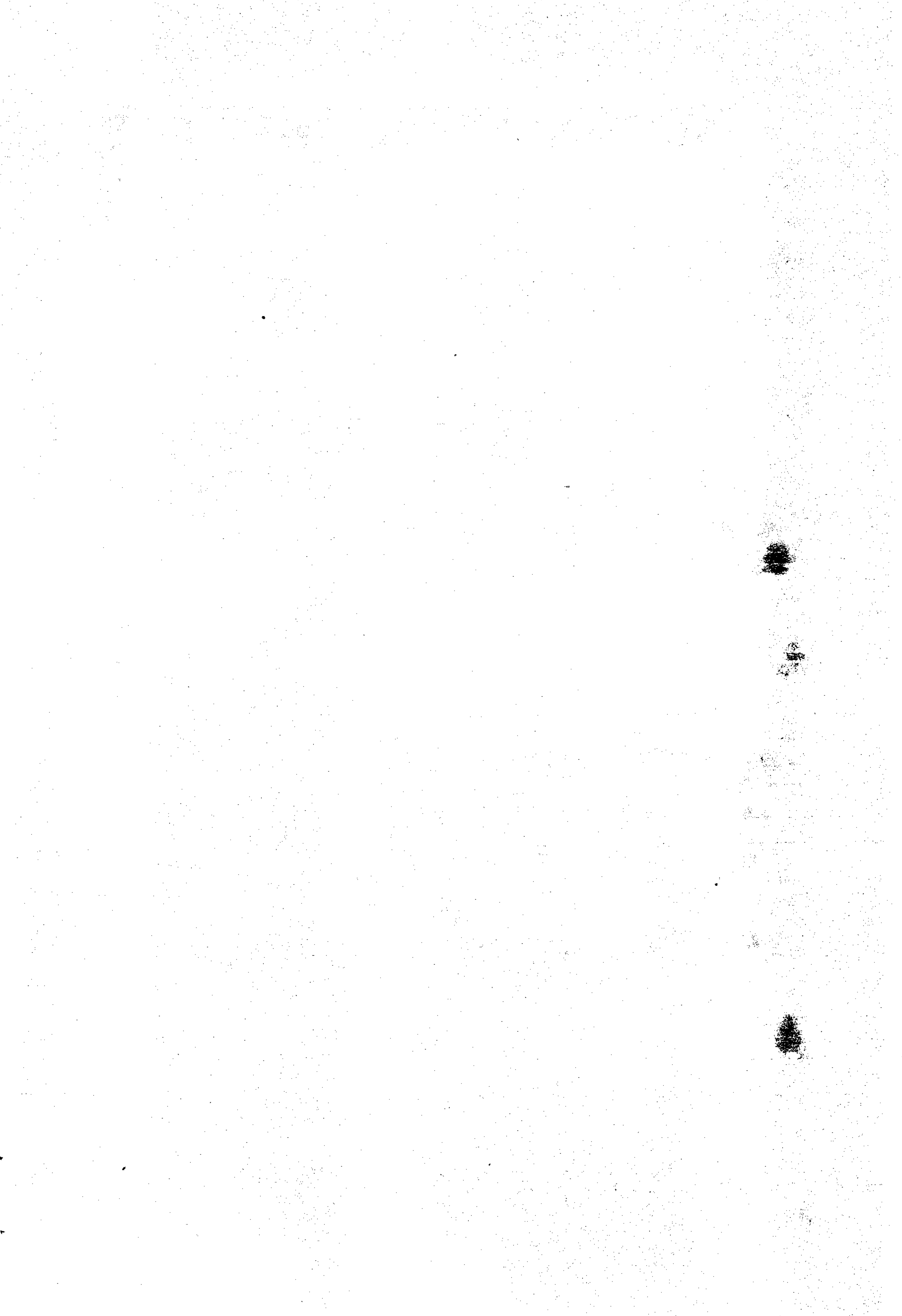




الباب السابع

حياة أهل الجنة

أبواب الجنة ..
درجات الجنة ..
أعلى درجات الجنة ..
الخيام في الجنة ..
أنهار الجنة وأشجارها وثمارها ..
ريح الجنة ..
غرف الجنة وقصورها ..
لباس أهل الجنة ..
الحور العين ..
رؤية الرب عز وجل ..





حياة طيبة هنية سعيدة .. تناسب وعد الله للانسان بعد حياة ذاق فيها القليل أو الكثير « الحياة الدنيا » ..

حياة الطيبين الأبرار الذين استطاعوا أن يحكموا حياتهم الدنيا ويبعدوها عن الدنس والفحش والبذاءة .. ويلتزموا الصراط المستقيم .. والذين أخرجوا من أموالهم ليعطوا يوم الدين .. والذين صاموا في وهج الشمس ليخفف الله عنهم طول يوم النشور ..

نعم .. انهم قد عاشوا حياة طيبة في حياتهم الدنيا .. فاستحقوا حياة طيبة في حياتهم الأخرى ..

فما أسهل الانحراف .. وما أبسط الانجراف .. لا يحتاج الا عناء أو مكابدة ولكن أن يطلق العنان وفقط .. فيرى الانسان نفسه قد انحرفت وحادت .. وتلك شيم الضعفاء .. الذين غلبتهم شهواتهم .. وفتنتهم زينة الحياة الدنيا ..

وأهل الجنة .. أقوياء النفوس .. استطاعوا أن يلجموها وينأوا بها .. فضمنوا حياة سعيدة في الآخرة ..

ولقد ضمن رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنة للمسلمين إن أطاعوه في ست فقال :

اضمنوا لي ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة.. اصدقوا إذا حدثتم، وأدوا اذا أئتمنتم وأوفوا إذا وعدتم، واحفظوا فروجكم، وكفوا أيديكم، وغضوا أبصاركم» أ. هـ.

فهل من عاقل مدرك لأمور الحياة وقوانينها.. فقارن بين العبث والفطرة الانسانية السليمة.. وبين الجد والهزل؟ ليتنا نحاول ادراك ذلك عند رؤية بعض ما وعد الله لنا في الجنة.. مع العلم أننا لن نستطيع أن نصفها كما هي.. ففيها ما لا عين رأت.. ولا اذن سمعت.. ولا خطر على قلب بشر.. ولكن هي تشبيهات تقريبية..

* * *

أبواب الجنة

قال تعالى:

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾[1]..

وفي صفة أهل النار:

﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾[2]..

وقد يتساءل متسائل: فما السر في حذف الجواب في آية أهل الجنة، وذكره في آية أهل النار؟..

يرد عليه ابن القيم فيقول: «هذا أبلغ في الموضعين، فإن الملائكة تسوق أهل النار اليها وأبوابها مغلقة، حتى إذا وصلوا اليها فتحت في وجوههم فيفجأهم العذاب بغتة، فحين انتهوا اليها فتحت أبوابها بلا مهلة، فإن هذا شأن الجزاء المرتب على الشرط أن يكون عقيبه فإنها دار الاهانة والخزي فلم

---

(١) الزمر: ٧٣.

(٢) الزمر: ٧١.

يستأذن لهم في دخولها ويطلب إلى خزنتها أن يمكنوهم من الدخول ، وأما الجنة ، فإنها دار الله ، ودار كرامته ومحل خواصه وأوليائه ، فإذا انتهوا اليها صادفوا أبوابها مغلقة ، فيرغبون إلى صاحبها ومالكها أن يفتحها لهم ويستشفعون اليه بأولي العزم من رسله ، وكلهم يتأخر عن ذلك حتى تقع الدلالة على خاتمهم وسيدهم وأفضلهم : أنا لها فيأتي إلى تحت العرش ويخر ساجداً لربه فيدعوه ما شاء الله أن يدعوه، ثم يأذن له في رفع رأسه وأن يسأل حاجته فيشفع اليه سبحانه في فتح أبوابها فيشفعه تعظيماً لخطرها ، واظهاراً لمنزلة رسوله وكرامته عليه ».

وإن مثل هذه الدار التي هي دار ملك الملوك رب العالمين ، انما يدخل اليها بعد تلك الأهوال العظيمة التي أولها من حين عقل العبد في هذه الدار إلى أن انتهى اليها ، وما ركبه من الأطباق طبقاً بعد طبق ، وقاساه من الشدائد شدة بعد شدة حتى أذن الله تعالى لخاتم أنبيائه ورسله وأحب خلقه اليه أن يشفع اليه في فتحها لهم .

وهذا أبلغ وأعظم في تمام النعمة وحصول الفرح والسرور ؛ مما يقدر بخلاف لئلا يتوهم الجاهل أنها بمنزلة الخان الذي يدخله من شاء فجنة الله عالية غالية ، بين الناس وبينها من العقبات والمفاوز والأخطار ما لا تنال الا به ، فما لمن اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني ، ولهذه الدار فليعد عنها إلى ما هو أولى به ، وقد خلق له وهيىء له . .

وتأمل ما في سوق الفريقين إلى الدارين زمراً من فرحة هؤلاء باخوانهم وسيرهم معهم كل زمرة على حدة ، كل مشتركين في عمل متصاحبين فيه على زمرتهم وجماعتهم ، مستبشرين أقوياء القلوب ، كما كانوا في الدنيا وقت اجتماعهم على الخير وكذلك يؤنس بعضهم بعضاً ويفرح بعضهم ببعض .

وكذلك أصحاب الدار الأخرى يساقون اليها زمراً ، يلعن بعضهم بعضا ، ويتأذى بعضهم ببعض ، وذلك أبلغ في الخزي والفضيحة والهتيكة ، من أن يساقوا واحداً واحداً فلا تهمل تدبر قوله زمراً . .

وقال خزنة أهل الجنة لأهلها ، سلام عليكم ، فبدؤهم بالسلام المتضمن للسلامة من كل شر ومكروه ، أي سلمتم فلا يلحقكم بعد اليوم ما تكرهون ، ثم قالوا لهم : طبتم فادخلوها خالدين أي سلامتكم ودخولها بطيبكم ، فإن الله حرمها إلا على الطيبين فبشروهم بالسلامة والطيب والدخل والخلود .

وتأمل قول خزنة الجنة لأهلها : ادخلوها . وقول خزنة النار لأهلها : ادخلوا أبواب جهنم ، تجد تحته سراً لطيفاً ومعنى بديعاً لا يخفى على المتأمل يستقبل فيها الداخل من العذاب ما هو أشد منها ، ويدنو من الغم والحزن والكرب بدخول الأبواب . فقيل : ادخلوا أبوابها صغاراً لهم واذلالا وخزياً ثم قيل لهم : لا يقتصر بكم على مجرد دخول الأبواب الفظيعة ، ولكن وراءها الخلود في النار ، وأما الجنة ففي الكرامة والمنزل الذي أعده الله لأوليائه ، فبشروا من أول وهلة بالدخول إلى المقاعد والمنازل والخلود فيها[1] .

* * *

والوارد أن للجنة ثمانية أبواب كما ورد في الصحيحين وغيرهما ومن هذه الأحاديث :

- فعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

في الجنة ثمانية أبواب ، باب منها يسمى الريان ، لا يدخله إلا الصائمون » أ . هـ[2] .

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من أنفق زوجين في شيء من الأشياء في سبيل الله ، دعي من أبواب الجنة ، يا عبد الله هذا خير فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ،

---

(١) حادي الأرواح (٥٣) .
(٢) أخرجاه في الصحيحين .

ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة ، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان ، فقال أبو بكر : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، ما على من دعي من تلك الأبواب من ضرورة ، فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها فقال نعم ، وأرجو أن تكون منهم » أ . هـ[1] .

ـ وعن عمر بن الخطاب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« ما منكم من أحد يتوضأ فيبالغ أو فيسبغ الوضوء ثم يقول : أشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، الا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » ؟ •هـ .

وزاد الترمذي بعد التشهد : « اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين »[2] .

* * *

سعة أبواب الجنة

عن أبي هريرة قال : « وضعت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم قصعة من ثريد ولحم فتناول الذراع ، وكان أحب الشاة اليه ، فنهش نهشة وقال : أنا سيد الناس يوم القيامة، ثم نهش أخرى وقال: أنا سيد الناس يوم القيامة ، فلما رأى أصحابه لا يسألونه . قال : ألا تقولون كيف ؟ قالوا : كيف يا رسول الله ؟ قال: يقوم الناس لرب العالمين فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر ، فذكر حديث الشفاعة بطوله . . وقال في آخره : فأنطلق فآتى تحت العرش فأقع ساجداً لربي ، فيقيمني رب العالمين مقاماً لم يقمه أحداً قبلي ولن يقيمه أحداً بعدي ، فأقول : يا رب . أمتي فيقول : يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن ، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من

---

(١) اخرجاه في الصحيحين .

(٢) اخرجه مسلم

الأبواب ، والذي نفس محمد بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر . أو هجر ومكة » ؟ ءهـ[1] .

وفي لفظ « لكما بين مكة وهجر ، أو كما بين مكة وبصرى » . .

* * *

درجات الجنة

قال تعالى :

﴿ إنمَا المؤمِنُونَ الذِينَ إذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَإذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ ايمَانَاً وَعلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوكَّلُونَ. الذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمما رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . أُولَئِكَ هُمُ المؤمِنُونَ حَقَّاً لَهمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾[2] . .

وقال :

﴿ أَفَمَنِ اتبَعَ رِضْوانَ اللهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ وَمأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المصِيرُ ، هُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بمَا يَعْمَلُونَ ﴾[3] . .

وقال تعالى :

﴿ لَا يَسْتَوِي القَاعِدُونَ مِنَ المؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالمجَاهِدُونَ في سَبيلِ اللهِ بِأَمْوَالهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، فَضَّلَ اللهُ المجَاهِدِينَ بِأَمْوَالهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَىٰ القَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلَّاً وَعَدَ اللهُ الحسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللهُ المجَاهِدِينَ عَلَىٰ القَاعِدِينَ أَجْرَاً عَظِيماً ، دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرة ورحْمة وكان الله غفورا رحيما ﴾[4] .

* * *

---

(١) قال ابن القيم في حادي الأرواح (٥٨) : متفق على صحته .
(٢) الأنفال : ٢ ـ ٤ .
(٣) آل عمران : ١٦٢ ، ١٦٣ .
(٤) النساء : ٩٥ ، ٩٦ .

ـ وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدري الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم ، قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال : بلى ، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » أ ٠ هـ[1] .

قال ابن القيم معلقاً : « ولفظ البخاري في الأفق وهو أبين ، والغابر هو الذاهب الماضي قد تدلى للغروب ؟ وفي التمثيل به دون الكوكب المسامت للرأس وهو أعلى فائدتان : احداهما : بعده عن العيون ، والثانية : أن الجنة درجات بعضها أعلى من بعض وإن لم تسامت العليا السفلى ، كالبساتين الممتدة من رأس الجبل إلى ذيله . . والله أعلم » أ ٠ هـ[2] .

* * *

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه وسط الجنة ، وأعلى الجنة وفوق عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة » أ ٠ هـ[3] .

كما ورد أن بين الدرجة والدرجة مسيرة مائة عام . . وورد تقديره بالخمسمائة . . ولا تناقض بين التقديرين لاختلاف السير في السرعة والبطء . . ثم إن المراد التقريب للافهام . . والله أعلم .

* * *

---

(١) أخرجاه في الصحيحين .
(٢) حادي الأرواح (٧٩) .
(٣) أخرجه البخاري .

- عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا عليَّ ، فإنه من صلى عليَّ صلاة واحدة صلى الله عليه عشراً ، ثم سلوا لي الوسيلة ، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي » ؟ ٠هـ[1] . .

- وعن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة ، آت محمداً الوسيلة والفضيلة ، والدرجة الرفيعة ، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ، إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة » ؟ ٠هـ[2] .

قال ابن القيم : « ومعنى الوسيلة : من الوصلة ، ولهذا كانت أفضل الجنة وأشرفها ، وأعظمها نوراً ، وقال صالح بن عبد الكريم : قال لنا فضيل ابن عياض : أتدرون لم حسنت الجنة ؟ لأن عرش رب العالمين سقفها » . .

وقال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس : « نور سقف مساكنكم نور عرشه » . .

وقال بكر عن أشعث عن الحسن « إنما سميت عدن ، لأن فوقها العرش ، ومنها تفجر أنهار الجنة ، وللحور العدنية الفضل على سائر الحور ، والقرب والزلفى واحد ، وإن كان في الوسيلة معنى التقرب اليه بأنواع الوسائل » .

وقال الكلبي : « اطلبوا اليه القربة بالأعمال الصالحة » وقد كشف سبحانه عن هذا المعنى كل الكشف ، بقوله :

---

(١) أخرجه مسلم .
(٢) أخرجاه في الصحيحين .

﴿ أُولَئِكَ الذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمُ الوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾[1] . .

فقوله : أيهم أقرب هو تفسير للوسيلة التي يبتغيها هؤلاء الذين يدعوهم المشركون من دون الله فيتنافسون في القرب منه .

ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم الخلق عبودية لربه وأعلمهم به ، وأشدهم له خشية ، وأعظمهم له محبة كانت منزلته أقرب المنازل إلى الله ، وهي أعلى درجة في الجنة ، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أمته أن يسألوها له لينالوا بهذا الدعاء زلفى من الله وزيادة الايمان .

وأيضاً فإن الله سبحانه قدرها له بأسباب ، منها : دعاء أمته له بها بما نالوه على يده من الإيمان والهدى ، صلوات الله وسلامه عليه » ا ﻫ[2] .

* * *

الخيام في الجنة

قال تعالى :

﴿ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الخِيَامِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[3] . .

- وعن أبي موسى الأشعري عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة ، طولها ستون ميلاً ، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً » ا ﻫ[4] . .

وعن ابن عباس قال : « الخيمة من درة مجوفة ، طولها فرسخ ، وعرضها

---

(١) الإسراء : ٥٧ .
(٢) حادي الأرواح (٨١) .
(٣) الرحمن ٧٢ ، ٧٣ .
(٤) أخرجه البخاري ومسلم والدارمي وأحمد .

فرسخ ، ولها ألف باب من ذهب ، حولها سرادق دون خمسون فرسخاً ، يدخل عليه من كل باب بهدية من الله عز وجل . . وذلك قوله :

﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴾[1] . .

وقال ابن المبارك : أخبرنا همام : عن عكرمة ، عن ابن عباس : قال :

« الخيمة درة ، من درة مجوفة ، فرسخ في فرسخ ، لها أربعة آلاف مصراع من ذهب » .

وقال قتادة : عن خالد العصري ، عن أبي الدرداء قال :

« الخيمة لؤلؤة واحدة ، لها سبعون باباً من در »[2] . .

* * *

تربة الجنة

ـ عن أنس بن مالك ، عن أبي ذر ، في حديث المعراج : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أدخلت الجنة فإذا فيها جنادل اللؤلؤ ، وإذا ترابها المسك » ٠هـ[3] .

وجاء في حديث أبي هريرة وابن عمر في صفة بناء الجنة : « أن ملاطها المسك ، وحصباءها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران » .

والملاط في اللغة : عبارة عن الطين الذي يجعل بين ساقي البناء ، يملط به الحائط ، فلعل بعض بقاعها ترابه المسك ، وبعضها ترابه الزعفران . . والله أعلم . .

---

(١) الرعد : ٢٣ .
(٢) نهاية البداية والنهاية (٢ /٢٨٧) .
(٣) أخرجاه في الصحيحين .

ومع هذه العظمة والاتساع .. فقد جاء في الصحيح عن أنس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« وقاب قوسي أحدكم أو موضع قده خير من الدنيا وما فيها » ؟ ٠هـ .

* * *

أنهار الجنة وأشجارها وثمارها

قال تعالى :

﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾[1] ..

وقال :

﴿ مَثَلُ الجَنَّةِ التِي وُعِدَ المتقُونَ فِيهَا أَنهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلْشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾[2] ..

ـ وعن حكيم بن معاوية بن أبي بهز ، عن أبيه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « في الجنة بحر اللبن ، وبحر الماء ، وبحر العسل وبحر الخمر ، ثم تشقق الأنهار منها بعد »[3] .

ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من سره أن يسقيه الله الخمر في الآخرة ، فليتركه في الدنيا ، أنهار الجنة تفجر من تحت تلال ـ أو جبال ـ المسك ، ولو كان أدنى أهل الجنة حلية عدلت حليته بحلية أهل الدنيا جميعاً ، لكانت حلية أدنى أهل الجنة ، أفضل من حلية أهل الدنيا جميعاً » ؟ ٠هـ[4] ..

---

(١) البقرة : ٢٥ .

(٢) محمد : ١٥ .

(٣) أخرجه الامام احمد .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا .

صفة الكوثر :

قال تعالى :

﴿ إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر ان شانئك هو الابتر ﴾[1] . .

والكوثر : هو أشهر أنهار الجنة . . وقد تقدم في الباب الخامس . .

- فعن أنس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزلت عليه هذه السورة « أي سورة الكوثر » قال :

« أتدرون ما الكوثر ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم : قال : هو نهر وعدنيه الله عز وجل ، عليه خير كثير » ؟ ٠ هـ[2] . .

- وعن أنس في حديث المعراج . . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أتيت على نهر ، حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف ، فقلت : ما هذا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذي أعطاكه الله عز وجل » ؟ ٠ هـ[3] .

* * *

نهر البيدخ في الجنة . .

- عن أنس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تعجبه الرؤ يا الحسنة فربما قال : هل رأى أحد منكم رؤ يا ؟ قال : فإذا رأى الرجل رؤ يا ، يسأل عنه ، فإن كان ليس به بأس ، أعجب برؤ ياه اليه ، قال : فجاءت امرأة فقالت : يا رسول الله : رأيت كأني دخلت الجنة ، فسمعت وجبة انتحب لها أهل الجنة ، فنظرت ، فإذا قد جيء بفلان ابن فلان ، وفلان ابن فلان ، حتى عددت اثني عشر رجلاً ، وقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية قبل ذلك ، قال : فجيء بهم ، عليهم ثياب طلس تشخب أوداجهم فقيل : اذهبوا

---

(١) سورة الكوثر .

(٢) أخرجه مسلم .

(٣) أخرجاه في الصحيحين . ورواه أحمد في مسنده .

بهم إلى البيدخ - أو قال نهر البيدخ - قال : فغمسوا فيه ، فخرجوا وجوههم كالقمر ليلة البدر ، قالت : ثم أتوا بكراسي من ذهب ، فقعدوا عليها ، فأتى بصحيفة أو مبلكة فيها بسر فأكلوا منها ، فما يقلبونها لشق إلا أكلوا من فاكهة ما أرادوا ، وأكلت معهم ، قال : فجاء البشير من تلك السرية ، فقال : يا رسول الله : كان من أمرنا كذا وكذا ، وأصيب فلان وفلان : حتى عد الإثني عشر الذين عدتهم المرأة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عليَّ بالمرأة ، فجاءت ، فقال قُصّي على هذا رؤياك : فقصت ، فقال : هو كما قالت يا رسول الله » ؟ ٠ هـ[1] . .

* * *

نهر بارق في الجنة :

- عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« الشهداء على بارق نهر على باب الجنة في قبة خضراء ، يخرج اليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً » ؟ ٠ هـ[2] .

- وعن ابن عباس أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« أنزل الله من الجنة خمسة أنهار : سيحون ، وهو نهر الهند ، وجيحون ، وهو نهر بلخ ، ودجلة والفرات وهما نهرا العراق ، والنيل ، وهو نهر مصر ، نزلها الله تعالى من عين واحدة ، من عيون الجنة من أسفل درجة من درجاتها على جناحي جبريل ، فاستودعها الجبال ، وأجراها في الأرض ، وجعل فيها منافع للناس ، من أصناف معايشهم ، فذلك قوله تعالى :

﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ﴾[3] . .

فإذا كان خروج يأجوج ومأجوج ، أرسل الله جبريل ، فرفع من الأرض

---

(١) رواه الامام احمد في مسنده .

(٢) رواه الامام احمد .

(٣) المؤمنون : ١٨ .

القرآن العظيم ، والعلم كله ، والحجر الأسود ، من ركن البيت بمقام ابراهيم ، وتابوت موسى بما فيه ، وهذه الأنهار الخمسة ، فرفع كل ذلك إلى السماء ، فذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾[1] .

« فإذا رفعت هذه الأشياء ، فقد حرم أهلها خير الدنيا والآخرة » ا هـ[2] . .

* * *

وقد وصف الله سبحانه وتعالى أنهار الجنة بكثرة الجريان ، وأن الجنة يجرونها حيث شاءوا أي يستنبطونها في أي المحال أحبوا ، يبعث لهم العيون بفنون المسارب والمياه ، وقد قال ابن مسعود :

« ما في الجنة عين إلا تنبع من تحت جبل مسكة » . .

وروى الأعمش : عن عمر بن مرة ، عن مسروق ، عن ابن مسعود أنه قال :

« أنهار الجنة تفجر من جبل مسك » . .

* * *

أشجار الجنة

قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلاً ﴾[3] . .

---

(١) المؤمنون : ١٨ .
(٢) أخرجه الضياء المقدسي . . قال ابن كثير معلقاً : هذا حديث غريب جداً ، بل منكر . .
(٣) النساء : ٥٧ .

وقال تعالى :

﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾[1] . .

أي مائلتان إلى السواد ، من شدة خضرتهما ، واشتباك أشجارهما . .

وقال تعالى :

﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾[2] . .

أي قريب من التناول وهم على الفرش .

وقال :

﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ﴾[3] . .

وقال تعالى :

﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ . فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ . وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ . وَظِلٍّ مَمْدُودٍ . وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ . وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ . لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ . وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ ﴾[4] . .

وقال تعالى :

﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾[5] . .

ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما في الجنة إلا ساقها من ذهب »[6] . .

---

(١) الرحمن : ٦٤ .

(٢) الرحمن : ٥٤ .

(٣) الانسان : ١٤ .

(٤) الواقعة : ٢٧ ـ ٣٤ .

(٥) الرحمن : ٦٨ .

(٦) الحديث رواه الترمذي وقال : حسن صحيح كما قال ابن كثير في نهاية البداية والنهاية (٣٠١/٢) .

- وعن ابن عباس قال : « نخل الجنة جذوعها من زمرد أخضر ، وفروعها ذهب أحمر ، وسعفها كسوة لأهل الجنة ، منها مقطعاتهم ، وحللهم ، وثمرها أمثال القلال والدلاء ، أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، واللين من الزبد ، ليس فيه عجم » .

* * *

شجرة في الجنة

- عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها » أ . هـ[1] .

شجرة طوبى

- عن عتبة بن عبيد الله السلمي قال :

جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فسأله عن الحوض ، وذكر الجنة ، فقال الأعرابي ، فيها فاكهة ؟ قال نعم : وفيها شجرة تدعى طوبى فذكر شيئاً لا أدري ما هو ، قال : أي شجر أرضنا تشبه ؟ قال : ليست تشبه شيئاً من شجر أرضك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أتيت الشام ؟ قال : لا : قال تشبه شجرة بالشام ، تدعى الجوزة ، تنبت على ساق واحد ، وينفرش أعلاها : قال : ما عظم أصلها ؟ قال : لو ارتحلت جذعة من ابل أهلك ما أحطت بأصلها حتى ينكسر عرقوبها هرماً : قال : فيها عنب ؟ قال : نعم : قال : فما عظم العنقود ؟ قال : مسيرة شهر للغراب الأبقع لا يفتر ، قال : فما عظم الحبة أتتخذ منها دلواً ؟ قال : نعم ، قال الأعرابي : فإن تلك لتسعني وأهل بيتي ؟ قال : وعامة عشيرتك » أ . هـ[2] . .

* * *

---

(١) أخرجاه في الصحيحين .

(٢) أخرجه الامام أحمد في مسنده

ـ عن أبي سعيد ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلا قال : يا رسول الله : طوبى لمن رآك وآمن بك فقال :

« طوبى لمن رآني ، وآمن بي ، وطوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني » .

فقال رجل : يا رسول الله : وما طوبى ؟ قال :

« شجرة في الجنة ، مسيرة مائة سنة ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها »[1] . .

* * *

سدرة المنتهى

قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ . عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ . عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ . إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ . مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ . لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾[2] .

قال ابن كثير في نهاية البداية والنهاية : « وذكرنا في التفسير : أنه غشيها نور الرب جل جلاله ، وأنه غشيتها الملائكة ، عليها مثل الغربان ـ يعني كثرة ـ وأنه غشيتها فراش من ذهب ـ وغشيتها ألوان متعددة » .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يغشاها الألوان ، لا أدري ما هي ، ما يستطيع أحد أن ينعتها » أ . هـ[3] .

* * *

---

(١) ذكره ابن كثير في نهاية البداية والنهاية (٢/٣٠٥) .

(٢) النجم : ١٣ ـ ١٨ .

(٣) نهاية البداية والنهاية (٢/٣٠٦) .

وقال صلى الله عليه وسلم في حديث المعراج :

« ثم رفعت إلى سدرة المنتهى ، في السماء السابعة ، فإذا نبتها مثل قلال هجر ، وورقها مثل آذان الفيلة ، وإذا هي يخرج من ساقها نهران ظاهران ونهران باطنان ، قلت : يا جبريل : ما هذا ؟ قال : أما النهران الباطنان ففي الجنة ، وأما النهران الظاهران فالنيل والفرات » أ . هـ[1] .

* * *

ثمار الجنة

قال تعالى :

﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ.فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ.وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ، وَظِلٍّ مَمْدُودٍ.وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ.وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ.لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ »[2] . .

أي لا تنقطع في بعض الأزمان ، بل هي موجودة في كل أوان . . كما قال تعالى :

﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾[3] . .

أي ليس كالدنيا ، التي تأتي ثمارها في بعض الفصول ، وتفقد في وقت آخر ، وتكتسي أشجارها الأوراق في وقت ، وتخلعها في وقت آخر ، ولا ممنوعة : أي من أرادها فإنها ليس دونها حجاب ، ولا مانع ، بل من أرادها فهي موجودة ، سهلة ، منالها قريب ، حتى ولو كانت الثمرة في أعلى الشجرة فأراد أخذها ، اقتربت منه وتدلت .

* * *

---

(١) أخرجاه في الصحيحين .

(٢) الواقعة : ٢٧ ـ ٣٣ .

(٣) الرعد : ٣٥ .

وقال تعالى :

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[1] ..

وقال تعالى :

﴿ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ. وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ. وَحُورٌ عِينٌ. كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ. جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[2] ..

* * *

ثبت أن ابن عباس رضي الله عنه قال :

« ليس في الجنة من الدنيا إلا الأسماء » .

أي أنه إذا كان في الدنيا شجر لا تثمر إلا شوكا .. فشبيهتها في الجنة تثمر ثمراً طيباً ..

والشجر الذي لا يراد منه إلا الظل يكون في الجنة في غاية الحسن والإثمار ..

« حتى أن الثمرة الواحدة منها تنفتق عن سبعين نوعاً من الطعوم ، والألوان ، التي يشبه بعضها بعضاً ، فما ظنك بثمار الأشجار ، التي تكون في الدنيا حسنة الثمار ، كالتفاح ، والنخل والعنب وغير ذلك ؟ وما ظنك بأنواع الرياحين والأزاهير ؟ وبالجملة ، فإن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » ..

* *

وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

---

(١) البقرة : ٢٥ .

(٢) الواقعة : ٢٠ ـ ٢٤ .

« إن الرجل إذا نزع ثمرة من الجنة عادت مكانها الأخرى »[1] . .

* * *

غرف الجنة وقصورها

قال تعالى :

﴿ لَكِنِ الذِينَ اتقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ ﴾[2] . .

وقال تعالى :

﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾[3] . .

ـ وعن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن في الجنة لغرفاً يرى ظهورها من بطونها ، وبطونها من ظهورها ، فقام أعرابي فقال : يا رسول الله لمن هي ؟ قال : لمن طَيَّبَ الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام ، وصلى بالليل والناس نيام » أ . هـ[4] .

ـ عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« أدخلت الجنة فإذا أنا بقصر من ذهب فقلت : لمن هذا القصر ؟ قالوا : لشاب من قريش ، فظننت أني أنا هو ، فقلت : ومن هو؟ قالوا لعمر بن الخطاب » أ . هـ[5] .

قال الأعمش عن مالك بن الحرث عن مغيث بن سمى قال :

« إن في الجنة قصوراً من ذهب ، وقصوراً من فضة ، وقصوراً من لؤلؤ ،

---

(١) الحديث رواه الهيثمي في مجمع الزوائد وقال : رواه الطبراني والبزار .

(٢) الزمر : ٢٠ . (٣) سبأ : ٣٧ .

(٤) أخرجه الترمذي وقال : حديث غريب .

(٥) أخرجاه في الصحيحين .

وقصوراً من ياقوت ، وقصوراً من زبرجد . قال الأعمش عن مجاهد عن عبيد بن عمير قال : إن أدنى أهل الجنة منزلة من له دار من لؤلؤة واحدة منها غرفها وأبوابها .

ـ وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن في الجنة لغرفا فإذا كان ساكنها فيها لم يَخْفَ عليه ما خلفها ، وإذا كان خلفها لم يَخْفَ عليه ما فيها ، قيل : لمن هي يا رسول الله ؟ قال : لمن أطاب الكلام ، وواصل الصيام ، وأطعم الطعام ، وأفشى السلام ، وصلى والناس نيام ، قال : وما طيب الكلام ؟ قال : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، فإنها تأتي يوم القيامة ، ولها مقدمات ومعقبات ، قيل وما وصال الصيام ؟ قال : من صام شهر رمضان ثم أدرك شهر رمضان فصامه . قيل : وما اطعام الطعام ؟ قال : من قات عياله وأطعمهم ، قيل : وما افشاء السلام ؟ قال : مصافحة أخيك وتحيته ، قيل : وما الصلاة والناس نيام ؟ قال : صلاة العشاء والآخرة » أ . هـ[1] .

* * *

ريح الجنة

ـ عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« من قتل قتيلا من أهل الذمة لم يُرَحْ رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة مائة عام أ . هـ[2] . .

* * *

(١) رواه البيهقي

(٢) رواه الطبراني .

آنية أهل الجنة

قال تعالى :

﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ . بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴾(١) .

والأكواب : الأباريق التي لها خراطيم . . وهي جمع كوب . .

وقال تعالى :

﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ، قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً ﴾(٢) .

فالقوارير هي الزجاج ، فأخبر سبحانه وتعالى عن مادة تلك الآنية أنها من فضة ، وأنها بصفاء الزجاج وشفافته . وهذا من أحسن الأشياء وأعجبها وقطع سبحانه توهم كون تلك القوارير من زجاج فقال « قوارير من فضة » .

قال مجاهد وقتادة ومقاتل والكلبي والشعبي : قوارير الجنة من الفضة فاجتمع لها بياض الفضة وصفاء القوارير .

قال ابن قتيبة : كل ما في الجنة من الأنهار وسررها وفرشها وأكوابها مخالف لما في الدنيا من صنعة العباد كما قال ابن عباس : ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء والأكواب في الدنيا ، وقد تكون من فضة وتكون من القوارير ، فأعلمنا الله أن هناك أكواباً لها بياض الفضة وصفاء القوارير قال : وهذا على التشبيه أراد قوارير كأنها من فضة ، وهذا كقوله تعالى :

﴿ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ . .

أي لهن ألوان المرجان في صفاء الياقوت ، وهذا مردود عليه . . فإنَ الآية صريحة أنها من فضة و « مِنْ » ها هنا لبيان الجنس كما نقول : خاتم من فضة ،

---

(١) الواقعة : ١٧ ، ١٨ .

(٢)الانسان : ١٥ ، ١٦ .

ولا يراد بذلك أنه يشبه الفضة ، بل جنسه ومادته الفضة ، بل ولعله أشكل عليه كونها من فضة وهي قوارير ، وهو الزجاج وليس في ذلك اشكال لما ذكرناه .

وقوله :

﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً ﴾ . .

التقدير : جعل الشيء بقدر مخصوص ، فقدرت الصناع هذه الآنية على قدر ريهم لا يزيد عليه ولا ينقص منه ، وهذا أبلغ في لذة الشارب ، فلو نقص عن ريه لنقص التذاذه ؟ ولو زاد حتى يشمئز منه حصل له ملالة وسآمة من الباقي . هذا قول جماعة من المفسرين .

قال الفراء : قدروا الكأس على قدر أحدهم ، لا فضل فيه ولا عجز عن ريه ، وهو ألذ الشراب .

قال الزَّجَاجُ : جعلوا الاناء على قدر ما يحتاجون اليه ويريدونه . .

وقال أبو عبيد : يكون التقدير الذين يسقون يقدرونها ، ثم يسقون ، يعني أن الضمير في قدروا للملائكة والخدم قدروا الكأس على قدر الري ، فلا يزيد عليه فيثقل الكف ولا ينقص منه فتطلب النفس الزيادة . .

وقالت طائفة : الضمير يعود على الشاربين ، أي قدروا في أنفسهم شيئاً فجاءهم الأمر بحسب ما قدروه وأرادوه . . وقول الجمهور أحسن وأبلغ . وهو مستلزم لهذا القول . .

وأما الكأس : فقال أبو عبيدة : هو الاناء بما فيه ، وقال أبو اسحاق : الكأس والاناء إذا كان فيه خمر ، ويقع الكأس لكل اناء مع شرابه . .

والمفسرون فسروا الكأس بالخمر ، وهو قول عطاء والكلبي ومقاتل ؟ حتى قال الضحاك : كل كأس في القرآن ، فإذا عنى به الخمر ، وهذا نظر منهم إلى المعنى المقصود : فإن المقصود ما في الكأس لا الاناء نفسه . . وأيضاً فإن من الأسماء ما يكون اسماً للحال والمحل مجتمعين ومنفردين كالنهر والكأس . فإن

النهر اسم للماء ولمحله معاً .

ولكل منها على انفراده ، وكذلك الكأس والقرية ، ولهذا يجي لفظ القرية مراداً به الساكن فقط والمسكن فقط والأمران معاً[1] .

ـ وعن حذيفة بن اليمان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« لا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافها ، فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة » أ . هـ[2] .

* * *

لباس أهل الجنة

قال تعالى :

﴿ إن المتقين في مقام أمين . في جنات وعيون ، يلبسون من سندس واستبرق متقابلين ﴾ [3] . .

وقال تعالى :

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا ، أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق متكئين فيها على الأرائك ﴾[4] .

قال بعض المفسرين : السندس مارق من الديباج ، والاستبرق : ما غلظ منه .

وقالت طائفة : ليس المراد به الغليظ ، ولكن المراد به الصفيق .

قال الزجاج : هما نوعان من الحرير ، وأحسن الألوان الأخضر ، وألين

---

(١) حادي الأرواح (١٩١) .
(٢) أخرجاه في الصحيحين .
(٣) الدخان : ٥١ ـ ٥٣ .
(٤) الكهف : ٣٠ ، ٣١ .

اللباس الحرير ، فجمع لهم بين حسن منظر والتذاذ العينْ به ، وبين نعومته والتذاذ الجسم به ، وقال تعالى :

﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ . .

ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

« من يدخل الجنة ينعم ولا ييأس ، ولا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه ، وفي الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » أ . هـ[1]

* * *

الحور العين

قال تعالى :

﴿ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الخِيَامِ ﴾ . (الرحمن : ٧٢)

ـ عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن في الجنة لمجتمعاً للحور العين يرفعن بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها قال : يقلن : « نحن الخالدات فلا نبيد ، ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا نسخط ، طوبى لمن كان لنا وكنا له » أ . هـ[2] .

ـ وعن برده عن أبي مسعود الغفاري قال أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من عبد يصوم يوماً من رمضان إلا زوجه زوجة من الحور العين في خيمة من درة مجوفة مما نعت الله :

﴿ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الخِيَامِ ﴾ . .

على كل امرأة منهن سبعون حلة ليس منها حلة على لون الأخرى ويعطى لوناً من الطيب ليس منهن لون على ريح الآخر لكل امرأة منهن سبعون سريراً

---

(١) رواه مسلم .

(٢) أخرجه الترمذي .

من ياقوتة حمراء ، موشحة بالدر والياقوت ، على كل سرير سبعون فراشاً على كل فراش أريكة ، لكل امرأة منهن سبعون ألف وصيفة لحاجتها ، وسبعون ألف وصيف ، مع كل وصيف صحفة من ذهب فيها لون من طعام تجد لآخر لقمة لذة لم تجد لأوله ، ويعطى زوجها مثل ذلك على سرير من ياقوت أحمر عليه سواران من ذهب موشح بياقوت أحمر ، هذا بكل يوم صامه من شهر رمضان سوى ما عمل من الحسنات » أ . هـ[1] .

وروى الترمذي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الحور العين من أي شيء خلقن فقال من ثلاثة أشياء : أسفلهن من المسك وأوسطهن من العنبر وأعلاهم من الكافور وشعورهم وحواجبهم سواد خُطَّ من نور » أ . هـ

* * *

رؤية الرب عز وجل

قال تعالى :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ . . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ . (القيامة : ٢٢ ، ٢٣)

نعم . . أحلى ما في الجنة . . هي غاية شمّر اليها المشمرون وتنافس فيها المتنافسون ، وتسابق اليها المتسابقون ، ولمثلها فليعمل العاملون . .

فقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« أما منكم من أحد إلا سيخلو الله به يوم القيامة ، ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان » أ . هـ[2] .

وعن رزين قال : قلنا يا رسول الله : أكلنا يرى ربه عز وجل يوم القيامة ؟ قال : نعم قلت : وما آية ذلك في خلقه ؟ قال : أليس كلكم ينظر إلى القمر ليلة البدر ؟ قلنا : نعم ، قال : الله أكبر وأعظم » أ . هـ[3] . .

---

(١) أخرجه الترمذي الحكيم في « نوادر الأصول » .
(٢) أخرجه ابن خزيمة وغيره .
(٣) أخرجه الامام أحمد .

ماذا بعد الجنة والنار ؟ :

بعد دخول المؤمنين الجنة . . ودخول الكافرين النار يذبح الموت على الصراط . .

إلى أجل مسمى . . يخرج من النار كل من في قلبه ايمان كما ثبت . . وتبقى النار على أصحابها أبد الآبدين . . وهذا هو الصحيح .

أخرج مسلم عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، يجاء يوم القيامة بالموت كأنه كبش أملح ، فيوقف بين أهل الجنة وأهل النار ، فيقال يا أهل الجنة : هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبون وينظرون ، فيقولون : نعم هذا الموت ، ثم يقال يا أهل النار : هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبون ، وينظرون ، فيقولون : نعم : هذا الموت ، قال فيؤمر به فيذبح ، قال ثم يقال : يا أهل الجنة خلود بلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت فيها ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ . . (مريم : ٣٩) .

وأشار بيده إلى الدنيا » أ . هـ .

كذا خرّجه أبو عيسى الترمذي عن أبي سعيد . وقال : حسن صحيح .

* * *

وقد تقدم أن الله يخرج منها عبداً كان يقول : يا حنان يا منان . . وهذا صحيح . . وكان هذا الرجل من الموحدين . . أما الكفار . . فلا يخرجون منها أبداً . .

تأمل قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا العَذَابَ ﴾ . . (النساء : ٥٦) .

وقوله :

﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الحَمِيمُ. يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالجُلُودُ. وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ. كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ .. (الحج : ١٩ - ٢٢).

* * *

خـاتمــــة

ماذا يريد الانسان بعد علمه بأحداث حياته المستقبلية وتفاصيلها الدقيقة؟ لا أدري.. لماذا يعلن غطرسته..؟ أقويت عزيمته ضد الحق.. أم أنه تغيرت لديه موازين القياس.. فقاس الأمور بموازين أخرى؟..

إنه يعيش إن عقل بين سعادتين.. سعادة الدنيا في التزامه.. واستقراره النفسى.. وبعده عن الظلم ومسالك الأشقياء.. ثم سعادة الاخرة باطمئنان قلبه وملاقاته لربه..

لعله يحاول بعد أن عرف رحلته كاملا أن يفرق بين النور والظلام..

رحلة طويلة شاقة تحتاج إلى كفاح ومكابدة.. فلا بد من زاد يناسبها.. وهذه هي الحياة بعد الموت..

حياة لا يتملك عليها الانسان - كما كان يتملك على حياته - وانما الذي يتملك عليها ما قدمت يداه..

وهذا ما وفقني الله إليه.. أسأل الله رب العالمين أن يهون علينا سكرات الموت.. وأن يجعل أحب إيامنا يوم لقائه.. وأن يقربنا من الجنة وما يقرب إليها من قول أو عمل.. وأن يباعد بيننا وبين النار كما باعد بين المشرق والمغرب.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

إبراهيم محمد الجمل

أهم المراجـع

١ - التذكرة للقرطبي - ط الكليات الأزهرية ..
٢ - حادي الأرواح - لابن القيم ط المدني .
٣ - الروح - لابن القيم ط دار عمر بن الخطاب .
٤ - مجموع الفتاوى لابن تيمية - ط م ابن تيمية .
٥ - أحكام القران للجصاص - ط دار - الكتاب العربى - بيروت .
٦ - تفسير ابن كثير . ط دار التراث العربى .
٧ - الترغيب والترهيب ط م جمهورية مصر .
٨ - نيل الأوطار للشوكاني ط الكليات الأزهرية .
٩ - فقه السنة للشيخ السيد سابق ط مكتبة المسلم .
١٠ - الفقه الواضح للشيخ محمد بك اسماعيل - ط المكتبة التوفيقية .
١١ - السنن والمبتدعات - محمد عبد السلام الشقيري ط مكتبة جمهورية مصر .
١٢ - مصرع الشرك والخرافة - خالد محمد على الحاج . ط ادارة الشئون الدينية - قطر .
١٣ - مفتاح دار السعادة لابن القيم - م حميدو بالاسكندرية .
١٤ - البداية والنهاية لابن كثير - ط دار الحديث .
١٥ - أهوال القبور لابن رجب الحنبلي .. ط م السنة المحمدية .
١٦ - احياء علوم الدين - للغزالى - ط الحلبي .
١٧ - يقظة أولى الاعتبار في ذكر النار - لصديق حسن ط دار التراث الاسلامي .
١٨ - زاد المعاد في خير هدى العباد .. لابن القيم - ط المكتبة المصرية .
١٩ - الأم - للشافعي - ط بيروت .
٢٠ - بداية المجتهد .. ونهاية المقتصد - لابن رشد الحفيد .
٢١ - الصحاح .. والمسانيد ..
٢٢ - معجم ألفاظ الحديث الشريف - بيروت .
٢٣ - معجم ألفاظ القران الكريم - محمد فؤاد عبد الباقى - بيروت .
٢٤ - المصباح المنير .. الفيومي - بيروت .
٢٥ - أساس البلاغة - الزمخشري - بيروت .
٢٦ - مختار الصحاح - لابي بكر الرازي - الهيئة المصرية العامة للكتاب .

الفهـرس